المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلّية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي



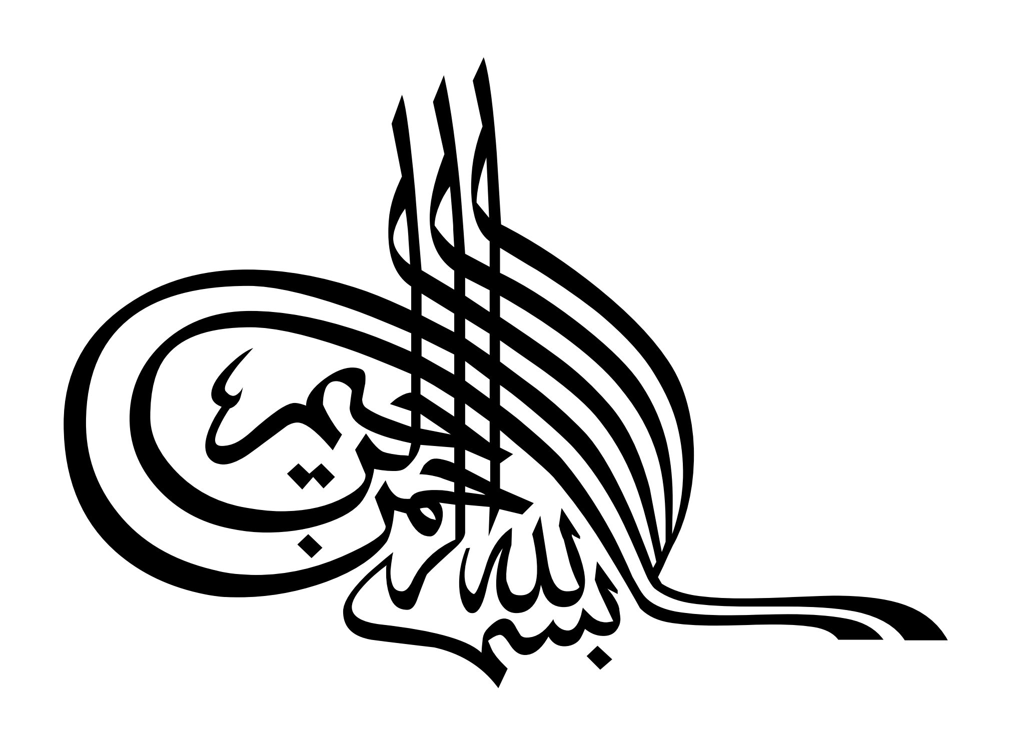
البلاغة النبوية في كتاب التوحيد من صحيح البخاري

رسالة مقدمة إلى قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
لنيل درجة العالمية (الماجستير) في البلاغة

إعداد
بدر بن عبد الرحمن النفيسة

إشـــراف
أ.د. صالح بن محمد الزهراني
الأستاذ بالقسم

١٤٣٢هـــ


بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح الخلق لسانًا، وأكملهم بيانًا، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فلا شك في أنّ الغاية العظمى لعلوم البلاغة العربية، هي الكشف عن أسـرار الكتاب العزيز، ودقائق إعجازه، وإبراز خصائص البلاغة النبوية وقوّة بيانها، من خـلال تحليل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية.

وقد عني العلماء قديمًا وحديثًا بعلوم البلاغة، فألفوا فيها مؤلفـات، ضـمت قواعدها، وشرحت أساليبها، وضربت لها الشواهد من الكتاب الكريم، والسنة المطهـرة، وشعر العرب ونثرهم.

غير أنّ النصيب الأكبر من الشواهد كان يعتمد على القرآن الكريم، وأشـعار العرب، أما الاستشهاد بكلام النبي ﷺ فكان أقلّ، مع كونه يقع في ذروة البيان بعد كلام الله، فالنبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم .

لذا طفقت أبحث عن موضوع في البلاغة النبوية، يسهم في الكشف عن احتواء تلك الأحاديث على كثير من فنون البلاغة المختلفة، حتى انتهيت إلى هذا الموضوع:

البلاغة النبوية في كتاب التوحيد
من صحيح البخاري

ويضم هذا الكتاب بين جنباته (١٩٣) حديثًا، تضمنت فنونا متنوعة من فنون البلاغة العربية، تؤكد بجلاء علو بلاغة الرسول ﷺ وقوة بيانه.

- أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١) انصراف جهد كثير من الدارسين إلى البحث في بلاغة القرآن الكريم، وأشـعار العرب؛ لذا عقدت العزم على أن يكون البحث امتدادا لتلك الثلة الـتي آثـرت البحث في الحديث النبوي وإظهار أسرار بيانه وخصائص تراكيبه، ومحاسن بديعه.

٢) كونه يبحث في البلاغة النبوية، وكفى بالمرء شرفًا أن يسهم في الكشف عن بلاغة النبي الكريم الذي أوتي جوامع الكلم.

٣) تلاؤم الموضوع مع ميول الطالب ورغبته العلمية.

٤) وقع الاختيار على صحيح البخاري لأنه أصح الكتب بعد كتاب الله ﷻ، فالأحاديث الواردة فيه صحيحة ثابتة عن المصطفى ﷺ، وهذا يطمئن الإنسان على صحة الأحاديث المدروسة، دون أن يتطرق إليه شك في ثبوتها.

٥) أن هذا الكتاب – على حد علمي – لم يدرس دراسة بلاغيّة، وإنما درس من جوانب أخرى، لا علاقة لها بالبلاغة.

٦) احتضان هذا الكتاب لفنون مختلفة من علوم البلاغة، تظهر سمو لغة النبي الأمين ﷺ ورفعة بيانه.

- **أهداف الدراسة**:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف ، أهمها :

١) الكشف عن وجوه بلاغة المصطفى ﷺ، وإبراز قوة بيانه ، وبراعة أساليبه ، من خلال أحاديث كتاب التوحيد في صحيح البخاري .

٢) خدمة الحديث الشريف من خلال هذا البحث ، وذلك بالتناول البلاغي له فثمة تناولات مختلفة ، كالتناول العقدي ، والفقهي ، والدعوي .

٣) التنبيه و التأكيد على وفرة الشواهد البلاغية في النصوص النبوية .

٤) إبراز الاتصال الوثيق بين السنة النبوية والبلاغة العربية ، وبيان أن الحديث الشريف هو الحقل الثاني للبلاغة العربية .

- الدراسات السابقة:

لم أجد – على حد علمي – دراسات سابقة تناولت هذا الكتاب من صحيح الإمام البخاري بدراسة بلاغية، وإنما وجدت دراسات لا تتعلق بالبلاغة، بـــل هـــي في تخصصات أخرى، وإليك بعضًا منها:

الأولى: رسالة ماجستير، للباحث: صالح بن محمد الدميجي، بعنوان: التوضيح بشرح الجامع الصحيح لابن الملقن: من أول كتاب التوحيد إلى نهايته تحقيق ودارســـة، في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى.

والثانية: رسالة دكتوراه، للباحث: عبد الله بن إبراهيم الشويمان، بعنوان: فقـــه الدعوة في صحيح الإمام البخاري: دراسة دعوية من كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان إلى نهاية كتاب التوحيد، في كلية الدعوة والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وهاتان الدراستان، إنما تعالج جوانب مختلفة عن هذه الدراسة، كما أنّ بعضها يفيد من النص النبوي من خلال سبل بعيدة عن سبيل هذه الدراسة.

وثمة دراسات بلاغية، اتجهت نحو صحيح البخاري، أو الصحيحين، فدرســـت أحاديث منتقاة منهما، كما في رسالة الدكتور: عبد الله بن صالح المســـعود، في رســـالته الدكتواره، التي كانت بعنوان: البلاغة النبويـــة في أحاديـــث الترغيـــب والترهيـــب في الصحيحين. وقد درست الرسالة أحد عشر حديثًا من كتاب التوحيد.

كما أنّ الدكتور: عبد الله بن أحمد بـــن قصـــاد العمـــري، درس أحاديـــث موضوعية، وذلك في رسالته الموسومة بـــ: البلاغة النبويـــة في أحاديـــث العبـــادات في الصحيحين: دراسة تحليلية ، التي نال بها درجة الدكتوراه. وقد كـــان نصـــيب كتـــاب التوحيد من الرسالة ثمانية أحاديث.

وهناك دراسات درست ظواهر بلاغية مستقلة، كما فعل الدكتور: عبدالعزيز ابن صالح العمار، في رسالته التي كان عنوانها: الاستفهام في الصـــحيحين - خصائصـــه التركيبية ومعانيه البلاغية: دراسة بلاغية تحليلية، ونال بها درجة الدكتوراه. وقد تطرقـــت الرسالة لاستفهامات خمسة عشر حديثًا من كتاب التوحيد.

وهناك دراسات تناولت كتباً بعينها، كما فعلت الباحثة : نوف بنت سالم الشمري، في رسالتها: البلاغة النبوية في كتابي الفتن والاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري: دراسة تحليلية، والتي نالت بها درجة الماجستير. وقد تكرر ذكر أربعة أحاديث مما درست في كتاب التوحيد.

يتضح مما سبق أنّ كتاب التوحيد صالح للدراسة، حيث لم يدرس من أحاديثه في تلك الدراسات إلا أحاديث معدودة؛ ففي بقية الأحاديث غنية.

- منهج البحث :

١) يعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي، الذي يتتبع وجوه البيان، وخصائص التراكيب، ومحاسن البديع، التي تضمنتها الأحاديث النبوية؛ كاشفًا النقاب عنها، مع الإفادة من نفيس ما كتبه العلماء في شروحهم لصحيح البخاري.

٢) اقتصرت في مادة البحث على الأحاديث النبوية الواردة في كتاب التوحيد من صحيح البخاري دون الآثار الموقوفة عن الصحابة ﷺ أو التابعين.

٣) اعتمدت في كتابة الآيات القرآنية على البرنامج الحاسوبي (مصحف المدينة النبوية) الصادر عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، وعزوت الآيات إلى مواضعها؛ ذاكرًا اسم السورة، ورقم الآية.

٤) خرّجت الأحاديث النبوية من مظانّها؛ مشيرًا إلى اسم الكتاب، والباب، ورقم الحديث. أما ما ورد في كتاب التوحيد فاكتفيت فيه بذكر اسم الباب ورقم الحديث.

٥) ضبطت الأبيات الشعرية بالشكل، ونسبتها إلى قائليها –ما أمكنني ذلك– بعزوها إلى ديوان الشاعر – إن وجد– أو تخريجها من مصادرها.

٦) أعرّف المصطلحات والفنون البلاغية في مفتتح كل مبحث، مستعينًا بما دوّنه البلاغيون واللغويون.

٧) وضحت معنى بعض الألفاظ الغريبة في الحاشية، متكئًا على معاجم اللغة وشروح البخاري.

٨) استشهدت ببعض الأحاديث من خارج كتاب التوحيد، وتارة بأحاديث صحيحة من غير البخاري؛ تربية للدلالة البلاغية، وتأكيدًا لبعض الأسرار البلاغية المتصلة بالنص النبوي.

٩) تكررت بعض الشواهد في مواضع متفرقة من الرسالة؛ وذلك لما يحويه النص من كنوز بيانية تتضمن فنونا بلاغية متنوعة.

١٠) في النقول والاستشهادات، كانت العلامة ﴿ ﴾ خاصة بالنص القرآني، وأما النص النبوي فكان يقع بين ""، وأما النقول والاستشهادات من غير الكلام النبوي فكانت بين (())، وللمصطلحات وتوضيح المراد كانت العلامة (). وتخريج السورة يقع بين {}.

١١) وكانت شروح البخاري بعامة، وبعض شروح مسلم، وكتب غريب الحديث، بالإضافة إلى كتب البلاغة قديمها وحديثها أبرز المصادر والمراجع التي أفدت منها.

وقد انتظم هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وستة فصول، يتلوها خاتمة، وفهارس.

أما المقدمة فأشرت فيها إلى أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومنهجي في البحث.

وفي التمهيد كان التعريف بصحيح البخاري، وبصاحبه محمد بن إسماعيل البخاري، وكذا الإشارة إلى الموضوعات التي تضمنتها أحاديث كتاب التوحيد.

ثم شرعت في الحديث عن الأسرار البلاغية لدلالة (المفردة)، وكان ذلك في الفصل الأول عبر مبحثين:

المبحث الأول: المادة.

المبحث الثاني: الهيئة.

وجعلت الفصل الثاني معنيًا بـــ(الجملة) ولطائفها، واشتمل هذا الفصل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: الخبر والإنشاء.

المبحث الثاني: التقديم والتأخير.

المبحث الثالث: الإطلاق والتقييد.

المبحث الرابع: القصر.

وفي الفصل الثالث اتجه الحديث إلى (الجمل)، وجاء في أربعة مباحث:

المبحث الأول: خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

المبحث الثاني: الفصل والوصل.

المبحث الثالث: الإيجاز.

المبحث الرابع: الإطناب.

وجاء (التصوير البياني) بأجناسه في الفصل الرابع منتظمًا في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التشبيه.

المبحث الثاني: المجاز:

أ. المجاز العقلي.

ب. المجاز اللغوي:

- المجاز المرسل.
- الاستعارة

المبحث الثالث: الكناية والتعريض.

وفي الفصل الخامس كان الحديث عن (التحسين البديعي)، وذلك في مبحثين:

المبحث الأول: البديع المعنوي.

المبحث الثاني: البديع اللفظي.

وأما الفصل السادس فقد عني بـــ(السمات العامة في أحاديث كتاب التوحيد) عبر مبحثين:

المبحث الأول: في المضمون.

المبحث الثاني: في الشكل.

ثم تلوت ذلك بخاتمة أشرت فيها إلى أهم النتائج التي توصلت إليها، مذيلة ببعض الاقتراحات والتوصيات، وختمت البحث بفهارس للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وثبت بالمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

وقلّما يخلو جهد علمي من صعوبات تواجه الباحث، غير أنّ الاستعانة بالله ﷻ كانت السلاح الأقوى لإزاحة كل ما يعترضني، ويمكن القول بأنّ أكثر ما يواجه الدارس للبلاغة النبوية هو شحّ المادة العلمية البلاغية، فالعناية بالجانب البلاغي في الشروح الحديثية قليلة، وقد وجدت –بحمد الله– مؤخرًا عناية ببلاغة الحديث النبوي، علّها تؤتي ثمارها وتروي عطش الباحثين في هذا الجانب. وقد أفاد البحث من هذه الجهود التي سبقته.

وبعد: فإني أشكر الله ﷻ وأثني عليه الخير كله، على توفيقه وتيسيره إتمام هذه الدراسة، فله الحمد في الأولى والآخرة.

ثم أتقدم بالشكر الجزيل والدعاء الوفير لوالديّ العزيزين، اللذين ما فتئا يحوطانني بدعوات صالحات صادقات، فقد كانا نعم الحافز والمعين، فأسأل الله بمنه وكرمه أن يمدّ في أعمارهما على طاعة، وأن يعينني على برهما والإحسان إليهما.

ثم أتوجه بالشكر لمرشدي الأكاديمي الدكتور: عبدالله المسعود على رعايته هذا البحث، فقد كان نعم الموجه والمرشد.

كما أشكر الدكتور: أحمد السديس الذي أشرف علي في مفتتح الرسالة، وقد أفدت منه فائدة كبيرة في المنهج العلمي، وفي طريقة تنسيق البحوث.

وللدكتور: صالح الزهراني خالص الشكر وعظيم الامتنان على رحابة صدره، وتواضعه، وحرصه على تميز البحث والباحث، فقد جنيت من إشرافه عليّ علمًا جمًّا، وخلقًا حسنًا. والشكر ممتد لأعضاء لجنة المناقشة على جودهم بالوقت والجهد لقراءة البحث ومناقشته.

وفي الختام أسأل الله ﷻ أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن ينفع به المكتبة البلاغية، إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

بدر بن عبدالرحمن النفيسة

الرياض

١٤٣٢/١٠/٢٢هـ

التمهيد

- التعريف بصحيح البخاري، وبصاحبه.
- موضوعات أحاديث كتاب التوحيد.

أولًا: التعريف بصحيح البخاري، وبصاحبه:

صحيح البخاري:

اسمه:

اشتهر هذا الكتاب باسم (صحيح البخاري) حتى لا يكاد يعرف بسواه، غير أنّ تسمية مصنِّفه كما ذكر ذلك ابن حجر في مقدمة (فتح الباري)[1] هي: (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، وفي مصادر أخرى: (الجامع المسند الصحيح المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننـــه وأيامه)[2]، والتسميتان قريبتان من بعضهما، لكنه زيد في الثانية كلمة المختصر.

سبب تأليفه:

لم تكن أحاديث رسول الله ﷺ مدوَّنة في عصر الصحب الكرام ﷺ وكبار التابعين رحمهم الله لأمرين؛ أحدهما: خشية انكباب الناس على كتابة السنّة، وانشغالهم بها عن القرآن، ومما يدل على ذلك: ما رواه البيهقي في (المدخل) عن عروة بن الزبير أنّ عمر بن الخطاب ﷺ أراد أن يكتب السنن، فاستشار في ذلك أصحاب النبي ﷺ، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله ﷻ فيها شهرًا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: ((إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا، فأكبُّوا عليها وتركوا كتاب الله ﷻ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا))[3]، وقد ورد عن ابن مسعود ﷺ إتلافه لصحف حملت بعض الأحاديث[4].

---

(١) ينظر: هدي الساري: ١/١١.

(٢) ينظر: علوم الحديث لابن الصلاح: ١/ ٢٢٤، وما تمس إليه حاجة القاري لصحيح الإمام البخاري: ٣٩.

(٣) المدخل إلى السنن الكبرى: ٢/٢١٨.

(٤) ينظر: تقييد العلم: ٥٣.

الأمر الثاني الباعث على عدم التدوين هو: خشية الاتكال على الكتابة وترك الحفظ، ولقد كان غير واحد من السلف ـــ كما ذكر ذلك الخطيب البغدادي ـــ يستعين على حفظ الحديث بأن يكتبه ويدرسه من كتابه، فإذا أتقنه محا الكتاب؛ خوفًا أن يتَّكل القلب عليه، فيؤدي ذلك إلى نقصان الحفظ وترك العناية بالمحفوظ[1].

ثم بدا أن تُدوَّن آثار الرسول ﷺ في عهد عمر بن عبد العزيز، حيث أمر رسميًّا بتدوين أحاديث رسول الله ﷺ، فكتب إلى عامله أبي بكر محمد بن عمر بن حزم، وكان يعمل له على المدينة، فقال له: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنَّة ماضية، أو حديث عمرة فاكتبه؛ فإني خفت دروس العلم، وذهاب أهله، لكن الخليفة لم يسعد برؤية ما جمعه أبو بكر؛ لأنّ المنية عاجلته، غير أنّ ما جمعه محمد بن شهاب الزهري قد حظي باطِّلاع عمر بن عبد العزيز عليه، واحتفائه به، حيث بعث إلى كل بلد بدفتر من دفاتره[2]. إذن كان السبب الأول لتدوين الحديث هو: خشية فقدان العلم، وذهاب أهله.

ومن الأسباب أيضًا: كثرة الأحاديث الموضوعة، وفي ذلك يقول الزهري: ((لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها ولا نعرفها، ما كتبت حديثًا، ولا أَذِنْتُ في كتابة))[3].

وكانت هذه هي المحاولة الأولى لجمع الحديث وتدوينه بشمول واستقصاء، وبذلك مهَّد الزهري الطريق لمن بعده من العلماء[4].

وقد عاش التدوين بعد ذلك مراحل مختلفة، فقد كان في أوّل أمره يعتمد على الأبواب؛ حيث كانوا يجمعون الأحاديث المتناسبة في باب واحد، ثم يضمُّون جملة من الأبواب بعضها إلى بعض ويجعلونها في مصنَّف واحد، كما أنهم يخلطون الأحاديث بأقوال

---

(١) ينظر: تقييد العلم: ٥٨.

(٢) ينظر: علوم الحديث ومصطلحه: ٣٨.

(٣) علوم الحديث ومصطلحه: ٤٠.

(٤) ينظر: بحوث في تاريخ السنة: ٢٢٧.

الصحابة والتابعين[1]، كما في (الموطأ) للإمام مالك بن أنس، و(سنن سعيد بن منصور)[2].

ثم جاءت مرحلة المسانيد، حيث قصروا المصنَّفات على أحاديث رسول الله ﷺ دون أقوال الصحابة والتابعين؛ حيث جمعوا الأحاديث التي رواها كل صحابي على حدة، وإن تباينت موضوعاتها، ومن هذه المسانيد: (مسند إسحاق بن راهويه)، و(مسند الإمام أحمد بن حنبل). وقد حفلت هذه المرحلة بمسانيد كثيرة، غير أنّ هذه المسانيد لم تقتصر على جمع الحديث الصحيح فحسب، بل احتوت على الأحاديث الضعيفة أيضًا، كما أنّ طريقة ترتيبها تجعل الوقوف على أحاديث حكم مُعيَّن لا يحصل إلا بصعوبة؛ لأنها لم تُرتَّب على أبواب الفقه[3].

واستمر حال التدوين على هذه الصورة حتى جاء البخاري ووجد هذه التصانيف مشتملة على كثير من الأحاديث الضعيفة، فانقدحت فكرة تصنيف (الجامع الصحيح) في ذهنه وعقد العزم على ذلك. وكان مما أذكى عزم البخاري وقوّى إرادته، ما سمعه من أستاذه إسحاق بن راهويه، حيث كان يجلس في أحد مجالسه، فقال إسحاق: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله ﷺ، قال أبو عبد الله البخاري: فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع (الجامع الصحيح). ويضاف إلى ذين السببين: الرؤيا التي رآها البخاري حيث يقول: رأيت النبي ﷺ وكأنني واقف بين يديه، وبيدي مروحة أذبُّ بها عنه، فسألت بعض المعبرين فقال لي: أنت تذبُّ عنه الكذب، فهو الذي حملني على إخراج (الجامع الصحيح)[4].

وهكذا تضافرت هذه الأسباب مجتمعة لتخرج لنا هذا السفر النفيس، الذي لا يزيده تعاقب الأعوام إلا رفعة وعلوًّا.

---

(١) ينظر: الحديث والمحدثون: ٢٤٤.

(٢) ينظر: بحوث في تاريخ السنة: ٢٢٨.

(٣) ينظر: بحوث في تاريخ السنة: ٢٣٥.

(٤) ينظر: هدي الساري: ١/١٠.

منهج البخاري في (الصحيح):

عاهد البخاري نفسه ألا يودِعَ كتابه (الجامع) إلا ما صحَّ عن رسول الله ﷺ، حيث كان هذا هو السبب الأهم والدافع الأكبر لتأليفه. وقد أفصح عن ذلك بقوله: ((ما أدخلت في كتابي (الجامع) إلا ما صحَّ، وتركت من الصحيح حتى لا يطول))[1]، وهذا يعني أنه لم يحص كل الأحاديث الصحيحة، إلا أنه لم يدخل فيه غيرها.

وكان من مظاهر عنايته بصحة الأحاديث، وشدة توثقه منها أنه كان لا يضع حديثًا في (الصحيح) إلا اغتسل قبل ذلك وصلَّى ركعتين[2].

ومما يؤكد حرص البخاري الشديد على صحَّة أحاديث كتابه: قوله: ((ما جلست للحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم، وحتى نظرت في عامة كتب الرأي، وحتى دخلت البصرة خمس مرات أو نحوها، فما تركت بها حديثًا صحيحًا إلا كتبته، إلا ما لم يظهر لي))[3]. ومن ذلك: ما ذكره العقيلي من أنّ البخاري لما فرغ من تأليف (الصحيح)، عرضه على عدد من أئمة الحديث في عصره على رأس هؤلاء: الإمام أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وغيرهم، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة عدا أربعة أحاديث، وقد أيّد العقيليُّ البخاريَّ فيها فقال: ((والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة))[4].

لقد بذل البخاري جهدًا كبيرًا في تصنيفه لكتابه، فقد أخرج أحاديث هذا الكتاب من مئات الآلاف من الأحاديث، ولبث يجمعه سنين طويلة، وفي ذلك يقول: ((أخرجت هذا الكتاب من نحو ستمائة ألف حديث، وصنَّفته في ست عشرة سنة، وجعلته حجة بيني وبين الله ﷻ))[5].

---

(١) هدي الساري: ١/١٠.

(٢) ينظر: طبقات الشافعية للسبكي: ٢/٢٣١.

(٣) تاريخ الإسلام: ٦/١٥٠.

(٤) هدي الساري: ١/١٠.

(٥) طبقات الشافعية: ٢/٢٣١.

والبخاري لم يكن في كتابه جامعًا للأحاديث النبوية فحسب، بل إنّ جهده تجاوز ذلك إلى استنباط «الفوائد الفقهية، والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرقها في أبوابه بحسب تناسبها، واعتنى فيها بآيات الأحكام؛ فانتزع منها الدلالات البديعة، وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة......ليس مقصود البخاري الاقتصار على الأحاديث فقط، بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها، ولهذا المعنى أخلى كثيرًا من الأبواب عن إسناد الحديث واقتصر فيه على قوله: فيه فلان عن النبي ﷺ أو نحو ذلك، وقد يذكر المتن بغير إسناد، وقد يورده معلّقًا، وإنما يفعل هذا لأنه أراد الاحتجاج للمسألة التي ترجم لها..»[(١)].

لذلك يقول بعض العلماء حين يناقش أحد المسائل العلمية: وهذا ما ذهب إليه البخاري. ولا شك في أنّ معرفة فقه البخاري كانت من خلال التراجم التي ترجم بها على الأحاديث في (صحيحه)؛ لذلك قال العلماء: فقه البخاري في تراجمه. ومما يزيدنا يقينًا بعناية البخاري بالجانب الفقهي أنه أحيانًا يُبوِّب أبوابًا ولا يورد تحتها شيئًا من الأحاديث[(٢)].

وقد كان من منهج البخاري تكراره للأحاديث وإعادته لها، حيث يستدل به في كل باب بإسناد آخر، ويستخرج منه ــ بحسن استنباطه وغزارة فهمه ــ معنى يقتضيه الباب الذي أخرجه فيه، وقلّما يورد حديثًا في موضعين بإسناد واحد، ولفظ واحد[(٣)]، وإنما يورده من طريق آخر لمعانٍ منها[(٤)]:

- إخراج الحديث عن حد الغرابة، وقد يعتقد مَن ليس من أهل الصنعة أنّ الحديث مكرر.

---

(١) هدي الساري: ١/١١.

(٢) ينظر: مناهج المحدثين : ١٨.

(٣) بلغت الأحاديث الواردة في صحيح البخاري مكررة بإسناد واحد، ومتن واحد: اثنين وعشرين حديثًا. ينظر: عادات الإمام البخاري في صحيحه: ٥٦.

(٤) ينظر: هدي الساري: ١/٢٦.

- إزالة الشبهة عن الناقلين، حيث روى بعض الرواة الحديث تامًّا، وبعضهم مختصرًا، فيرويه البخاري كما جاء تامًّا ومختصرًا؛ ليزيل الشبهة عن ناقليه.
- بيان اختلاف ألفاظ الرواة، فقد يحدِّث راوٍ بحديث فيه كلمة تحتمل معنى، ويحدِّث به آخر فيعبِّر عن تلك الكلمة بعينها بعبارة أخرى تحتمل معنى آخر، فيورده بطرقه إذا صحَّت على شرطه، ويفرد لكل لفظة بابًا مفردًا.

ومن شواهد التكرار لدى البخاري، ما ورد في باب الاستنجاء بالماء، وباب من حمل معه الماء لطهوره، فقد قال في الباب الأول: حَدَّثَنَا أَبُو الْوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي مُعَاذٍ وَاسْمُهُ عَطَاءُ بْنُ أَبِي مَيْمُونَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ أَجِيءُ أَنَا وَغُلامٌ مَعَنَا إِدَاوَةٌ مِنْ مَاءٍ، يَعْنِي: يَسْتَنْجِي بِهِ"[1]. وذكر الحديث في الباب الثاني، ونصه: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي مُعَاذٍ هُوَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي مَيْمُونَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ لِحَاجَتِهِ تَبِعْتُهُ أَنَا وَغُلامٌ مِنَّا مَعَنَا إِدَاوَةٌ مِنْ مَاءٍ"[2].

نلاحظ في الرواية الأولى زيادة (يستنجي به) أي: أنّ النبي ﷺ كان يستنجي بالماء، وفي هذه الزيادة بيّن البخاري أنّ قوله: (يستنجي به) ليس هو من قول أنس، إنما هو من قول أبي الوليد، أي: أحد الرواة عن شعبة، حيث يحتمل أن يكون الماء لوضوئه[3].

ومن منهج البخاري أنه يذهب إلى جواز تقطيع الحديث تارة، واقتصاره منه على بعضه تارة أخرى، وذلك إذا كان الْمُقْتَطعُ لا يتعلق بما قبله ولا بما بعده تعلُّقًا يفضي إلى فساد المعنى؛ لأنّ المتن قد يكون مشتملاً على جمل متعددة لا تتعلق إحداها بالأخرى فيلجأ إلى ذلك؛ لفائدة في المتن، أو في الإسناد، أو فيهما معًا، حيث يستنبط حكمًا فقهيًّا يقتضيه معنى الباب، أو يكون الحديث عن صحابي ثم يورده عن صحابي آخر، أو يكون المحذوف موقوفًا على الصحابي وفيه شيء قد يحكم برفعه، فيقتصر على الجملة التي يحكم لها بالرفع،

---

(١) رواه البخاري: كتاب الوضوء: باب الاستنجاء بالماء:١٥٠.

(٢) رواه البخاري: كتاب الوضوء: باب: من حُمِل معه الماء لطهوره:١٥١.

(٣) ينظر: تاريخ الحديث ومناهج المحدثين: ١١٧.

ويحذف الباقي[1]. ومن أمثلة اقتصار البخاري على بعض المتن: ما ورد في باب ميراث السائبة، قال البخاري: حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ أَبِي قَيْسٍ عَنْ هُزَيْلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: "إِنَّ أَهْلَ الإِسْلامِ لا يُسَيِّبُونَ وَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُسَيِّبُونَ"[2]. فقد رواه البخاري هكذا، وهو مختصر من حديث موقوف، فذكر البخاري هذا الجزء؛ لأنه مرفوع حكمًا، وترك الجمل الباقية؛ لأنها ليست مرفوعة، والحديث بكامله هكذا: "جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود ﷺ فقال: إني أعتقت عبدًا لي سائبة، فمات وترك مالاً ولم يدع وارثًا، فقال عبد الله: إِنَّ أَهْلَ الإِسْلامِ لا يُسَيِّبُونَ وَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُسَيِّبُونَ، فَأَنْتَ وَلِيُّ نعْمتِه فَلكَ مِيْراثُه، فإِنْ تَأثَّمْتَ وتَحرَّجْتَ فِي شَيْءٍ فَنحْنُ نَقْبلُه مِنكَ، وَنَجْعلُه فِي بَيْتِ المَالْ"، فاقتصر البخاري على ما يعطي حكم الرفع من هذا الحديث الموقوف وهو قوله: "إِنَّ أَهْلَ الإِسْلامِ لا يُسَيِّبُونَ وَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُسَيِّبُونَ" وترك الباقي؛ لأنه ليس من موضوع كتابه[3].

مكانة الجامع الصحيح:

حظي (الجامع الصحيح) منذ تأليفه باحتفاء عظيم من علماء الأمة، حيث يُعدُّ أول الكتب المصنَّفة في صحيح الحديث على الراجح[4].

ومما يؤكِّد ذلك الاحتفاء تلك الشروحُ الكثيرة التي عُنيت به؛ شارحة لأحاديثه، ومفسرة لغريب ألفاظه، ومستنبطة منه الأحكام الفقهية، حتى إن شروحه والتعليقات عليه بلغت واحدًا وثلاثين ومائة كتاب[5].

وهذا ذكر لأشهر شروح (صحيح البخاري) مرتبة وفق تاريخها الزمني[6]:

---

(١) ينظر: هدي الساري: ١/٢٦، الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى: ٢١٠.

(٢) رواه البخاري: كتب الفرائض: ٦٧٥٣.

(٣) ينظر: هدي الساري: ١/٢٨.

(٤) ينظر: علوم الحديث لابن الصلاح: ١/١٣٢.

(٥) ينظر: الإمام البخاري إمام الحفَّاظ والمحدِّثين: ١٤١.

(٦) ينظر: مذكرة مصادر السنّة ومناهج مصنِّفيها لحاتم العوني مفرغة عن أشرطة: شريط٣/ص٦.

١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، للإمام الخطَّابي (ت: ٣٨٨هـ).

٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطّال (ت: ٤٤٩هـ).

٣) المخبر الفصيح في شرح الجامع الصحيح، لابن التِّين المالكي (ت: ٦١١هـ).

٤) البدر المنير الساري في الكلام على البخاري، للحلبي (ت: ٧٣٥هـ).

٥) التنويه في شرح الجامع الصحيح، لمغلطاي بن قليج (ت: ٧٦٢).

٦) الكواكب الدراري، لمحمد بن يوسف الكرماني (ت: ٧٨٦هـ).

٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ).

٨) التوضيح شرح الجامع الصحيح، لابن المُلقِّن (ت: ٨٠٤هـ).

٩) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ).

١٠) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني (ت: ٨٥٥هـ).

١١) إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، للقسطلاني(ت: ٩٢٣هـ).

ولقد لقي (الجامع الصحيح) من علماء الإسلام القبول الكبير، فقد فضَّلوه على ما سواه، فالنووي يقول: ((اتفق العلماء رحمهم الله على أن أصحَّ الكتب بعد الكتاب العزيز (الصحيحان) البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحُّهما، وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة، وقد صحَّ أن مسلمًا كان ممن يستفيد من البخاري ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث))[1].

ويشهد الذهبي لـ(الجامع الصحيح) بالأفضلية، فيصفه بأنه: ((أجلُّ كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى، وهو أعلى شيء في وقتنا إسنادًا للناس. ومن ثلاثين سنة يفرحون بعلو سماعه، فكيف اليوم؟ فلو رحل الشخص إلى سماعه من مسيرة ألف فرسخ لما ضاعت رحلته. وأنا أدري أنّ طائفة من الكبار يستقلُّون عقلي في هذا القول، ولكن :

ما يَعرفُ الشَّوقَ إلا مَنْ يُكابدُه ... ولا الصَّبابةَ إلا مَنْ يُعانِيهَا[2]

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١ /١٥.

(٢) البيت للشاعر العراقي محمد بن بختيار الأبله، ينظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤/٤٦٤.

ومن جهل شيئًا عاداه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

و تتوالى الشهادات لــ(الجامع الصحيح)، فهذا السبكي يؤكد أنه «أجلُّ كتب الإسلام وأصحُّها بعد كتاب الله، ولا عبرة بمن يرجِّح عليه (صحيح مسلم)؛ فإنّ مقالته هذه شاذَّة لا يُعوَّل عليها»[2].

وقال ابن خلدون: «ولقد سمعت كثيرًا من شيوخنا رحمهم الله يقولون: شرح كتاب البخاري دَيْنٌ على الأمة»[3].

والقسطلاني في مقدمة شرحه (إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري) يقول: «فإنّ علم السنَّة النبوية بعد الكتاب العزيز أعظم العلوم قدرًا، وأرقاها شرفًا وفخرًا؛ إذْ عليه مبنى قواعد أحكام الشريعة الإسلامية، وبه تظهر مجملات الآيات القرآنية ... وإنّ كتاب البخاري (الجامع) قد أظهر من كنوز مطالبها العالية إبريز البلاغة، وأبرز وحاز قصب السبق في ميدان البراعة، وأحرز وأتى من صحيح الحديث وفقهه بما لم يُسبق إليه، ولا عرَّج أحد عليه، فانفرد بكثرة فرائد فوائده، وزوائد عوائده، حتى جزم الراوون بعذوبة موارده؛ فلذا رجح على غيره من الكتب بعد كتاب الله، وتحركت بالثناء عليه الألسن والشفاه»[4].

ومما قيل فيه شعرًا:

صَحيحُ البخاريِّ لَوْ أنْصفُوهْ ... لَمَا خُطَّ إلا بِمَاء الذَّهبْ

هُوَ الفَرقُ بَين الهُدَى والعَمَى ... هُوَ السدُّ بَين الفَتى والعَطَبْ

أسانيدُ مثلُ نُجومِ السَّماءْ ... أمَامَ مُتونٍ كَمِثل الشُّهُبْ[5]

وقيل في وصفه أيضًا:

الجَامعُ المَانعُ الدِّينِ القَويمِ وسُنْــ ... ــنَةِ الشَّريعةِ أنْ تَغْتَالها البِدَعُ

---

(١) تاريخ الإسلام: ١٤٢/٦.

(٢) طبقات الشافعية: ٢١٥/٢.

(٣) تاريخ ابن خلدون: ٣٣٩/٢.

(٤) إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري: ٢/١.

(٥) جزء فيه ترجمة البخاري: ٣٨.

قَاصِيْ المَراتِبِ دَانِيْ الفَضْلِ تَحْسَبُه　　كالشَّمسِ يَبدُو سَنَاها حينَ تَرتفِعُ
ذَلَّت رِقَابُ جَماهيرِ الأنامِ لَه　　فَكلُّهمْ وهْو عالٍ فيهمُ خضعُوا[(١)]

شروط الصحيح:

لم ينقل عن البخاري ومسلم وسائر أصحاب الكتب الستة أنّ أحدًا منهم قال: اشترطت في كتابي الشرط الفلاني[(٢)]، وإنما عُرف ذلك من خلال سَبْر كتبهم، وتتبع أسانيدهم، وعلم أحوال رجالهم، فيعلم بعد ذلك شرط كل رجل منهم[(٣)]. هذا وقد ظهر للعلماء بعد تأمل أنّ البخاري قد اشترط فيما يخرجه من الأحاديث في كتابه (الصحيح) شرطين ميزاه عن غيره، هما:

١) أن يكون الراوي قد عاصر شيخه .
٢) أن يثبت سماع الراوي عن شيخه[(٤)].

(١) طبقات الشافعية: ٢/٢١٢.
(٢) سوى اشتراط اللُّقي عند البخاري، واكتفاء مسلم بالمعاصرة. ينظر: شروط الأئمة الستة: ١٢.
(٣) ينظر: شروط الأئمة الستة:١٢.
(٤) ينظر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير: ١/١٠٣.

التعريف بالإمام البخاري:

اسمه ونسبه ومولده:

هو أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه[1] الجعفي البخاري[2].

وكون البخاري جعفيًّا نسبة إلى يمان الجعفي والي بخارى، الذي كان سببًا في إسلام جد البخاري المغيرة، فنُسب إليه ولاءً[3] بناءً على قول من يرى أنّ من أسلم بسبب أحد كان ولاؤه له[4].

أما البخاري فنسبة إلى بلاد بخارى، التي تعدُّ من أعظم وأجلِّ بلدان ما وراء النهر، يفصلها عن سمرقند مسافة سبعة أيام[5]، وهي الآن إحدى أبرز مدن جمهورية أوزبكستان.

وقد ولد البخاري في بخارى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر شوال سنة أربع وتسعين ومائة للهجرة[6].

نشأ البخاري في كنف والدين صالحين، فوالده كان من المحدثين، ومن العلماء الورعين، وقد مات والد البخاري وهو صغير، فنشأ في حجر أمه يتيمًا، وكانت امرأة قانتة، اعتنت به أيما عناية، حيث أسلمته إلى معلِّم حتى أكمل عشر سنين.كما أنها كانت تحوطه بدعاء الله ﷻ. من ذلك أنّ البخاري فقد بصره في صغره، فرأت أمه في المنام

---

(١) وقيل: بذدزبه، وهي كلمة بخارية معناها: الزارع. ينظر: سير أعلام النبلاء: ٣٩١/١٢.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد: ٥/٢، تهذيب التهذيب: ٤١/٩، وفيات الأعيان: ١٨٨/٤، تهذيب الكمال: ٤٣٠/٢٤، طبقات علماء الحديث: ٢٤٣/٢، سير أعلام النبلاء: ٣٩١/١٢، تذكرة الحفاظ: ٢٥٥/٢، طبقات الشافعية: ٢١٢/٢، طبقات الحفاظ: ٢٧١، شذرات الذهب: ٢٥٢/٣.

(٣) فائدة: ينسب الإنسان إلى القبيلة ولاءً لأحد ثلاثة أسباب: إما للعتق، أو للحِلْف، أو للإسلام، وهذه فيها خلاف بين أهل العلم. ينظر: مذكرة مصادر السنة ومناهج مصنِّفيها: شريط١/ص٣.

(٤) ينظر: تهذيب الكمال: ٤٣٧/٢٤.

(٥) ينظر: معجم البلدان: ٣٥٣/١.

(٦) ينظر: تاريخ بغداد: ٦/٢.

إبراهيم ﷺ يقول لها: ((يا هذه، قد ردَّ الله على ابنك بصره بكثرة دعائك))، فأصبحت وقد ردَّ الله عليه بصره[1].

مسيرته العلمية:

حُبِّب العلم إلى الإمام البخاري وفقه فيه منذ صغره، وأعانه عليه فطنته وذكاؤه، حيث طلب العلم ببخارى وهو ابن عشر سنين، وقد سُئل البخاري: كيف كان بدء أمرك؟ فقال: ((أُلهِمتُ حفظَ الحديث في الكتّاب ولي عشر سنين أو أقل، ثم خرجت بعدُ من الكتّاب، فاختلفت إلى الداخلي وغيره ..))[2].

وقد نبغ البخاري في علم الحديث منذ وقت مبكر، يشهد لذلك ما روي عنه من أنه كان يجلس إلى شيخه الداخلي وهو ابن إحدى عشرة سنة، فسمعه يومًا فيما يقرأ للناس يقول: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقال له البخاري: إنّ أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهره شيخه، فقال له البخاري: ارجع إلى الأصل، فدخل ونظر فيه، ثم رجع، فقال: كيف هو يا غلام؟ فقال البخاري: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأصلحه الشيخ وقال: صدقت[3].

وأما رحلته في طلب الحديث فقد عقد البخاري العزم عليها في وقت مبكر من حياته، وكان العالم الإسلامي آنذاك قد اتسعت رقعته، وتباعدت أطرافه، فكان لزامًا على من رزق حب الحديث أن يجاهد في تحصيله.

ولقد طاف البخاري بلادًا متفرقة، ابتدأها بمكة المكرمة، حيث خرج مع أمه وأخيه إلى الحج، فلما قضوا نسكهم رجع أخوه وأمه، وتخلَّف في مكة لطلب الحديث[4].

بعد ذلك، رحل البخاري إلى أمصار مختلفة متباعدة، يتتبَّع فيها أئمة الحديث ليأخذ عنهم. ولقد كانت آراض بلخ، ونيسابور، والريِّ، وبغداد، والبصرة، والكوفة، والمدينة،

---

(١) ينظر: هدي الساري: ١٢٨٨/٢.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٣٩٣/١٢.

(٣) ينظر: تهذيب الكمال: ٤٣٩/٢٤.

(٤) تاريخ بغداد: ٥/٢.

والشام، ومصر[1] شاهدات على جهاد البخاري في طلب الحديث. وفي تلك الديار حطَّ البخاري رحاله ليجلس إلى شيوخ الحديث فيها ويكتب عنهم، وفي ذلك يقول الخطيب البغدادي: ((رحل البخاري في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان، والجبال، ومدن العراق كلها، وبالحجاز، والشام، ومصر))[2].

صفاته، وثناء العلماء عليه:

إنّ القارئ في كتب التراجم ليجد احتفاءً عظيمًا من قِبَل علماء السلف بالإمام البخاري، حيث تجد تلك المؤلفات حين حديثها عن البخاري تمتلئ بعبارات المدح وكلمات الثناء، التي تتناول سيرة البخاري من جوانب مختلفة، فتارة يكون الحديث عن عظيم علمه ودِقَّة فهمه، وتارة عن قوة ذاكرته وواسع حفظه، وأخرى عن صلاحه وورعه، وغير ذلك من جوانب سيرته المضيئة.

لقد حظي البخاري بتفضيل كثير من العلماء له على غيره وشهادتهم له بالأسبقية، فقد روي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: ((ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل))[3]. وقال أبو عيسى الترمذي: ((لم أر بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ، ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل))[4]. وابن خزيمة يقول: ((ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل))[5]. وقد شهد له ابن كثير بإمامة أهل الحديث في زمانه[6].

وقد وهب الله ﷻ البخاري متانة في الحفظ، وقوة في الذاكرة، حيث كان يحفظ الكتاب في الحديث من اطِّلاعة واحدة. بل وصل الأمر إلى أكثر من ذلك، فعندما قدم

(١) ينظر: طبقات الشافعية: ٢/٢١٣.

(٢) تاريخ بغداد: ٢/٥.

(٣) تاريخ الإسلام: ٦/١٥٢.

(٤) تاريخ بغداد: ٢/٢٦.

(٥) طبقات الشافعية: ٢/٢١٨.

(٦) ينظر: البداية والنهاية: ١١/٣١.

البخاري إلى بغداد قام بعض مشايخها باختبار قوة حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث، فقلّبوا متونها وأسانيدها، وأعطوها عشرة ليلقي كل واحد منهم عشرة أحاديث، فاجتمع الناس، وقام أولهم فعرض عشرته، والبخاري يقول في كلٍّ: لا أعرفه، حتى حكم الحاضرون على البخاري بالعجز، ولما فرغ العشرة كلهم التفت البخاري إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثاني كذا، فردَّ كل متن إلى إسناده، وفعل ذلك مع العشرة كلهم(١).

والبخاري في طلبه للحديث كان ذا همة متوقِّدة، وعزيمة متوثِّبة، يشهد لهذا رحلاته الكثيرة، وحرصه الشديد على تقييد العلم. من ذلك ما ذكره محمد بن أبي حاتم من أنّ السفر كان يجمعه بالبخاري في بيت واحد، فكان يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة، في كل ذلك يوقد السراج؛ ليعلّم على بعض الأحاديث ثم يضع رأسه(٢).

وأما في التقوى والعبادة فقد ضرب البخاري فيها بسهم وافر، فقد حكى ورَّاقُ البخاريِّ محمدُ بنُ أبي حاتم أنه صاحَبَه في سفر، فكان البخاري يقوم في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة(٣). ولا شك في أنّ هذا هو الزاد الحقيقي لمعلّم العلم وطالبه.

ومع كون البخاري من أئمة الحديث الذين يُعنون بالجرح والتعديل، لكنه كان متورِّعًا في الحديث عن الرجال حتى إنه قال: ((أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا))، قال الذهبي معلِّقًا: ((صدق رحمه الله، ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل علم ورعه في الكلام في الناس، وإنصافه فيمن يضعِّفه، فإنّ أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا، وقلّ أن يقول: فلان كذّاب، أو كان يضع الحديث، وهذا هو والله غاية الورع))(٤).

وهكذا تحتضن تراجم البخاري أمثال هذه الكلمات، التي تشهد للبخاري بالأفضلية، وتصفه بسعة العلم، وقوة الحفظ، ودقة الاستنباط، وبالتقوى والورع

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٠٨.

(٢) ينظر: طبقات الشافعية: ٢ / ٢٢٠.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٤١.

(٤) سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٣٩.

والصلاح، مما جعل يحيى بن جعفر البِيكَنْدي يقول: ((لو قدرت أن أزيد في عمر محمد بن إسماعيل من عمري شيئًا لفعلت؛ فإنّ موتي يكون موت رجل واحد، وموته ذهاب العلم))[1]، وهذا لعظيم فضل البخاري على الأمة.

هذه قطرة من بحر، وزهرة من بستان، وإلا فإنّ استيفاء ترجمة البخاري وثناء العلماء عليه، يحتاج إلى أوقات كثيرة، واستقراء مواد وفيرة، يقلّ دونها مجلد ضخم، إلا أنّ ما لا يدرك كله لا يترك جله.

ومما قيل فيه شعرًا :

عَلا عَنِ المَدحِ حَتى مَا يُزَانُ بِه ... كَأَنَّما المَدحُ مِنْ مِقْدارِه يَضَعُ[2]

شيوخه:

حين يذكر البخاري بأنه استخرج الجامع الصحيح من ستمائة ألف حديث، فإنّ ذلك يعني وفرة المحدثين الذين لقيهم، فسمع منهم، وأخذ عنهم، حتى روي عن البخاري قوله: ((كتبت عن ألف وثمانين نفسًا، ليس فيهم إلا صاحب حديث))، وقال أيضًا: ((لم أكتب إلا عمَّن قال: الإيمان قول وعمل))[3]. ويعني بذلك أنّ شيوخه كانوا على منهج أهل السنة والجماعة، الذين من أصول اعتقادهم أنّ الإيمان قول وعمل، خلافًا للمرجئة والجهمية والأشعرية[4].

وقد قسم ابن حجر شيوخ البخاري إلى خمس طبقات[5]:

الطبقة الأولى: من حدثه عن التابعين، ومن أمثلة هؤلاء: محمد بن عبدالله الأنصاري حدثه عن حميد، وخلاد بن يحيى حدثه عن عيسى بن طهمان، وغيرهم.

---

(١) تهذيب الكمال: ٢٤/٤٦٠.

(٢) طبقات الشافعية: ٢/٢١٢.

(٣) هدي الساري: ٢/١٢٩٠.

(٤) ينظر: تيسير لمعة الاعتقاد: ٢٥٣.

(٥) ينظر: هدي الساري : ٢/١٢٩٠.

الطبقة الثانية: من كانوا في عصر الطبقة الأولى غير أنهم لم يسمعوا من ثقات التابعين، كسعيد بن أبي مريم، وآدم بن أبي إياس، وأمثالهم.

الطبقة الثالثة: وهم من لم يلقوا التابعين، وأخذوا عن كبار تابعي التابعين، من مثل: إسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، وغيرهم.

الطبقة الرابعة: وهم رفقاؤه في الطلب، ومن سمع قبله قليلاً، كأبي حاتم الرازي، وأحمد بن النضر، ومحمد بن يحيى الذهلي، وغيرهم.

الطبقة الخامسة: قوم في عداد طلبته في السن والإسناد، سمع منهم للفائدة، كحسين بن محمد القباني، وعبد الله بن حماد الآملي، وقد روى عنهم أشياء يسيرة.

والبخاري بتنوع شيوخه على هذا النحو يتمثل ما كان يقوله: ((لا يكون المحدِّث كاملاً حتى يكتب عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وعمن هو دونه))[1].

وفاته، ومؤلفاته:

دعا خالد بن أحمد الذهلي أمير بخارى البخاريَّ أن يحضر منزله فيقرأ (الجامع) و(التاريخ) فامتنع البخاري، فراسله أن يعقد مجلسًا خاصًّا لأولاده، فامتنع عن ذلك وقال: لا يسعني أن أخص بالسماع قومًا دون قوم. فما كان من الذهلي إلا أن نفى البخاري إلى خرتنك، وهي قرية من قرى سمرقند، وكان له بها أقرباء، فنزل عندهم، فسُمع ليلة يدعو قائلاً: ((اللهم إني قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك))، فما تمَّ الشهر حتى قبضه الله ﷻ[2]. وكان ذلك ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين[3]، رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) هدي الساري: ١٢٩٠/٢.

(٢) ينظر: تهذيب الكمال: ٤٦٦/٢٤.

(٣) ينظر: وفيات الأعيان: ١٩٠/٤.

وقد ترك البخاري لنا غير (الجامع الصحيح) إرثًا عظيمًا يستحق العناية والاهتمام، حيث صنّف مصنَّفات كثيرة منها[1]:

١) التاريخ الكبير: حاول فيه استيعاب الرواة من الصحابة فمن بعدهم إلى طبقة شيوخه، حيث يذكر اسم المترجم له، وبعض من روى عنهم، وبعض من روى عنه، وقد يذكر حديثًا له، وقلَّما يذكر جرحًا وتعديلاً، ويبين الصحابي بالتنبيه عليه[2].

٢) التاريخ الصغير: كتاب مختصر من تاريخ النبي ﷺ، والمهاجرين والأنصار، وطبقات التابعين لهم بإحسان، ومن بعدهم، ووفاتهم، وبعض نسبهم وكناهم[3].

٣) كتاب الضعفاء الصغير[4]: ذكر فيه أسماء الرواة الضعفاء مرتبة على الحروف الهجائية، ويبين غالبًا أسباب الضعف مع ذكر شيوخ الراوي[5].

٤) كتاب الكنى: ذكر فيه البخاري كنى من غلبت كنيته على اسمه، ومن لم يعرف إلا بكنيته، وابتدأ بحسب ترتيب الحروف الهجائية بعد لفظ أب أو أم[6].

---

(١) للاستزادة: ينظر: هدي الساري: ١٣١٤/٢، الفهرست: ٣٨٠، الإمام البخاري محدثًا وفقيهًا: ٢٦٦وما بعدها، سيرة الإمام البخاري: ٢٨٥/١ وما بعدها. كشف الظنون: ٥٦٤/١، ١٤٢٠/٢.

(٢)ينظر: الإمام البخاري محدثًا وفقيهًا: ٢٦٩. وقد طبعته جمعية دائرة المعارف العثمانية بمطبعة حيدر آباد بالهند سنة١٣٦١هـ في أربعة مجلدات.

(٣) ينظر: الإمام البخاري محدثًا وفقيهًا: ٢٧٣. طبع في الهند الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥هـ، واعتنى بطبعه وتصحيحه محمد محيي الدين الزينبي.

(٤) ذكره ابن حجر في مقدمة (الفتح)، وابن النديم باسم (الضعفاء) دون الصغير.

(٥) ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٢٩١/١. والكتاب مطبوع بتصحيح: محمد حامد علي، ومحمد محيي الدين الزينبي في مجلد واحد مع كتاب التاريخ الصغير، كتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي. ينظر: الإمام البخاري محدثًا وفقيهًا: ٢٧٤.

(٦) ينظر: الإمام البخاري محدثًا وفقيهًا: ٢٧٤. وهو مطبوع في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، بتحقيق: عبدالرحمن المعلمي.

٥) الأدب المفرد: أورد فيه البخاري جملة من الأحاديث النبوية الداعية إلى مكارم الأخلاق وحسن المعاملة[١].

٦) خلق أفعال العباد: ردَّ فيه على الجهمية والمعطِّلة، وجمع فيه آثار الصحابة والتابعين مدعَّمة بالآيات والأحاديث[٢].

٧) كتاب الهبة: قال وراق البخاري: ((عمل كتابًا في الهبة، فيه نحو خمسمائة حديث، وقال: ليس في كتاب وكيع في الهبة إلا حديثان مسندان أو ثلاثة، وفي كتاب ابن المبارك خمسة أو نحوها))[٣].

٨) كتاب الوحدان: ذكر فيه البخاريُّ الصحابةَ الذين لم يُروَ عنهم إلا حديث واحد فقط[٤].

٩) كتاب المبسوط: بسط فيه المسائل الفقهية التي استنبطت من الأحاديث[٥].

١٠) كتاب العلل: لعل كتاب البخاري هذا هو الأول في هذا الفن الدقيق الشريف[٦].

١١) كتاب الفوائد: جمع فيه البخاري النكات الحديثية التي تتعلق بعلل الأحاديث[٧].

١٢) جزء رفع اليدين: كتاب جامع في رفع اليدين، أثبت فيه روايات رفع اليدين، وناقش وانتقد الروايات الدالة على عدم الرفع[٨].

---

(١) ينظر: الإمام البخاري محدثًا وفقيهًا: ٢٧٨. طبع في جزئين بتحقيق وتصحيح: الألباني؛ أحدهما: (صحيح الأدب المفرد)، والثاني: (ضعيف الأدب المفرد)، نشر دار الصديق بالجبيل سنة١٤١٤هـ-١٩٩٤م. ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٣٠٢/١، حاشية: ٢.

(٢) ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٢٩٠/١. طبع بتحقيق شمس الحق العظيم آبادي في دهلي سنة ١٣٠٦هـ.

(٣) ينظر: هدي الساري: ١٣٠٦/٢.

(٤) ينظر: هدي الساري: ١٣١٤/٢.

(٥) ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٢٩٩/١.

(٦) ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٣٠٠/١.

(٧) ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٣٠٢/١.

(٨) ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٣٠٣/١. وقد طبع باسم: جلاء العينين بتخريج روايات البخاري في جزء رفع اليدين، نشرته دار العلوم الأثرية، فيصل آباد، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٣) جزء القراءة خلف الإمام: رسالة مشهورة، أثبت فيها البخاري جواز القراءة خلف الإمام بأدلة من الأحاديث والآثار، وردَّ على أدلة المخالفين ردًّا حسنًا[1].

١٤) الرد على الجهمية: ذكره ابن ناصر الدمشقي منفردًا عن كتاب (خلق أفعال العباد) الذي ردَّ فيه البخاري على الجهمية[2].

١٥) قضايا الصحابة والتابعين: قال البخاري: ((فلما طعنت في ثماني عشرة جعلت أصنِّف قضايا الصحابة والتابعين، وأقاويلهم..))[3].

١٦) المسند الكبير.

١٧) التفسير الكبير.

١٨) أسامي الصحابة.

١٩) بر الوالدين.

٢٠) كتاب الأشربة.

٢١) الجامع الكبير.

٢٢) الجامع الصغير.

٢٣) كتاب الرقاق.

٢٤) كتاب السنن في الفقه[4].

---

(١) ينظر: سيرة الإمام البخاري: ٣١١/١.

(٢) ينظر: تحفة الإخباري بترجمة البخاري: ١٨٣.

(٣) ينظر: تاريخ بغداد: ٧/٢.

(٤) المؤلفات من رقم ١٦ وما بعدها لم أجد لها سوى الذكر دون إشارة إلى أي معلومات تخصها.

ثانيا : **موضوعات أحاديث كتاب التوحيد** :

بوّب البخاري كتاب التوحيد في ثمانية وخمسين بابًا، حوت بين طياها ثلاثة وتسعين ومائة حديث.

حملت هذه الأحاديث موضوعات مختلفة متنوعة، غير أنّ الملاحظ في هذه الأحاديث أها وإن اختلفت عنواناها، وتباينت موضوعاها إلا أها في الجملة تأتي في سياق إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى على الوجه الذي يليق به ﷻ.

وجاء إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى في كتاب التوحيد من خلال الحديث عن موضوعات متنوعة متباينة، أذكر منها ما يلي مرتبة بحسب كثرة ورودها:

١) الحديث عن فضل ذكر الله ﷻ ودعائه بأسمائه الحسنى، بالإضافة إلى الإشارة إلى بعض الأذكار والأدعية، كأذكار النوم، وصلاة الاستخارة، والتهجد، والجماع، وغيرها، وما تشتمل عليه من الاستعاذة بأسماء الله الحسنى. من ذلك قوله ﷺ: "إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ فِرَاشَهُ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ"[(١)]. وكذا قوله ﷺ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"[(٢)]. وقد وردت بعض هذه الأحاديث في سياق الكلام عن فضيلة الاستعاذة بأسماء الله الحسنى وآثارها النافعة. وترد أخرى لإثبات بعض أسماء الله الحسنى كما جاء في حديث الاستخارة[(٣)] لإثبات اسم الله القادر.

---

(١) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٣.

(٢)باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٦.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾: ٧٣٩٠.

٢) ذكر بعض أهوال يوم القيامة، كقبض الله للأرض وطيّه للسماوات، والمرور على الصراط، وشفاعة النبي ﷺ. من ذلك: قوله ﷺ: " يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟"(١).

٣) الترغيب في بعض الأعمال الصالحة بذكر فضائلها، والنهي عن بعض الأعمال والترهيب من فعلها. من ذلك قوله ﷺ: "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"(٢). وكقوله ﷺ: "إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ"(٣).

٤) الإخبار عن بعض الغيبيات، من ذلك قوله ﷺ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْعَصْرِ وَصَلاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ"(٤).

٥) ذكر فضل قراءة القرآن الكريم والإقبال عليه، وضرب الأمثال في ذلك. كقول المصطفى ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَمَثَلُ الَّذِي لا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا. وَمَثَلُ الْفَاجِرِ

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾: ٧٣٨٢.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾: ٧٤٢٣.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾: ٧٥٥٧.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾: ٧٤٢٩.

الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا"(١).

٦) ذكر بعض القصص والأخبار، من ذلك قوله ﷺ: "احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ الْجَنَّةِ؟ قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالاتِهِ وَكَلامِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى"(٢).

٧) الحديث عن بعض صور النعيم الكبير، والعطاء الكثير الذي يلقاه أهل الجنة، وكلام الرب ﷻ معهم، وهو من أعظمه، قال ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"(٣).

٨) تعليم بعض أمور الدين، من ذلك ما ورد في حديث التحيّات، فقد حدَّث البخاري عن عبد الله ﷺ أنه قال: كُنَّا نُصَلِّي خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَقُولُ: السَّلامُ عَلَى اللَّهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْنَا، وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"(٤).

٩) الإشارة إلى فضل هذه الأمة عن غيرها من الأمم، وبيان اختصاص الله ﷻ لها بفضله، إذ يجازيهم بالثواب الجزيل على العمل القليل. كما جاء في حديث عبدالله

---

(١) باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواقم وتلاوقم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦٠.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾: ٧٥١٥.

(٣) باب كلام الرب مع أهل الجنة: ٧٥١٨.

(٤)باب قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾: ٧٣٨٢.

ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُمْ الْقُرْآنَ، فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ: رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَقَلُّ عَمَلاً وَأَكْثَرُ أَجْرًا؟ قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لا، فَقَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ"(١).

١٠) الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، وتوجيه الدعاة إلى العناية بأمر التوحيد في دعوتهم، وجعله من أولوياتهم. كما جاء في حديث بعث معاذ إلى اليمن، الوارد في أوائل أحاديث هذا الكتاب، فقد حدَّث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: "إِنَّكَ تَقْدمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"(٢).

١١) الحديث عن بعض أشراط الساعة، من ذلك قوله ﷺ: "الْمَدِينَةُ يَأْتِيهَا الدَّجَّالُ، فَيَجِدُ الْمَلائِكَةَ يَحْرُسُونَهَا، فَلا يَقْرَبُهَا الدَّجَّالُ وَلا الطَّاعُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"(٣).

١٢) الحديث عن بعض مخلوقات الله ﷻ وكيفية خلقها، كخلق الروح والإنسان. قال ﷺ: "إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ، فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ،

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾: ٧٤٦٧.

(٢) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٢.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾: ٧٤٦٧.

وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا"[١].

١٣) توجيه المسلمين إلى كيفية التعامل مع أخبار أهل الكتاب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَؤونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لأَهْلِ الإِسْلامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ ﴾"[٢] {البقرة: ١٣٦}.

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾: ٧٤٥٤.

(٢) باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها: ٧٥٤٢.

الفصل الأول

المفردة

❖ المبحث الأول: المادة:

١) دقة اختيار الكلمة وملاءمتها للسياق.

٢) الجانب الصوتي.

❖ المبحث الثاني: الهيئة:

١) التنكير والتعريف.

٢) الإفراد والتثنية والجمع.

٣) الاسم والفعل.

- المبحث الأول: المادة:

١) دقَّة اختيار الكلمة وملاءمتها للسياق:

عُني العرب عناية فائقة بالألفاظ؛ حيث اهتموا باصطفاء الكلمات، وتخيُّر العبارات التي تسهم في الإفصاح عما يختلج في صدورهم، والإبانة عما يجول في أخلادهم.

وبالنظر إلى ما سُطِّر في تراثنا العربي حول هذه القضية يكشف طرفًا من عناية العرب الكبيرة بتخيُّر الألفاظ وانتقائها، ومراعاة ملاءمتها للسياقات الواردة فيها.

كان الجاحظ من أوائل العلماء الذين أسهموا في بناء هذا الدرس البلاغي، وذلك حين تحدث عن أهمية ملاءمة اللفظ لسياقه، ومناسبته لمعناه، فقال: "ومتى شاكل ـــ أبقاك الله ـــ ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وَفقًا، ولذلك القَدْر لِفقًا[(١)]، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمينًا بحسن الموقع، وبانتفاع المستمع، وأجدر أن يمنع جانبه من تناول الطاعنين، ويحمى عرضه من اعتراض العائبين، وألا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة"[(٢)].

ويمضي الجاحظ مؤكدًا أهمية الموازنة بين الألفاظ والمعاني، إذ إنّ العناية بأحدهما دون الآخر يُفقد الكلامَ البلاغة، وذلك حين أشار إلى أنّ "الكلام لا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[(٣)].

وفي السياق ذاته يشير ابن جنِّي إلى احتفاء العرب بالألفاظ، معلِّلاً سرَّ ذلك الاحتفاء، ومبيِّنًا سبب ذلك الاهتمام بقوله: "فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لَمَّا كانت عنوان معانيها، وطريقًا إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتَّبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب بها في الدلالة على

---

(١) لفقا: اللام والفاء والقاف أصل يدل على ملاءمة الأمر، هذا لفق هذا: أي يوائمه، ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٢٠٩/٥ (لفق).

(٢) البيان والتبيين: ٧/٢.

(٣) البيان والتبيين: ١٥/١.

القصد))[1]. ويؤكد هذا المعنى في موطن آخر، فيقول: ((اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزِمَّة، وعليها أدِلَّة، وإليها موصِّلة، وعلى المراد منها محصِّلة، عنيت العرب بها، فأولتها صدرًا صالحًا من تثقيفها))[2].

وامتدادًا للعلاقة التلازمية بين اللفظ والمعنى، يكشف ابن رشيق مدى الالتحام بينهما بقوله: ((اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم؛ يضعف بضعفه، ويقوى بقوته))[3].

إنَّ العناية بالألفاظ، من حيث فصاحتها، ودقة دلالتها على المعنى، ومجيئها في السياق الملائم لها، يسهم في بناء عمل أدبي جميل ومؤثر، فالألفاظ هي الوسيلة الجمالية في صياغة النتاج الأدبي، كما كانت الألوان وسيلة الرسم، والنغم وسيلة الموسيقى، والحجر وسيلة النَّحت[4].

وبعد هذا المدخل يتجه الحديث إلى كلام الرسول ﷺ، متأملا في ألفاظه باحثًا عن دقة اختيارها، ومجيئها في مقاماتها الملائمة لها.

ففي حديث بعث معاذ إلى اليمن كان مما قال الرسول ﷺ له: "إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"[5].

في هذا الحديث يرشد النبي ﷺ معاذًا إلى الأولويات التي ينبغي عليه أن يبدأ دعوة هؤلاء القوم بها ، مع الأخذ بسنَّة التدرُّج.

---

(١) الخصائص: ١/٢١٥.

(٢) الخصائص: ١/٣١٢.

(٣) العمدة: ١/٢٠٠.

(٤) ينظر: جماليات المفردة القرآنية لأحمد ياسوف : ٣٥.

(٥) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٢.

ويلفت الانتباه في هذا السياق الإرشادي ما ختم به توجيه أخذ الزكاة حيث قال: "وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاس"، وهي: ((نفائسها التي تتعلق بها نفس مالكها ويختصها لها؛ حيث هي جامعة للكمال الممكن في حقها))[1].

وفي اختيار النبي ﷺ لكلمة (كرائم) دقة متناهية؛ إذ إنّ ما تتعلق به نفوس التُّجَّار والمقتدرين تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان، بل ومن شخص إلى شخص؛ لذا نجد البيان النبوي آثر هذا اللفظ ليشمل نفائس الأموال التي يصعب حصرها، وتتعذّر الإحاطة بها.

ومن الدقة في اختيار الكلم النبوي مجيء استعمال أسماء الله ﷻ ملائمة للسياقات التي ترد فيها، فانظر مثلاً إلى قول الرسول الله ﷺ: "كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"[2].

هذا الحديث حث وترغيب على ذكر مخصوص، فيه فضائل جمَّة وعطايا كثيرة، حيث محبة الرحمن، ووفرة الحسنات، ويسر العمل وسهولته، فتخصيص ذكر اسم الرحمن مقصود هاهنا؛ إذ هو بيان لسعة رحمة الله ﷻ التي وسعت كل شيء، وجزيل عطائه الذي لا يحده شيء، فهو يجازي على العمل القليل الثواب الجزيل[3].

وفي حديث دعاء الكرب: "لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْعَلِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ"[4].

يلحظ تكرار اسم (الرب) وفي إيثار هذا الاسم دون غيره مغزى لطيف، ففي هذا الحديث القصير جاء اسم (الرب) مضافًا إلى عدد من مخلوقاته ومربوباته العظام.

والرب هو السيد والمصرف والمدبر، فإذا كان الله هو المصرف والمدبر للسماوات والأرض اللتين تعدان من أعظم المشاهدات، والعرش الذي هو أكبر المخلوقات التي

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر : ٧٩٩.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾: ٧٥٦٣.

(٣) ينظر : عمدة القاري: ٢٣ / ٤٠.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٦.

نعرفها؛ إذ هو السقف المحيط بالمخلوقات[1]، فالمكروب حين يتضرع إلى ربه بهذا الدعاء الذي يدل على عظمة الله وقدرته، وإحاطته بكل شيء فإنه يزداد يقينًا بقدرة الله على كشف ما غشيه من كروب وأظلّه من هموم، فهي أمور يسيرة جدًّا مقارنة بتصريف الله ﷻ وتدبيره لتلك المخلوقات العظيمة.

وفي اصطفاء اسم (الحليم) سر بديع فـ((كرب المؤمن غالبًا إنما هو على نوع تقصير في الطاعات، أو غفلة في الحالات، ليشعر برجاء العفو المقلل للحزن))[2].

والمتأمل في كلام النبي ﷺ وأدعيته يجد عناية فائقة في اختيار الألفاظ المناسبة، من ذلك دعاؤه يوم الأحزاب الذي قال فيه: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمْ الأَحْزَابَ، وَزَلْزِلْ بِهِم"[3].

حين التدبر في هذا الدعاء تجد أنّ النبي ﷺ دعا على الأحزاب بالهزيمة، دون القتل والهلاك. وفي هذا الاصطفاء لطيفة دقيقة إذ إنّ أصل الهزم: كسر الشيء وثني بعضه على بعض، والهزيمة في القتال: الكسر والفل[4]. وقد ذكرت الهزيمة في القرآن ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ {البقرة: ٢٥١}، قال ابن كثير: ((أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم))[5].

إذن فليس من معاني الهزم: القتل والإهلاك، بل غاية معناه: الرد والكسر والفل والغلبة والقهر، فلمَ آثر البيان النبوي هذا اللفظ المتدثر بهذه المعاني دون غيره مع أنه في معركة قد اتحدت عليه فيها أمم الكفر من كل حدب وصوب؟

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين: ٣١٧.

(٢) شرح الكرماني: ١٢٩/٢٢.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾: ٧٤٨٩.

(٤) ينظر : لسان العرب: ١٥ / ٩٠ مادة (هزم).

(٥) تفسير ابن كثير: ٦٧٣/١.

إنّ اختيار النبي ﷺ لهذا اللفظ يكشف عن مدى رحمته ورأفته بأمته، وصدق الله ومن أصدق من الله قيلاً: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ {التوبة: ١٢٨}.

دعا عليهم بالهزيمة دون القتل؛ لأن في ذلك سلامة لنفوسهم، حيث كان يرجو إسلامهم[1]، أو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا ، ويدل على هذا المعنى حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ؛ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[2].

وفي وعيد المصورين يقول ﷺ: "إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم"[3].

في ذلك اليوم المهول الذي يفر فيه كل إنسان من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه يُعذَّب أصحاب الصُّوَر جزاءً لما اقترفته أيديهم مخالِفة لأوامر الله ورسوله ﷺ، ونلحظ في هذا الحديث إيثار البيان النبوي استعمال لفظ (خلقتم) دون غيرها كصورتم مثلاً، فقرع هذا اللفظ لأسماعهم فيه مزيد عذاب وتنكيل وتوبيخ وتهكُّم بهم[4]، فهم لم يقوموا بالخلق في الدنيا، فكيف يستطيعونه في الآخرة؟ وفي ذلك يقول ابن بطال: ((سمَّى فعل الإنسان

---

(١) ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: ١٤٦.

(٢) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه: ٣٢٣١.

(٣)باب قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾: ٧٥٥٧.

(٤) ينظر: شرح الطيبي: ٩ / ٢٩٤٦.

خلقًا؛ توبيخًا له على تَشبُّهه بالله فيما صوَّر، فأحكم وأتقن على غير مثال احتذاه، ولا من شيء قديم ابتداه))[1].

ويختار البيان النبوي ألفاظًا تحوي ثراءً دلاليًّا يتطلبه المقام، انظر مثلاً إلى قول الرسول ﷺ: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"[2].

إنَّ في اجتباء كلمة (أحصاها) بلاغة عالية تتضح من خلال تلك المعاني الكثيرة التي تكتنزها هذه الكلمة. ولا شك في أن هذا الفضل العظيم يستثير العزائم ويستنهض الهمم ويحفز النفوس لمعرفة كنه الإحصاء الذي يحصل به الموعود.

وللإحصاء معان ودلالات بيَّنها العلماء في شروحاتهم، فقد ذكر أبو سليمان الخطابي أنّ الإحصاء يتضمن وجوهًا أحدها: العَدُّ لها حتى يستوفيها. وثانيها: الإطاقة، أي من أطاق العمل بحق هذه الأسماء. وأما ثالثها: فالإحاطة بمعانيها[3].

وقد ذكر ابن حجر أقوالاً كثيرة وزاد على الخطابي معنى، وهو: الحفظ[4]. وكذا أورد ابن الأثير أقوالاً كثيرة لا تخرج في مجملها عمَّا سبق[5].

وفي رأيي أن الإحصاء يحتمل جميع تلك الوجوه، فيتضمَّن حفظها، والإحاطة بمعانيها، والعمل بمقتضاها، وهذا هو ما رجَّحه الشيخ ابن عثيمين[6].

وهكذا تتكشف لنا بلاغة أفصح الفصحاء حين اصطفى لفظ الإحصاء دون غيره، حيث جمع بين جنباته جملة من المعاني والدلالات.

وفي قصة الرجل الذي أمر بنيه أن يحرقوه ويذروه في يوم عاصف، وذلك لشدة خوفه من الله ﷻ، نجد أن البيان النبوي آثر بعض الكلمات لتسهم بشكل فاعل في تصوير حال ذلك الخائف الوجل، فعن أبي سعيد عن النبي ﷺ: "أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ سَلَفَ أَوْ

---

(١) شرح ابن بطال: ١٠ / ٥٥٥.

(٢) باب إنّ لله مائة اسم إلا واحدًا: ٣٧٩٢.

(٣) ينظر: أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: ١٣٤٢/٢.

(٤) ينظر: فتح الباري: ١٤ / ٤٨٣.

(٥) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢١٣.

(٦) ينظر: القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى: ٢١.

فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالَ —كَلِمَةً: يَعْنِي– أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ أَوْ لَمْ يَبْتَئِزْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا إِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي أَوْ قَالَ: فاسْحَكُونِي، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ رِيحٍ عَاصِفٍ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي، فَفَعَلُوا ثُمَّ أَذْرَوْهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: كُنْ، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ قَائِمٌ، قَالَ اللَّهُ: أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ، قَالَ: فَمَا تَلافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ عِنْدَهَا"[1].

إنه فضل الله الواسع وعطاؤه الكبير ورحمته الواسعة. فعندما تنعم النظر وتمعن الفكر في ألفاظ هذا الخبر تجدها تتآزر لتصور حال الرجل اليائس من رحمة الله الخائف من عذابه، حيث ذكر أنه لم يبتئر عند الله خيرا أي: ((لم يقدم لنفسه خبيئة خير و لم يدخر))[2]، مع ما يدل عليه التنكير في (خيرًا) من التقليل.

ثم تأمل في اختيار (حتى) التي تفيد الغاية، فهو لا يريد حرقًا سريعًا ومسًّا بالنار فحسب، بل يريد أن يصير فحمًا، والفحم هو الجمر الطافئ[3]، أي: يريد أن تشتعل النار في جسده حتى تنطفئ، ولا تنتهي الحال إلى هنا بل يأمرهم بأن يسحقوه، فيدقوه أشد الدق[4]. وينهكوه حتى يبلغ به إلى حد البلى[5].

لقد بلغ الخوف بهذا الرجل غايته واليأس منتهاه، فلم يكتف بما سبق بل أمر بنيه بأن يذروه في يوم عاصف؛ لتطيره الريح وتسفه وتذهبه[6]، فيتفرق ذات اليمين وذات الشمال.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٥٩.

(٣) ينظر: القاموس المحيط: ١١٥٥. (الفحم)

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٩٤/٦ (سحق).

(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٣ / ١٣٩.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٥ /٣٩. (ذرا).

لقد جاءت ألفاظ هذا الحديث (يبتئر/حتى/فحمًا/فاسحقوني/اذروني) ملائمة لسياق الخوف والوجل واليأس الذي اعترى قلب الرجل، وأسهمت بشكل فائق في توصيف المشهد بدقة عالية.

ويستمر البيان النبوي في اختيار الألفاظ الملائمة للسياق ببراعة عالية ، فعندما سئل النبي ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ" قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ" قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ"[1].

في هذا الحديث ذكر لبعض عظائم الذنوب وكبائر المعاصي، ويلفت انتباهنا في هذا النص الشريف اصطفاء المصطفى ﷺ للفظ (حليلة) دون غيره من الألفاظ كزوج مثلاً، وحين نبحث في معنى الحليلة نجد ابن فارس يقول : ((سميت بذلك؛ لأنّ كل واحد منهما يحل عند صاحبه، وقيل: لأنّ كل واحد منهما يحل إزار الآخر))[2]، وفي الشروح نحو من هذا، فالمراد بالحليلة هي التي يحل له وطؤها، وقيل التي تحل معه في فراش واحد؛ حيث يحل كل منهما أزرة الآخر[3]، وذكر العيني أنّ استعمال صيغة المفاعلة (تزاني) جاء ليدل على أنّ الزنا كان برضاها[4]، فالنبي ﷺ يريد حشد كل ما ينفِّر عن اقتراف هذه الأفعال المشينة ويُقبِّحها. وما من شك في أنّ إيثار لفظ الحليلة أوقع في تقبيح الفعل، وأبلغ في التشنيع.

وفي سياقات الرهبة والخوف تأتي الألفاظ متضافرة لتصور المشهد أبدع تصوير، ففي حديث مرور الناس على الصراط يقول النبي ﷺ: "حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ،

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا ﴾: ٧٥٢٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة : ٢/ ٢٠.

(٣) ينظر: فتح الباري: ٦٠١/١٥.

(٤) ينظر: عمدة القاري: ١٢٤/١٨.

فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ النَّارِ قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ تَحْتَهُ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ[1] فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا...."[2].

إنّ قراءة مثل هذه النصوص تبعث في النفوس الرهبة من تلك الأهوال، وتزداد النفوس خوفًا ورهبًا عند التأمل في دلالات الألفاظ، وسرِّ اختيارها.

أنعم النظر في هذا اللفظ (امتحشوا) لم يقل: احترقوا، فالأمر ليس احتراقًا فحسب، بل أشد من ذلك، فهم قد احترقوا وصاروا فحمًا؛ فمن معاني المحش: احتراق الجلد وظهور العظم[3]. فمن شدة العذاب الذي أحاط بهم بدت عظامهم، واحترقت جلودهم.

ثم ارجع البصر في قوله ﷺ على لسان الرجل المقبل بوجهه على النار: (أي رب، اصرف وجهي عن النار فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها).

إنّ في هذا المقطع لمدّكرًا للقلوب القاسية الغافلة. كفى بهاتين الجملتين بيانًا لما يلقاه أهل النار، وما يصلونه في جحيمها.

تأمل في قوله: (قشبني) وكيف استطاع البيان النبوي بهذا اللفظ أن يتجاوز دلالة الإيذاء إلى تصوير مدى الأذى اللاحق بمن أقبل بوجهه على النار.

ذكر صاحب اللسان بأن القشب هو: ((خلط السم وإصلاحه حتى ينجع في البدن ويعمل))[4]. ويذهب الخطابي إلى أبعد من ذلك في بيان دقائق هذه اللفظة إذ يقول: ((قشبه

---

(١) الحِبّة: إذا كانت حبوب مختلفة من كل شيء..والحِبّة: جميع بزور النبات. ينظر: لسان العرب: ٣/ ١٠ مادة (حبب).

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٣) ينظر : لسان العرب: ١٣ /٣٥ (محش).

(٤) لسان العرب: ١١/١٣٩ (قشب) .

الدخان: إذا ملأ خياشيمه))[١]. يخلص مما سبق أنّ في هذه اللفظة ما ينبئ عن تمكن ريح النار من هذا الرجل تمكنًا جمع له الإيذاء والهلكة، وفي هذا إيحاء إلى أنَّ ما فوقه أشد وأنكى[٢].

وفي اختيار لفظ (ذكاؤها) نكتة بلاغية تتضح من خلال بيان معناها، فالذكاء: شدة وهج النار[٣]، وهو أيضًا يدل على حدة في الشيء ونفاذ[٤]. فالذكاء هو الغاية في وهج النار ولهبها.

والبيان النبوي باختياره هاتين اللفظتين يصور مدى شدة العذاب الذي يلقاه أهل النار في دركاتها، فإذا كانت النار تؤذي بريحها، وتحرق بوهجها ولهيبها من هو خارج النار، فكيف ستكون حال من أحاطت به النار أبد الآبدين؟ رحماك يا رب.

وفي قوله ﷺ: "مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إِلا اللَّهُ، لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلا اللَّهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا اللَّهُ"[٥].وهذا الحديث مشابه لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾ {لقمان: ٣٤}.

ففي الآية والحديث أمر متشابه وهو إسناد العلم إلى الله، والدراية إلى المخلوق، في قوله: (لا تدري نفس) وهما متشابهان في الدلالة، غير أنّ في الدراية معنى الحيلة[٦]، فسر اجتباء إضافة الدراية للمخلوق، أنه لضعفه وعجزه لا يستطيع التعرف على ما هو لاحق

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري: ٥٣٣/١.

(٢) ينظر:القصة النبوية في الصحيحين: ٦٤.

(٣) ينظر: لسان العرب: ٥١/٥ (ذكا).

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٣٥٧/٢ (ذكا).

(٥) باب قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾: ٧٣٧٩.

(٦) ينظر: القاموس المحيط: ١٢٨٩ (درى).

به ومختص به وإن بذل وسعه وأعمل حيله، فإذا كان يجهل أشد الأشياء التصاقًا به، كسبه وعاقبته، ويستحيل معرفته بهما، فهو لغيرهما أجهل(١). ولا شك في أنّ هذا المعنى منتف عن العليم الخبير ﷻ.

وفي حديث آخر يخبر النبي ﷺ أمته بقوله: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ أَوْ مِنْ الْجَنَّةِ" قَالُوا: أَلا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: "اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ"(٢).

يستفتح الحبيب ﷺ حديثه سالكًا أسلوب الترغيب والترهيب، وهذا فيه من شد الانتباه واستنهاض الفهوم ما فيه، حيث ذكر أنه ما من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة أو من النار، وكأنه يقول: ليذهب كل منكم إلى حيث يريد، الجنة أو النار.

وتتجلى بلاغة الرسول ﷺ من خلال اختياره لفظ (مقعده) وتفضيله على غيره كالجلوس مثلا.

عند البحث في دلالة الكلمتين يظهر فرق بينهما، مما جعل البيان النبوي يختار القعود، فقد ذكر ابن فارس ما يفيد الفرق بينهما قائلاً: ((القاف والعين والدال أصل مطرد منقاس لا يخلف، وهو يضاهي الجلوس، وإن كان يُتكلم في مواضع لا يُتكلم فيها بالجلوس))(٣).

والقعود له دلالة تزيد المعنى في هذا الحديث قوة وجزالة، فالقعود يدل على دوام المكث وطول اللبث؛ لذلك قيل: قواعد البيت، والقواعد من النساء قواعد ولا يقال لهن: جوالس؛ لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل، وجاء استخدام القرآن لفظ القعود والجلوس في مواضع كثيرة مؤكدًا هذا المعنى، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ {النساء: ٩٥}، والمراد القعود الذي لا يكون بعده اتباع، وفي المقابل نجد القرآن يستعمل الجلوس في المواضع التي لا يجب ملازمتها وليست مقاعد فلا يفارقونها، وانظر مثلاً إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

---

(١) ينظر: تفسير الكشاف: ٨٤١، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٧٨/٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾: ٧٥٥٢.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ١٠٨/٥ (قعد).

إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ {المجادلة: ١١}، فذكر المجلس إشارة إلى أنّ ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته وليس بمقعد حتى لا يفارقونه[١].

ويمضي البيان النبوي في اختيار ألفاظه بعناية فائقة وبلاغة عالية، ففي قول الرسول ﷺ: "لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ"[٢].

في مطلع الحديث تلفت الانتباه جملة (لا حسد إلا في اثنتين) إذ كيف يكون الحسد الذي هو تمني زوال نعمة الغير أمرًا مشروعًا، مع أنّ النبي ﷺ نهى عنه في أحاديث أخر، إذن ما سر اختيار لفظ الحسد هاهنا؟

قيل: بأنّ المراد بالحسد هنا الغبطة، وهي: أن تتمنى أن يكون لك مثل نعمة الغير من غير أن تزول عنه، فيصبح معنى العبارة: لا غبطة إلا في هاتين الخلّتين، فجعل الغبطة محصورة فيهما مع أنها تكون في غيرهما، وفي ذلك ما فيه من بيان علوِّ درجتهما، وعظيم شرفهما، ورفعة منزلتهما[٣].

بيد أنّ إجراء إطلاق الحسد على المبالغة في الحث على تحصيل هاتين الفضيلتين أجود، إذ كأنه قيل: ((لو لم يحصلا إلا بالطريق المذموم لكان ما فيهما من الفضل حاملاً على الإقدام على تحصيلهما به، فكيف والطريق المحمود يمكن تحصيلهما به؟))[٤].

وفي الحديث ذاته تظهر براعة الرسول ﷺ في انتقاء الألفاظ ووضعها في سياقاتها الملائمة لها، فالرسول ﷺ في هذا الحديث آثر لفظ الإيتاء على لفظ الإعطاء، حيث قال: "آتاه الله القرآن .... آتاه الله مالاً ..." والسر في ذلك هو أنّ الإيتاء مختص بالأشياء العظيمة قال تعالى: ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ {البقرة: ٢٥١}، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٧١/٢٩.

(٢) باب قول النبي ﷺ:"ورجل آتاه القرآن فهو يقوم به، ورجل يقول: لو أوتيت مثل أوتي هذا فعلت كما يفعل: ٧٥٢٩.

(٣) ينظر: الأدب النبوي: ١٩٧.

(٤) فتح الباري: ٢٦٥/١١.

سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ {الحجر: ٨٧}، أما الإعطاء فيأتي في القليل والكثير قال تعالى: ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ {النجم: ٣٤}، وكذا الحال في هذا النص، فلما جاء الحديث عن القرآن استعمل لفظ الإيتاء.كما أنّ الإيتاء يحتمل أن يكون واجبًا أو تفضلاً، أما الإعطاء فبالتفضل أشبه، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ {الكوثر: ١}؛ لذلك استعمل في الحديث لفظ الإيتاء للإنفاق؛ لأنّ ذلك إما أن يكون زكاة واجبة على الإنسان أو يكون صدقة وإحسانا. وكذا جاء النص القرآني؛ حيث خص دفع الصدقة في القرآن بالإيتاء نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ {البقرة: ٢٧٧}[(١)].

لذلك آثر الرسول ﷺ في حديث الرجل الذي لم يعمل خيرًا قط لفظ الإعطاء على الإيتاء، فعن أبي سعيد عن النبي ﷺ: " أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلا فِيمَنْ سَلَفَ أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَالَ –كَلِمَةً: يَعْنِي– أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالا وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَب كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ أَوْ لَمْ يَبْتَئِزْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا، وَإِنْ يَقْدِرِ اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ...."[(٢)].

لاحظ استعمال النبي ﷺ لفظ الإعطاء دون الإيتاء؛ وذلك لأنّ الحديث في سياق التفضل والإكرام لا في سياق الوجوب والإلزام .

ومما يؤكد أنّ الحديث وارد في سياق التفضل والإنعام ما جاء في رواية أخرى لهذا الحديث[(٣)]، حيث حلّت كلمة (رغسه الله) بدلاً من (أعطاه الله)، والرغس هو ((السعة في النعمة والبركة والنماء))[(٤)].

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٦١.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠٨.

(٣) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء: باب حديث الغار: ٣٤٧٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٦٥.

وهكذا جاءت الألفاظ بمثابة المفاتيح التي تُفتح بها أقفال النص النبوي، فالنص يحوي كنوزًا نفيسة، ولن تتمكن من الظفر بها ما لم تمتلك مفاتيح أقفالها، فـ((الكلمة في النص هي التي تهدينا إلى كل آفاقه، ومنها نبدأ، فإذا لم نحسن درسها وفهمها عجزنا عن دخول عوالمه، وكان عملنا ضلالاً وضياعًا، وهذه حقيقة لا ينكرها منصف))(1).

٢)الجانب الصوتي :

الصوت هو ((الجرْس))(2)، وهو كما يقول الجاحظ: ((آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف. ولن تكون حركات اللسان لفظًا، ولا كلامًا موزونًا، ولا منثورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف))(3).

إذن، فالصوت يحتل مكانة سامقة في بناء الكلمة، ومن هنا كان العرب يولون الجانب الصوتي للكلمة اهتمامًا كبيرًا؛ إدراكًا منهم لقدرته على استلاب الألباب، واجتذاب الأسماع، وإسهامه في تجسيد الصورة في غاية الوضوح والجمال.

وبالنظر إلى ما حفل به التراث اللغوي والبلاغي من آراء ساعدت في تشكيل هذا الدرس يظهر شيء من عناية العرب العظيمة بهذا البحث، ولعل الوقوف مع ما بثَّه ابن جني من آراء متفرقة في كتابه (الخصائص) يبرز هذا الاهتمام. فقد أشار إلى مسألة العلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها، فقال: ((فإنّ كثيرًا من هذه اللغة وجدته مضاهيًا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبَّر بها عنها))(4). وفي موطن آخر يشير ابن جني إلى خطورة هذا الدرس، فيقول: ((فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج مُتْلئِب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية: ١٧.
(٢) لسان العرب: ٤٣٥/٧. (صوت).
(٣) البيان والتبيين: ٧٩/١.
(٤) الخصائص: ٦٥/١.

سمت الأحداث المعبَّر عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدِّره، وأضعاف ما نستشعره))[1].

إنَّ الجانب الصوتي يقوم بوظيفة مهمّة في بناء الكلمة؛ لذا لا يسوغ التقليل من أهمية الجرس في بناء الكلمة فجرس اللفظ له حسابه في الدلالة، وكان جزءًا في الاصطلاح الذي أنشأ المعنى اللغوي للفظة. ويؤكد هذا ما ذكره ابن جني من أنّ ((النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح، قال الله سبحانه: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ {الرحمن: ٦٦}، فجعلوا الحاء ــ لرقَّتها ــ للماء الضعيف، والخاء ــ لغلظها ــ لما هو أقوى منه))[2].

ويلحظ ابن الأثير الأثر القوي للصوت على المتلقي، وكون الصوت مقياسًا للتذوق، فعن طريقه يُقبل الكلام أو يردُّ، حيث يقول: ((الألفاظ داخلة في حيِّز الأصوات، فالذي يستلذُّه السمع منها، ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح؛ ألا ترى أنّ السمع يستلذُّ صوت البلبل من الطير، وصوت الشحرور[3]، ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفر عنه))[4].

وبعد هذا التطواف السريع يحسن الانتقال إلى كلام الرسول ﷺ في أحاديث كتاب التوحيد، لنرى كيف اصطفى البيان النبوي أصوات الكلام، وقابلها بمعانيها الملائمة لها، وكيف أسهمت أصوات الحروف وصفاتها في تصوير المعنى المراد بكل وضوح واقتدار. من ذلك قول الرسول ﷺ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[5].

(١) الخصائص: ١٥٧/٢.

(٢) الخصائص: ١٥٨/٢.

(٣) الشحرور: طائر أسود فويق العصفور يصوِّت أصواتًا . ينظر : لسان العرب : ٤٥/٧. (شحر).

(٤) المثل السائر: ٩١/١.

(٥)باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٣.

هذا حض من المصطفى ﷺ إلى طلب معالي الأمور، فهو يوجهنا حال دعائنا الله ﷻ أن نسأله الفردوس الأعلى. والذي يعنينا هنا قوله: (تَفجَّر) فأصوات هذه الكلمة جاءت معبرة عن صورها بشكل فائق.

وقبل التأمل في دلالة مخارج هذه الكلمة وصفاها وتوافقهما مع المعنى تحسن الإشارة إلى معنى الكلمة معجميًّا، فقد ذكر ابن فارس أنّ ((الفاء والجيم والراء أصل واحد يدل على التفتح في الشيء))(١).

اختيار الفعل (تَفجَّر) هنا جاء مصورًا لتلك الأنهار وهي تتدفق تحت الجنَّات بكثرة و غزارة، إنه يبرز صورة المياه وهي تنبعث بوفرة وقوة، وكأنها على مرأى منَّا.

أسهمت أصوات الكلمة في إبراز المعنى بصورة معبِّرة، وعند التأمل في صفات هذه الحروف تجد أنّ الفاء مهموسة رخوة منفتحة مستفلة(٢)، وأما الجيم فمجهورة شديدة منفتحة منسفلة مقلقلة(٣)، وأما الراء فمجهورة بين الشدة والرخاوة منفتحة منسفلة متكررة(٤).

جاءت صفات الجهر والشدة لتصور التفتّح الكبير، والتدفق الكثير لتلك الأنهار، ويأتي تضعيف الجيم ليزيد صورة ذلك التدفق غزارة ووفرة.

وفي الوقت نفسه تأتي صفة الرخاوة لتمد الصورة بمعنى جديد وهو أنّ ذلك الانفجار للأنهار والتدفق الكثير ليس إلا محض نعيم، فلا يمكن أن يتأذى من كثرتها أو قوة اندفاعها أحد، فالدار دار نعيم فحسب.

كما تفيد صفات القلقلة والتكرار، تكرار تدفق هذه الأنهار بشكل مستمر، وهذا ما يفيده إتيان الفعل على هيئة المضارع.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ٤/٤٧٥ (فجر).

(٢) ينظر: التمهيد في علم التجويد: ١٣٧.

(٣) ينظر: التمهيد: ١١٥.

(٤) ينظر: التمهيد: ١٢٤.

وتشد القارئ لفظة (سحَّاء) في قول الرسول ﷺ: "يَدُ اللَّهِ مَلأَى لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ..."[1].

فيد الله ﷻ لا تنقصها النفقات، كثرت أو قلّت كبرت أو صغرت، فهي دائمة السح ليلاً ونهارًا.

وفي هذا اللفظ (سحَّاء) تتطابق أصوات الكلمة وصفاتها مع المعنى. فالسحُّ في اللغة: الصب والسيلان من فوق[2]. وحين الوقوف عند مخارج أصوات هذه الكلمة وصفاتها، نجد أنّ السين تخرج من طرف اللسان وفويق الثنايا العليا، وهي مهموسة رخوة منفتحة منسفلة صفيرية[3]، أما الحاء فتخرج من وسط الحلق، وهي مهموسة رخوة منسفلة منفتحة[4]، وأما الهمزة فتخرج من أقصى الحلق، وهي مجهورة شديدة منفتحة منسفلة[5].

إنّ خروج السين أول حروف الكلمة من طرف اللسان، والحاء وسط الكلمة من وسط اللسان، والهمزة من أقصى الحلق، يعني امتلاء الفم عند النطق بهذه الكلمة، مما يشي بالعطاء الواسع المتتابع الذي يغمر الإنسان من قبل ربه ﷻ، حيث بلغ حد الامتلاء.

وقد جاء حرف المد ليمدَّ الكلمة مزيدًا من الدلالة، حيث يوحي إلى امتداد ذلك العطاء وعظمه.

كما أنّ التضعيف في الحاء يدل على تتابع ذلك العطاء واستمراره وتكراره، فهو يتعاقب على الإنسان مرة بعد مرة، وتارة بعد أخرى.

وتضيف صفات الهمس والرخاوة الغالبة في أصوات الكلمة معنى جديدًا، هو أنّ تلك العطايا والهبات تحفُّها حكمة الله ﷻ، فهو قد يكثر النفقة هنا، ويقلِّلُها هناك وفق ما تقتضيه حكمته ﷻ.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: ٧٤١١.

(٢) ينظر: القاموس المحيط: ٢٤٨ (السح).

(٣) ينظر: التمهيد: ١٢٦.

(٤) ينظر: التمهيد: ١١٧.

(٥) ينظر: التمهيد: ١٠٧.

وفي سياق التحذير لأقوام اعتدوا على أموال المسلمين حيلة، حالفين بالله ﷻ زورًا وبهتانًا يقول ﷺ: "مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"[1].

يصطفي البيان النبوي لفظ (اقتطع) الذي جاء على وزن (افتعل)، وصيغة الافتعال تأتي لمعان منها[2]:

١) الاتِّخاذ : فهو اتَّخذ هذا المال الذي اقتطعه ملكًا له بطريق غير مشروع.

٢) الاجتهاد والطلب: وهذا يفيد أنه حصل على المال بعد جد واجتهاد، حيث أعمل حيله التي من أظهرها اليمين الكاذبة التي وردت في الحديث.

٣) المبالغة: تفيد هذه الدلالة أن ذلك الرجل قد بالغ في اقتطاع أموال المسلمين دون التفات إلى عقاب الله ﷻ الذي ينتظره، كما تفيد أيضا شدة انغماسه في هذا العمل الشنيع.

وحين تنظر في صفات حروف الكلمة تجدها تسير بك إلى حيث معناها، فالقاف حرف مجهور شديد مستعل مقلقل منفتح[3]، والطاء حرف مجهور شديد مطبق مستعل مقلقل[4]، والعين حرف مجهور بين الشدة والرخاوة منسفل[5].

فصفات الكلمة متفقة في غالبها على الجهر والشدة والاستعلاء والقلقلة، وهي كلها صفات قوية مما يوحي إلى شناعة هذا الفعل وشدة نكارته وعظم جرمه.

ومن الشواهد التي تراعي التوافق بين الدلالة الصوتية والمعنوية قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه: "إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[6].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٥.

(٢) ينظر: شذا العرف في فن الصرف: ٤٣.

(٣) ينظر: التمهيد: ١٣٨.

(٤) ينظر: الوطاءة: مذكرة في تسهيل التجويد: ٨٢.

(٥) ينظر: التمهيد: ١٣٥.

(٦) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾: ٧٥٣٦.

فضل الله ﷻ واسع وعطاؤه جزيل، فهو يكافئ عباده بالأجر الكثير على القليل من العمل.

جاء اصطفاء البيان النبوي للفظة (تقرَّب) في منتهى البلاغة وغاية البراعة، حيث تشارك مخارج حروف الكلمة في إبراز المعنى بصورة جمالية بديعة، لا شك في أنّ التقرُّب المذكور يحدث شيئًا فشيئًا، فالمرء في بادئ أمره بعيد من الله ﷻ حيث يخرج القاف من أقصى الحلق[1]، ثم يجاهد نفسه في التقرب إلى الله ﷻ حتى يصل إلى مابين طرف اللسان حيث تخرج الراء[2]، ولا يزال المؤمن يتقرب إلى الله ﷻ حتى يبلغ درجة المقربين حيث مخرج الباء من ما بين الشفتين مع تلاصقهما[3].

مخارج حروف الكلمة تصور بشكل بديع صورة التقرب إلى الله ﷻ شيئًا فشيئًا، فالمرء بلا تقرب معدود من جنس المعرضين الغافلين، فإذا ما تقرب إلى ربه فإنه يصبح في عداد المقربين.

وحين تطالع صفات هذه الحروف تجدها تتفق في الشدة والجهر، وهما صفتان قويتان تشيران إلى أنّ التقرب إلى الله يحتاج إلى صبر ومصابرة؛ فالسائر إلى الله تعترضه معوقات تحول بينه وبين الازدلاف إلى الله ﷻ، ومما يؤكد هذا مجيء الفعل على وزن (تفعّل) فمن معانيه التكلف، وهو الدلالة على الرغبة في حصول الفعل، والاجتهاد في سبيل ذلك[4].

يضاف إلى ما سبق صفة التكرار في الراء التي جاءت مضعفة، حيث تمدنا بمعنى إضافي، وهو أنّ ذلك التقرب لا يكون مرة فحسب، بل مرَّات وكرَّات، فالراء لوحدها تفيد التكرار، فكيف إذا جاءت مضعفة، وهذا من دلالات صيغة (تفعّل) إذ تجيء لمعنى الفعل المتكرر على مهلة[5].

---

(١) ينظر: التمهيد: ١٣٨.

(٢) ينظر: التمهيد: ١٢٤.

(٣) ينظر: التمهيد: ١١٠.

(٤) ينظر: التطبيق الصرفي: ٣٩.

(٥) ينظر: المغني في تصريف الأفعال: ١٤٢.

وفي حديث آخر يخبر الرسول ﷺ أمته بوصف من أوصاف المسيح الدجال إذ يقول: " إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ــ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ ــ وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ"[1].

جاءت الدلالة الصوتية للفظ (طافية) ، متسقة مع دلالته المعنوية، وقبل الولوج في أصوات الكلمة وصفاقما نشير إلى معناها المعجمي، فـ((الطاء والفاء والحرف المعتل أصل صحيح، وهو يدل على الشيء الخفيف يعلو الشيء))[2] و طفا الشيء فوق الماء يطفو طفْوًا وطُفُوًّا: ظهر وعلا و لم يرسب[3].

وذكر بعض الشُّرَّاح أن (طافية) هنا بمعنى ناتئة كنتوء حبة العنب من بين صواحبها[4].

جاءت مخارج حروف هذه الكلمة متطابقة مع معناها، حيث تفيد المخارج معنى النتوء والظهور والبروز، وهو ما ينطوي عليه معنى الطفو، فالطاء تخرج من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا[5]، والفاء تخرج من أطراف الثنايا العليا وباطن الشفة السفلى[6]، والواو تخرج من بين الشفتين[7].

وأما صفات الحروف فتدور بين الجهر والشدة وبين الهمس والرخاوة، فالجهر والشدة ناسبا عين المسيح التي تبدو ناتئة بارزة ظاهرة للعيان، وفيها جهر ووضوح للعور، أما الهمس والرخاوة فناسبا كون العين شاخصة قد ذهب نور بصرها[8].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: ٧٤٠٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة : ٤١٥/٣ (طفو).

(٣) ينظر: لسان العرب: ١٧٧/٨. (طفا).

(٤) ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٥٢١/١.

(٥) ينظر: الوطاءة: ٨٢.

(٦) ينظر: التمهيد: ١٣٧.

(٧) ينظر: التمهيد: ١٤٧.

(٨) ينظر: البلاغة النبوية في أحاديث كتابي الفتن والاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح الإمام البخاري: ٥٠.

وفي حديث المرور على الصراط تشارك المفردة بأصواتها في نقل تيك المشاهد ببراعة عالية، ندرك من خلالها الأثر الفائق للإسهام الذي تقوم به المفردة.

يقول الرسول ﷺ: "وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ السَّعْدَانَ؟"، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ..."[(١)].

الحديث عن أهوال يوم القيامة يرقق القلوب، و يبعث الرهبة في النفوس، فحين يتذكر الإنسان هذا الصراط ومروره عليه، ويتخيل تساقط الناس وتهاويهم بين يده في دركات جهنم يدفعه ذلك بشكل كبير لمراجعة نفسه ومحاسبتها.

وزاد اختيار البيان النبوي لكلمة (كلاليب) الأمر هولاً، ويظهر ذلك من خلال الدلالة المعجمية، حيث جاء عند ابن فارس أنّ ((الكاف واللام والباء أصل واحد صحيح يدل على تعلق الشيء بالشيء في شدة، وشدة جذب))[(٢)]، فالشدة هاهنا ثنتان:

الأولى: شدة تعلق الكلاليب بأجساد المعذبين، وتمكنها منها، والثانية: شدة جذب تلك الأجساد إلى جهنم.

وعند التأمل في مخارج حروف الكلمة تجد أنّ الكاف تخرج من أقصى اللسان[(٣)]، واللام من حافة اللسان إلى منتهى طرفه[(٤)]، والباء من بين الشفتين مع تلاصقهما[(٥)].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٥/١٣٣ (كلب).

(٣) ينظر: الوطاءة: ٧٥.

(٤) ينظر: التمهيد: ١٤١.

(٥) ينظر: التمهيد: ١١٠.

إن امتلاء اللسان من أقصاه إلى منتهى طرفه بالنطق بهذه الكلمة يشي بتمكن هذه الكلاليب ونفاذها في أجساد المعذبين، كما أنّ التصاق الشفتين في الباء يوحي بشدة انقباض الكلاليب على الأجساد.

وعند النظر في صفات حروف الكلمة يُلحظ غلبة صفات الجهر والشدة، فالكاف مهموسة شديدة منفتحة منسفلة[1]. واللام مجهورة بين الشدة والرخاوة منفتحة منسفلة[2]. والباء حرف مجهور شديد منفتح منسفل مقلقل[3]، وهذا ما يلائم شدة تعلق الكلاليب بأجساد المعذبين وتمكنها منهم، بالإضافة إلى شدة الجذب إلى نار جهنم.

وفي انقضاض الكلاليب على المعذبين اصطفى الرسول ﷺ لفظ (تخطف) ليصور المشهد أبلغ تصوير، وبإنعام النظر في معنى الخطف نجد أنّ الدلالة الصوتية جاءت متسقة مع الدلالة المعجمية، فالخطف استلاب الشيء في خفة، وأخذه بسرعة[4].

وعند البحث في صفات أصوات الكلمة تجد أنّ الخاء حرف مهموس مستعل رخو منفتح[5]. والطاء حرف مجهور شديد مطبق مستعل مقلق[6]. والفاء مهموس رخو منفتح منفتح مستفل[7].

إذن، فصفات الحروف تدور بين الهمس والرخاوة و الجهر والشدة، فالهمس والرخاوة تلائمان معنى الأخذ والاستلاب بصورة سريعة وخفيفة، كما أن التقابل بين هذه الصفات ينقل لنا درجة الاختلاف والتباين بين المارين على الصراط، حيث يجيء الخطف متفاوتًا في القوة وشدة الجذب، مما يؤدي إلى الاختلاف في التأثير في أجساد المعذبين، وهذا ما يؤكده الحديث في روايته الأخرى حين أخبر عن أصناف المارين حال

---

(١) ينظر: التمهيد: ١٤٠.

(٢) ينظر: التمهيد: ١٤١.

(٣) ينظر: التمهيد: ١١٠.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٤/ ١٤٢. (خطف)، ومقاييس اللغة: ١٩٦/٢. (خطف).

(٥) ينظر: التمهيد: ١١٩.

(٦) ينظر: التمهيد: ١٣٣.

(٧) ينظر: التمهيد: ١٣٧.

مرورهم على الصراط، فطائفة كالطرف، وثانية كالبرق، وثالثة كالريح، ورابعة كأجاويد الخيل والركاب، ثم أشار إلى مصايرهم بقوله: "فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ..."[1].

وفي إيثار النبي ﷺ لفظ (ضئضئ) بلاغة وبراعة، حيث جاءت في سياق الحديث عن الرجل الذي اعترض على قسمته ﷺ، فلما ولّى قال: "إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَاد"[2].

الضئضئ في اللغة: الأصل، يخرج من ضئضئ هذا أي: من أصله ونسله[3]. وأما مخارج حروف الكلمة وصفاتها، فالضاد يخرج من إحدى حافتي اللسان مع الأضراس، وهو حرف مجهور رخو مستعل مستطيل مطبق[4]. وأما الهمزة فتخرج من أقصى الحلق وهي حرف مجهور شديد منفتح مستفل[5].

يُلحظ في صفات الكلمة غلبة الصفات القوية من الجهر، والشدة، والاستعلاء، والاستطالة، والإطباق، وهذا يتواءم مع حال أولئك الخوارج الذي سلكوا طريق الغلو في الدين، وسفكوا دماء أهل الإسلام جهارًا نهارًا.

وخروج الهمزة من أقصى الحلق يوافق انقطاع المقطع (ضئ) مما يوحي إلى عدم مجاوزة القرآن لحناجرهم، كما أن تضعيف المقطع يشي بتعاقب هؤلاء على الأزمان وتوالدهم واستمرارهم.

وفي يوم الأحزاب يدعو الرسول ﷺ، فيقول: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمْ الأَحْزَابَ، وَزَلْزِلْ بِهِم"[6].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: ٧٤٣٩.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: ٧٤٣٢.

(٣) ينظر: لسان العرب ٦/٨. الفائق في غريب الحديث: ٣١٧/٢.

(٤) ينظر: الوطاءة: ٨٢.

(٥) ينظر: الوطاءة: ٨٢.

(٦) باب قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: ٧٤٨٩.

يلفت الانتباه في ذا الحديث لفظ (زلزل)، وكيف توافقت أصوات الكلمة مع معناها. فالزلزلة في الأصل هي: الحركة العظيمة والإزعاج الشديد[١].

وعند العود إلى أصوات الكلمة تجد أنّ الزاي حرف مجهور مهموس منفتح منسفل صفيري[٢]، واللام مجهور بين الشدة والرخاوة منفتح منسفل[٣].

فالحرفان يتفقان في الجهر وهو ما يوافق معنى الزلزلة في الحركة العظيمة، وفي صفير الزاي ملائمة للإزعاج الشديد الذي يلحق بهم، وتكرار المقطع يفيد تكرار وقوع الزلزلة بهم.

وهكذا تبرز هذه الشواهد ما للجانب الصوتي من أهمية بالغة، وأثر واسع في الكلمة، وإسهام فاعل في تجسيد الصورة، فالأصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار[٤].

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٦ /٧٤ (زلل).

(٢) ينظر: التمهيد: ١٢٦.

(٣) ينظر: التمهيد: ١٤١.

(٤) ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٣٤٢.

- **المبحث الثاني: الهيئة:**

١) التنكير والتعريف:

يحتلُّ بحث التنكير والتعريف منزلة رفيعة في فلك الدرس النحوي والبلاغي، إذ إنه لما كان ((كثير من الأحكام تبنى على التعريف والتنكير، وكانا كثيري الدور في أبواب العربية، صدر النحاة كتب النحو بذكرهما بعد الإعراب والبناء))[١].

والشأن نفسه في علم البلاغة، غير أن ثمَّة اختلافًا في التناول والدراسة بين علمي النحو والبلاغة، فالدرس البلاغي يُعنى بالكشف عن الأغراض البلاغية،والإشارات البيانية التي ترشدنا إليها أساليب التنكير والتعريف.

أ. التنكير:

النكرة هي ما دلَّت على غير معين[٢].

وللتنكير في النص قيمة ونفاسة، لا سيما عند الوقوف على ما يمدنا به التنكير من أسرار بلاغية، وإشارات بيانية، فالتنكير يأتي لأغراض كثيرة متنوعة، كإرادة الواحد، أو النوع، أو التهويل، أو التكثير، أو التحقير...[٣].

إنّ للفظة المنكرة أثرًا بالغًا في الكشف عن مغزى النص، وبيان مقصده، ولاشك في أنّ ذلك يكون بمعونة السياق.

والمتأمل في التنكير في البيان النبوي يجد له أسرارًا ولطائف بلاغية متنوعة، فمن شواهد التنكير قوله ﷺ: "يا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟". قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.."[٤].

جاء التنكير في قوله: (شيئًا) مفيدًا التحقير والتعميم؛ فحق الله ﷻ على عباده أن لا يعبدوا من دونه شيئًا، وإن كان حقيرًا كحجارة أو نحوها.كما أنّ فيه إيماءً إلى حقارة

---

(١) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: ١/١٨٥.

(٢) ينظر: شرح الرضي على الكافية : ٣/٢٧٩.

(٣) ينظر: معاني النحو للسامرائي : ١/٣٩.

(٤) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٣.

تيك المعبودات حيث أغفل ذكرها؛ إذ هي حقيرة مخلوقة لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن صاحبها، ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾ {الأعراف: ١٩٧}. ولا تنتهي دلالة التنكير في هذه المفردة، حيث تفيد معنى آخر، وهو التقليل، فلا ينبغي أن تصرف عبادة ما إلى غير الله ﷻ، ولو كان المصروف شيئًا قليلاً، فالله أغنى الشركاء عن الشرك.

وعندما سئل النبي ﷺ عن أَيِّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: "أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ .."[١].

ففي قوله: (ندًّا) الذي جاء نكرة يظهر معنى العموم الملتحف بالتحقير والازدراء، فالأنداد جميعهم مهما كانوا أناسيَّ، أو جمادات، لا يستحقون الذكر، فهم أقل من أن يذكروا فضلاً من أن يعبدوا، فهم مجهولون حقيرون، فكيف تعبدهم وتصرف العبادة إليهم من دون الله ﷻ؟.

وفي سياق الحضِّ على الصدقة، يقول ﷺ: "مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ"[٢].

يؤثر البيان النبوي الإتيان بالنكرة في قوله: (تمرة)؛ وذلك لإفادة التقليل، وفي ذلك من الحث على التصدُّق والإنفاق في وجوه الخير ما فيه، ويؤكد هذا المعنى ما جاء في الحديث من أن الله ﷻ يربِّيها حتى تكون مثل الجبل، وتأمل المفارقة بين التمرة والجبل لتدرك جانبًا من فضل الله ﷻ وكرمه، ولتفيد من التنكير معنى آخر هو التعظيم، فهذه التمرة التي يحقرها كثير من الناس إذا ما أنفقت في سبيل الله ﷻ فإنها تكون شيئًا عظيمًا، فالتنكير بدلالتيه في هذا الحديث يحفز المؤمنين إلى المسارعة في الإنفاق في سبيل الله ﷻ.

---

(١) باب قول النبي ﷺ: "رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل: ٧٥٣٢.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ ﴾: ٧٤٣٠.

ومن شواهد إفادة التنكير التحقير قوله ﷺ: ".. يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ .."(١).

أفاد التنكير في قوله (شيئًا) التحقير من شأن تلك الآلهة التي عبدت من دون الله ﷻ والتقليل من شأنها، فهي لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، كما أنها من مخلوقات الله ﷻ، فكيف يساوى بين الخالق والمخلوق.

كما يفيد هذا التنكير معنى الاستهزاء والسخرية من أولئك الذين اتخذوا هذه الأشياء آلهة من دون الله ﷻ، فآلهتهم هذه التي أضاعوا دينهم ودنياهم باتخاذها من دون الله ﷻ، لا تملك من أمرها شيئًا في ذلك اليوم العصيب؛ حيث تُكوَّر الشمس، ويخسف القمر، وتوقد النار بتلك الأصنام ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ {الأنبياء: ٩٨}.وكأنه يقول: اذهبوا فاطلبوا من آلهتكم المدد والعون، واسألوها الشفاعة، وأنَّى لهم ذلك، وهذه حال آلهتهم؟

ويأتي التنكير لإفادة العموم، من ذلك قوله ﷺ: "يَدُ اللَّهِ مَلأَى لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَ النَّهَار .."(٢).

فالتنكير في قوله: (نفقة) أفاد عموم النفقات؛ فيد الله ﷻ ملأى لا تنقصها النفقات بأجمعها، مهما كان مقدارها ومكانها وزمانها، قلّت أو كثرت، صغرت أو عظمت، فسبحان من بيده ﴿ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ {المنافقون: ٧}.

وفي قصة الرجل الذي استأذن ربه في الزرع شاهد لإفادة التنكير العموم، حيث يخبرنا أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يومًا يحدث، وعنده رجل من أهل البادية "أَنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ لَهُ: أَوَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي

---

(١)باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾: ٧٤١١.

أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ"(١).

جاء لفظ (شيء) مكتسيًا دلالة العموم، فهذا الرجل يرى نباته قد أصبح أمثال الجبال في سرعة مدهشة، تنبئنا عنها الفاءات المتعاقبة، ومع ذلك يطمع في الزيادة، وفي هذا إشارة "إلى ما جبل الله عليه نفوس بني آدم من حب الاستكثار، والرغبة في متاع الدنيا؛ لأن الله قد أغنى أهل الجنة عن نصب الدنيا ومتاعها، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾"(٢). {فاطر: ٣٤}.

وفي قوله ﷺ: ".. ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخرَ فَاغفِرْهُ لِي. فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"(٣).

فمجيء (ذنبًا) منكَّرة أفاد معنى عموم الذنوب والخطايا؛ فالذنوب مهما تعددت صفاتها، وتباينت ألوانها، لكنّ الاستغفار الخالص، والتوبة الصادقة، تغسلان درن تلك الذنوب، وتزيلان دنسها. وفي هذا دعوة لأولئك المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي أن أقبلوا، فرحمة الله ﷻ وسعت كل شيء.

وفي بيان لفضل الله ﷻ الفيَّاض، وكرمه الدفَّاق، يقول ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ:"لكل عمل كفارة .."(٤).

هذا النص ينبض رحمة، ويفيض شفقة، فكل الأعمال من المعاصي على اختلاف أشكالها وألوانها لها كفارة تمحوها وتطمرها(٥)، وهذا ما أفاده التنكير في قوله: (عمل)، فلله الحمد من قبل ومن بعد. ويحتمل أن يكون التنكير لإفادة النوعية؛ أي لكل عمل نوع

(١) باب كلام الرب مع أهل الجنة: ٧٥١٩.

(٢) شرح ابن بطال: ٤٨٩/٦.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠٧.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾: ٧٥٣٨.

(٥) ينظر : عمدة القاري: ٢٨٣/٢٥.

خاص من الكفارات. وهذا ما قرره الشَّارع في بعض المعاصي، حيث إنه نصَّ على كفارة لها دون غيرها.

ومما يفيدنا التنكير به معنى التعظيم، كقول الرسول ﷺ: "يَا فُلانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا"[(١)].

يوجه المصطفى ﷺ أمته إلى أن يختموا يومهم بهذا الدعاء الذي يمتلأ افتقارًا وتضرُّعًا إلى الله ﷻ، سالكًا طريق الترغيب، حيث يختم الدعاء بذكر الأجر المترتب عليه، سواءً حال حياتك أو موتك، ففي حال الموت يموت الذاكر لهذا الدعاء على الفطرة، وأكرم بها من ميتة، فالفطرة هي الإسلام والتوحيد[(٢)]، قال الله ﷻ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ {الروم: ٣٠}. وفي حال الحياة فإن اللاَّهج بهذا الدعاء يصيب أجرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلاً، يفوق إدراك الناس أجمعين[(٣)]. وهذا من دلالات التنكير في قوله: (أجرًا).

ويسأل أبو بكر ؓ النبي ﷺ أن يعلِّمه دعاء يدعو به في صلاته، فيجيبه قائلا: "قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[(٤)].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾: ٧٤٨٨.

(٢) ينظر: فتح القدير: ٤٤٩/٢.

(٣) ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين : ٢٠٢.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾: ٧٣٨٧.

هذا الحديث فيه إقرار بالوحدانية، واستجلاب للمغفرة[1]، ويأتي التنكير في قوله: (مغفرة) مساهمًا في إضفاء مزيد من الجلالة والعظمة لهذه المغفرة، فهو غفران عظيم لا يكتنه كنهه، ولا يدرى منتهاه[2]؛ إذ جاء من لدن أرحم الراحمين.

وفي وصف الجسر الذي يجعل بين ظهري جهنم، يقول ﷺ: ".. ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ" قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: "مَدْحَضَةٌ، مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ.."[3].

جاء وصف الجسر بكلمات في غاية الوجازة، وفي منتهى الدِّقة، فهو مدحضة مزلة تزلق فيه الأقدام ولا تثبت[4]، عليه كلاليب و خطاطيف تختطف المعذبين في سرعة وخفة، إنها أوصاف تنخلع لها القلوب فرقًا، وانظر إلى براعة البيان النبوي في اختياره التنكير رداء لهذه الصفات؛ ليزداد الجسر بذلك فظاعة وهولا.

وفي ختام الحديث نفسه قال ﷺ: ".. فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ: الْجَبَّارُ بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ ..".

فالتنكير في قوله: (قبضة) يفيد التعظيم والتكثير، ولا عجب، فهي قبضة الكريم الجواد، وشفاعة الرحيم الرؤوف بالعباد.

وتلتقي أيضًا دلالتا التعظيم والتكثير في قوله ﷺ: "تكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لا يُخْرِجُهُ إِلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"[5].

هذا ترغيب في الجهاد في سبيل الله ﷻ، وقد جاء الجزاء إحدى الحسنيين: إما أن

---

(١) ينظر: فتح الباري : ٣/٦٦.

(٢) ينظر: شرح الكرماني: ٥/١٨٦.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٩.

(٤) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٠١.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾: ٧٤٥٧.

يدخله الله الجنة، وكفى به ثوابًا، أو يرجعه إلى مسكنه مع ما نال من أجر أو غنيمة. وتأمل تنكير (أجر) و (غنيمة) حيث أضاف إلى الثواب ثوابًا آخر، فالتنكير يفيد التعظيم والتكثير لهذا الأجر المترتب على هذا العمل الشاق.

وتجدر الإشارة هاهنا إلى التفريق بين التكثير والتعظيم، ((فالتكثير يكون في الكمية، وأما التعظيم فيكون في الكيف، وقد يجتمعان معًا كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ {فاطر: ٤}. فهم كثيرون من جهة، ورسل ذوو شأن، يستحقون الإجلال والتعظيم من جهة أخرى.))[١].

ومن شواهد التنكير قوله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً"[٢].

يتحدَّى الله ﷻ أولئك الذين يزعمون مضاهاة خلقه ﷻ في الدنيا، فيأمرهم بأمر فيه تعجيز، وهو أن يخلقوا ذرَّة أو حبَّة أو شعيرة، وأنَّى لهم ذلك؟ وقد كان مجيء التنكير في قوله: (ذرَّة/حبة/شعيرة) لإفادة النوع، قال ابن حجر: ((والمراد بالذرَّة إن كان من النملة، فهو من تعذيبهم وتعجيزهم بخلق الحيوان تارة، وبخلق الجماد أخرى، وإن كان بمعنى الهباء، فهو بخلق ما ليس له جرم محسوس تارة، وبما له جرم أخرى))[٣].

وقد يرد في الحديث الواحد عدد من النكرات، ففي بيان صبر الله ﷻ يقول ﷺ: "مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"[٤].

اختار البيان النبوي في هذا الحديث هيئة التنكير في لفظتين؛ ليدلَّ على جانب من عظمة الله ﷻ، فقد جاءت الأولى: (أحد) في سياق النفي؛ لتفيد العموم والاستغراق[٥]،فصبر الله ﷻ لا يضاهيه صبر، ولاحظ استعمال اسم التفضيل.

---

(١) البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني): ٣٤٣.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾: ٧٥٥٩.

(٣) فتح الباري: ٦٢١/١٧.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾: ٧٣٧٨.

(٥) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٢٧٩/٣.

وفي النص ذاته يلاقينا تنكير (أذى)[1] ليفيد التعظيم والتهويل، فهم قد افتروا على الله كذبًا، ومع كل ذلك فهو يسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة. فما أعظم جرمهم! وما أفظع صنيعهم! قال صاحب النهاية: ((لا أحد أشد حلمًا عن فاعل ذلك، وترك المعاقبة عليه))[2].

ومما يبرز قدرة البيان النبوي الفائقة في التعريف والتنكير، واستعمال كل منهما الاستعمال الأمثل، ما تجلّى في قول الرسول ﷺ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"[3].

لفظ الشيطان في هذا الحديث ورد ثلاث مرات، جاء على صورة التعريف مرتين، وعلى صورة النكرة مرة واحدة، ولاشك في أنّ الدلالتين هاهنا مختلفتان؛ فتعريف الشيطان أفاد أنه جنس الشيطان المعروف، أما في جملة الجزاء فجاء منكرًا؛ وهذا من فضل الله ﷻ ليشمل جميع الشياطين، فيدخل في ذلك شياطين الجن والإنس.قال الطيبي: ((وإنما نكر شيطان آخر بعد تعرفه أولاً؛ لأنه أراد في الأول الجنس، وفي الآخر أفراده على سبيل الاستغراق والعموم))[4].

ب. التعريف:

المعرفة هي ما وضع لشيء معين[5].

ويجيء التعريف على أساليب متنوعة، وطرائق مختلفة، ولكل أغراضه وأسراره، فمنه ما يكون بالإضمار بالمقامات الثلاثة: التكلم، أو الخطاب، أو الغيبة، ومنه ما يكون

---

(١) فيه إثبات الأذية لله ﷻ، وأن الله ﷻ يتأذى ولكنه لا يتضرر. ينظر: شرح صحيح البخاري لابن عثيمين: ٢٩٩/٨.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٥٠٧.

(٣) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٦.

(٤) شرح الطيبي: ١٨٩١/٦.

(٥) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٢٣٤/٣.

معرفًا بالعلمية؛ لإحضاره بعينه في ذهن السامع، أو للتعظيم، أو للتحقير...، وقد يأتي التعريف بالاسم الموصول، ويكون لقصد زيادة التقرير، أو التفخيم، أو لاستهجان التصريح باسمه...، ومنه ما يكون بالإشارة؛ لتمييزه أكمل تمييز، أو للتعريض بغباء السامع، أو للتعظيم...، وأما التعريف باللام فلإرادة الجنس أو العهد..، وأما إذا جاء التعريف بالإضافة فلتضمُّنها تعظيمًا لشأن المضاف إليه، أو تحقيرًا...(١).

اسم الموصول:

أصدِّر حديثي عن صور التعريف بالاسم الموصول، إذ تكثر إشاراته، وتدقُّ أسراره(٢)، ويأتي لأسرار كثيرة نتطرق لبعضها من خلال الشواهد النبوية.

لقد كان التعريف بالاسم الموصول هو الأكثر ورودًا في أحاديث هذا الكتاب، من ذلك قوله ﷺ: "لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ"(٣).

يا له من تحذير شديد، فمَنِ ذا الذي لا يطمع في رحمة الله ولا يطلبها؟ لقد جاء هذا الترهيب حاملاً بين طيَّاته ترغيبًا في رحمة الناس، والشفقة بهم، وتأمل اختيار البيان النبوي لاسم الموصول هاهنا الذي أمدّنا بمعنى العموم، فالذي لا يرحم الناس أيًّا كانوا، فإنّ رحمة الله ﷻ لا تشمله، ويا لخسارة من حُرم رحمة أرحم الراحمين! كما نفيد من العموم في هذا الحديث الحث على إشاعة روح التراحم بين أفراد المجتمع على اختلاف درجاتهم، وتباين مكانتهم.

ومن شواهد الموصول، ما ثبت عن النبي ﷺ من أنه لما جاءه رسول إحدى بناته يدعوه إلى ابنها في الموت، قال ﷺ: ".. ارْجِعْ، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ .."(٤).

---

(١) ينظر: الإيضاح: ٤٧-٥٧.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب: ١٩٢.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: ٧٣٧٦.

(٤)باب قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: ٧٣٧٧.

إنها دعوة إلى الصبر والتصبُّر عند المصائب، وإيثار البيان النبوي التعريف بالموصول؛ كان لقصد تنبيه المخاطب على خطئه، فالواهبُ المعطي الولدَ هو الذي أخذه، فلِمَ الحزن؟ وكأنه تنبيه للأمة من بعدها أن يجانبوا الجزع والتسخُّط عند فقد أبنائهم وذويهم، وفي هذا من التسلية لهم ما فيه. كما أننا نلمح دلالة أخرى وهي التعميم، فكل ما أعطاه الله ﷻ وما أخذه ملك له.

وفي حديث العبد الذي يذنب فيتوب، ثم يذنب فيتوب، ثم يذنب فيتوب، قال الله ﷻ في خاتمة الحديث: ".. أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"[(1)].

لقد جاء التعريف بالموصول في هذا الحديث، مفيدًا معنى العموم والاستغراق، فليعمل الذي شاء ما دام على هذه الحال من الخوف من الله ﷻ، وخشية عقابه، فهو يذنب لكنه ما يلبث حتى يتوب إلى ربه ويئوب إليه، وهذه حال المتقين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ {الأعراف: ٢٠١}.

ويجيء التعريف بالموصول لمعنى التحقير، ففي حديث الصراط، يقول ﷺ: ".. يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ؛ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ .."[(2)].

في ذلك اليوم الذي يبحث فيه الإنسان عن الخلاص والنجاة، وإن كان في الفرار من أقرب الناس إليه، وأشفقهم عليه، فالناس مجمعون على شعار واحد: نفسي نفسي، إذا بمنادٍ ينادي، فيظن اليائسون أنّ به خلاصهم ولكن هيهات هيهات، حيث يأمرهم بالذهاب إلى ما كانوا يعبدون من دون الله، تلك المعبودات التي لم تنفعهم شيئًا في دنياهم، فكيف تنفعهم في أخراهم؟

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٩.

إنه نداء في قمة الاحتقار والازدراء لأولئك الذين أشركوا بالله ﷻ، فالمنادي لم يذكر تلك الإلهة، ولم يسمِّها بأسمائها؛ لأنها أحقر من أن تذكر بين يدي ملك الملوك، ورب العالمين أجمعين.

اسم الإشارة:

من الصور التي يأتي التعريف عليها في أحاديث هذا الكتاب، وله أسرار ولطائف. من ذلك ما ورد عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أنه قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ وَهُوَ بِالْيَمَنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ، وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ، وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاثَةَ الْعَامِرِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلابٍ، وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، فَتَغَيَّظَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا: يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: "إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ"، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ، فَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلا تَأْمَنُونِي"، فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ قَتْلَهُ أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَمَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ .."[1].

لقد سلك النبي ﷺ طريق التعريف باسم الإشارة في قوله: (إن من ضئضئ هذا)؛ ليميِّز الرجل المقصود أكمل تمييز، فالإشارة تقطع الشكَّ باليقين، إذ لا مجال في محاولة تنزيل الكلام على شخص آخر.

كما يفيد التعريف بالإشارة هاهنا، معنى التحقير لهذا الرجل الذي تعرَّض على مقام النبي ﷺ بالتشكيك، والطعن في عدله وأمانته.

وفي حديث آخر يصطفي البيان النبوي اسم الإشارة (هذا)؛ ليمدَّنا بمعانٍ ودلالات لا تتجلَّى بدونه، ففي حديث الرؤية، يقول جَرِيرٌ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قَالَ: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُونَ فِي

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: ٧٤٣٢.

رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا"[(١)].

هذا الحديث من أعظم البشائر للمؤمنين الصادقين، وإنه والله لَلنعيم الذي لا يدانيه نعيم، واللَّذَّة التي لا توازيها لَّذَّة، فأي شيء أعظم من رؤية وجه الله ﷻ؟

تأمل سياق الحديث، فالرسول ﷺ لم يقل: "كما ترون القمر"، بل جاء باسم الإشارة "كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ"، إنّ المجيء باسم الإشارة هنا كان الغرض منه بيان وضوح الرؤية للمؤمنين، فكما يرون القمر بهذه الدرجة من الوضوح يرون الله ﷻ كذلك، فهو تشبيه للرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي[(٢)].

كما أنّ إيثار اسم الإشارة (هذا) يوحي بقرب الرائيين من المرئي، فلم يقل: "ذلك القمر"، بل قال: "هذا القمر"، مما يشي بقربه؛ لوضوحه وبيانه.

ولَّما فاضت عينا النبي ﷺ وبين يديه ابن إحدى بناته، ونفسه تقعقع، قال له سعد ابن عبادة رضي الله عنه: مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: "هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ"[(٣)].

إنها رسالة لأولئك الذين نزعت الرحمة من قلوبهم، وامتلأت قلوبهم قساوة وغلظة.

الحبيب ﷺ تفيض عيناه ولا عجب فهو ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ١٢٨.

لقد جاء اسم الإشارة (هذه) هنا؛ ليقوم بوظيفة تمييز هذه الرحمة أكمل تمييز وأوفاه، فهي البكاء الذي لا جزع فيه ولا تسخُّط، البكاء الخالي من شق الجيوب، ولطم الخدود، البكاء الراضي بقضاء الله وقدره، المسلِّم لأمره. إن هذا النوع من البكاء رحمة من لدن رب العالمين.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٤.

(٢) ينظر: فتح الباري لابن رجب: ١٣٤/٣.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: ٧٣٧٧.

التعريف بالإضافة:

وهذا أحد الطرق التي سلكها البيان النبوي في أحاديث هذا الكتاب، من شواهده ما رواه أبو هريرة ﷺ من أن النَّبيَّ ﷺ قَالَ: "إنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ، فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"[(١)].

في هذا الحديث تكريم وأي تكريم، إنه الشرف الذي لا يضاهيه شرف، يا له من فضل كثير، وكرم كبير، فعندما يذنب العبد ويقصِّر، ثم يتوب إلى ربه يجد العفو والمغفرة، بل جاء التعريف بالإضافة في قوله: (غَفَرْتُ لِعَبْدِي) بما هو أعظم من ذلك، حيث أضاف الله ﷻ هذا العبد المقصِّر إليه، وهذا والله ((من كمال الكرم، ومزيد الفضل، أنه من فضله عليه بعفوه عنه أضافه إليه إضافة تشريف وتكريم))[(٢)].

ومن شواهد الإضافة قوله ﷺ: "الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ، وَذُو الْحَجَّةِ، وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ .."[(٣)].

عند قراءة هذا المقطع من الحديث يتبادر إلى الذهن سؤال عن سبب اختصاص شهر رجب بالإضافة إلى مضر؟ وفي الإجابة عنه يقال: إنّ شهر رجب هو أحد الأشهر الحرم، غير أنّ إضافته إلى مضر أعطته مزيدًا من الحرمة؛ وذلك أنّ مضر كانت تحافظ على

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾: ٧٥٠٧.

(٢) دليل الفالحين: ٦٥٢.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: ٧٤٤٧.

تحريمه أشد من محافظة سائر العرب، حيث كانت تعظمه غاية التعظيم. كما أن الإضافة إلى مضر جاءت توضيحا، وإزالة للّبس؛ حيث كان بين مضر وربيعة اختلاف في تحديد شهر رجب[1]. فبينت الإضافة الشهر المراد.

وفي حديث الصراط يقول ﷺ: ".. فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ، وَالْمَلائِكَةُ، وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هَؤُلاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمْ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، عَمِلُوهُ وَلا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلُهُ مَعَهُ"[2].

فالإضافة في قوله :(عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ) أفادت التشريف والتكريم والتعظيم لأولئك الذي شملتهم شفاعة الرحمن ﷻ ، وكفى بهذه الإضافة فخرًا، وحسبهم بها شرفًا.

التعريف بأل:

وهذا أحد وسائل التعريف، ومن شواهده قوله ﷺ في حجة الوداع: ".. أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟". قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُسَمِّيهِ بغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ ذَا الْحِجَّةِ؟". قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: "أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟". قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟". قُلْنَا: بَلَى قَالَ: "فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟". قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟" قُلْنَا: بَلَى ..."[3].

---

(١) ينظر: عمدة القاري: ٢٣٠/٢١.

(٢)باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٩.

(٣)باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

إنّ تعريف لفظ (البلدة) جاء للجنس، فمن معاني البلد: جنس المكان[1]، وفي هذا إشارة إلى كونها البلدة الجامعة للخير، كما أنه يوحي إلى استحقاقها لهذه التسمية واختصاصها بها؛ لأنها فاقت سائر مسميات أجناسها، كما فاقت الكعبة في تسميتها بالبيت سائر مسميات أجناسها، فكأنها هي المحل الجدير بالإقامة[2].

وفي حديث التحيات، جاء لفظ (السلام) معرَّفًا بأل، قال ﷺ: ".. السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"[3].

والتعريف هاهنا يحتمل وجوهًا، أحدها: أنها للعهد التقديري، أي ذلك السلام الموجه إلى الأنبياء عليهم السلام من قبلك موجه إليك أيها النبي، والسلام الموجه إلى صالحي الأمم السابقة موجه إلى صالحينا. ثانيها: للجنس، أي حقيقة السلام المعروف، ثالثها: أنها للعهد الخارجي، إشارة إلى قول الله ﷻ: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ {النمل: ٥٩}[4].

الضمير :

وهو أحد سبل التعريف، ومن شواهده قول الرسول ﷺ:".. يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُهِمُّوا بِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، لِتَشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا .."[5].

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٤٧٩/١ (بلد).

(٢) ينظر : شرح الطيبي: ٢٠١٤/٦.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾: ٧٣٨١.

(٤) ينظر: شرح الطيبي: ١٠٣٥/٣.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٠.

لقد جاء استهلال نداء المؤمنين لأبيهم آدم عليه السلام بالضمير المنفصل (أنت)، وهذا فيه تعظيم وإجلال؛ إذ هو المختص بتلك الفضائل دون غيره من الأنبياء .

والضمير أتى في شواهد أخرى لإفادة القصر؛ وسيجري الحديث عليها في مواضع أخر[1].

العلمية :

وبهذا الطريق نختم الحديث عن التعريف، ففي قوله ﷺ: "لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنْ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُمْ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْجَهَنَّمِيُّونَ"[2].

يعلِّق الطيبي على إطلاق هذه التسمية بقوله: ((ليست التسمية تنقيصًا لهم، بل استذكارًا؛ ليزيدوا فرحًا على فرح، وابتهاجًا على ابتهاج، وليكون ذلك علمًا لكونهم عتقاء الله تعالى))[3].

وفي قوله ﷺ: "الْمَدِينَةُ يَأْتِيهَا الدَّجَّالُ، فَيَجِدُ الْمَلائِكَةَ يَحْرُسُونَهَا، فَلا يَقْرَبُهَا الدَّجَّالُ وَلا الطَّاعُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"[4].

فذكر (المدينة) وهي علم الأعلام؛ وذلك لتعظيمها، وتشريفها، وبيان مكانتها السامقة، فناسب ذلك كله التصريح باسمها؛ لاختصاصها بعدم قرب الدجَّال والطَّاعون إليها.

---

(١) ينظر : ١٢٣-١٤٤/١٢٤-١٤٥ من هذا البحث .

(٢) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ٧٤٥٠.

(٣) شرح الطيبي: ٣٥٣٨/١١.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: ٧٤٧٣.

٢) الإفراد والتثنية والجمع :

يتناول هذا الدرس جانبًا آخر لهيئة اللفظة في البيان النبوي، فيدرس الأسرار والنكت التي تتجلّى من طريق التعبير بالإفراد أو التثنية أو الجمع؛ كاشفًا عن الدقة المتناهية التي تنتظم البيان النبوي في كل جزء من أجزائه.

ففي حديث الصراط ما ينبئ عن دقة البيان النبوي في استعمال هيئة دون أخرى، حيث يقول ﷺ: ".. يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتْبَعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ .."[(١)].

إنّ مجيء لفظ (الطواغيت) على صورة الجمع يستوقف القارئ لهذا النص الشريف، فما سر إيثار التعبير بالجمع دون الإفراد هاهنا؟ حين تنعم النظر تجد أنّ النكتة في ذلك هي التكثير. فالطواغيت جمع ومفرده (طاغوت)، وهو ((كل ما تجاوز العبد به حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله ..))[(٢)]. والناظر إلى العالم اليوم يجد آلاف الطواغيت التي من دون الله ﷻ، بل إنك تجد في بعض الديانات المئات من الطواغيت.

كما يفيد إطلاق الجمع الاختصار، فلو أخذ الرسول ﷺ يعدّد الطواغيت فسيطول المقام؛ فالمعبودات من دون الله ﷻ كثيرة جدًّا، كما أنها تزداد بتعاقب الأزمان.

وفي الحديث نفسه، نلمح سرًّا بديعًا في إيثار الجمع على الإفراد، وذلك عند قول الرسول ﷺ: ".. وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ، فَيَصْرِفُ

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٢) إعلام الموقعين: ٩٢/٢.

اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ وَيَدْعُو اللَّهَ حَتَّى يَقُولَ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ، فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، فَرَأَى مَا فِيهَا مِنْ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ، فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، مَا أَغْدَرَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ لا أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّهْ، فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى، حَتَّى إِنَّ اللَّهَ لَيُذَكِّرُهُ يَقُولُ: كَذَا وَكَذَا حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ، قَالَ اللَّهُ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ"[(١)].

تأمل بهاء هذا النص المشتمل بالرحمة، الناطق بالرأفة، لتدرك شيئًا من لطف الله ﷻ بعباده، ورحمته بهم.

إنّ خروج هذا الرجل من النار إلى الجنة زاده طمعًا في عفو الله ﷻ، ورجاءً في تحقيق رغباته، فهو يلوذ بأي وسيلة، ويعتصم بكل طريقة، لينال مرداه، ويحقق مبتغاه. ولم يجد سبيلاً إلى ذلك سوى أن يسأل ربه ﷻ، ويعطيه العهود والمواثيق، لاحظ ليس عهدًا وميثاقًا، أو اثنين، أو ثلاثة، بل عهودًا ومواثيقًا.

لقد جاء هذان اللفظان على صيغة جمع الكثرة (عهود)، وصيغة منتهى الجموع (مواثيق)؛ ليجسدان صورة ذلك الرجل الذي لا يملك وهو يرى كرم ربه ﷻ بين يديه إلا أن يستزيده، وإن نقض عهوده ومواثيقه.

ولا زال في الحديث بقية، أنعم النظر في قوله: (حتى إذا انقطعت به الأماني)، جمع الأمانيّ هنا، ينبئ عن كرم الله المستمر، وفضله المنهمر، لقد ترك الله ﷻ هذا العبد يتمنّى،

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

ويتمنَّى، ويتمنَّى حتى وقف عن الأماني. كل هذه المزايا والعطايا لآخر أهل النار دخولاً الجنة، فكيف بمن ارتقى الدرجات العالية في الجنة؟

وفي خطبة الوداع، يستعمل الرسول ﷺ الجمع في براعة عالية، فيقول: ".. فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ مُحَمَّدٌ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا .."[١].

جاء الخطاب في هذه الوثيقة الإسلامية الإنسانية مكرِّسًا مبدأ الجسد الواحد بين أفراد الأمة المسلمة، حيث انتخب البيان النبوي صيغة الجمع المضاف إلى ضمير الجماعة، تنبيهًا على ((أنّ دم الفرد وماله وعرضه، هو دم الجماعة ومالها وعرضها، وهي مسؤولة عن صيانته، والحفاظ عليه، والدفاع عنه، والقتال دونه، ويعني أيضًا أنّ كل فرد مسؤول في حدود قدراته عن دم غيره وماله وعرضه))[٢].

وتحضر هيئة الجمع في حديث التحيات، فقد كان الصحابة يصلُّون خلف النبي ﷺ ويقولون: السلام على الله، فقال ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ، وَالطَّيِّبَاتُ، .."[٣].

فالجمع هنا هو المقدم على غيره؛ وذلك لأنّ المقام مقام تعظيم، فالتحيات: جمع تحية، وهي التعظيم، فجميع التحيات على اختلاف أشكالها، وتنوع صيغها، لا يستحقها إلا الله ﷻ. وكذلك الصلوات، كلها لله ﷻ، وجاء الجمع هنا؛ ليشمل كل ما يطلق عليه صلاة شرعًا أو لغة. وكذا الطيبات لله، فله من الأوصاف والأقوال أطيبها، وكذا فيما يتعلق بأعمال العباد، فلا يصعد إليه إلا ما كان طيِّبًا ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[٤]{فاطر: ١٠}.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: ٧٤٤٧.

(٢) من أسرار البيان النبوي: ٨٢.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾: ٧٣٨١.

(٤) ينظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع: ١٤٦/٣.

ومن سنن العرب ذكر الواحد وإرادة الجمع[1]، من ذلك ما جاء في قوله ﷺ: ".. حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلا أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ .."[2].

ففي هذا المقطع استعمل لفظ (أثر السجود) مفردًا، والمراد هو آثار السجود، وهي: الجبهة، والكفين، والقدمين، والركبتين[3]، فكان من باب التعبير بالمفرد وإرادة الجمع.

وقد يحل الجمع محل المثنى لنكتة بيانية، كما جاء في حديث علي رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً، فقال لهم: "ألا تصلُّون"[4].

إنّ استعمال صيغة الجمع (تصلُّون) بدلاً عن المثنى (تصلِّيان)، الذي هو مقتضى الظاهر يشي بأنّ الخطاب في هذا الحديث ليس المراد به علي وفاطمة رضي الله عنهما، وإنما هو خطاب عام للأمة جمعاء، استهلَّه بـــ(ألا) الحاضَّة، ففيه دعوة لأفراد الأمة كلها إلى اغتنام الأوقات الفاضلة ليلاً بالانتصاب بين يدي الله عز وجل، ومناجاته.

وللخطاب بالإفراد مكانته في البيان النبوي، من ذلك قوله ﷺ: "مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"[5].

يمين واحدة كاذبة فقط لا أيمان، تودي بصاحبها إلى هذه العقوبة العظيمة، فقل لي بربك، ماذا لو كانت أيمان كاذبة؟ إنّ المجيء بلفظ الإفراد (يمين كاذبة) فيه من تعظيم شأن اليمين ما فيه.

---

(١) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة: ٣٤٨.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٣) ينظر : شرح صحيح البخاري لابن عثيمين: ٤٥٢/٨.

(٤)باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾: ٧٤٦٥.

(٥)باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٥.

وفي موطن آخر تتجلّى فيه الصورة الجمالية للإفراد، يقول ﷺ: ".. ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"(١).

لاحظ قال: (يغفر الذنب) على هيئة المفرد، و لم يقل الذنوب؛ وفي ذلك إشارة إلى تعظيم شأن الذنب، وعدم الاستهانة به، وهذه حال أهل الإيمان مع الذنوب كما وصفها عبد الله بن مسعود ﵁ بقوله: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ، يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا"(٢)، كما أنه يوحي إلى محاسبة الإنسان نفسه على كل صغيرة وكبيرة، فيزرع في قلبه المراقبة، وسرعة الإنابة إلى الله ﷻ.

ويجيء البيان النبوي مخاطبًا المفرد؛ ليستنهض همته، ويذكي عزيمته، فالمسلم حينما يقرأ نصًّا كقوله ﷺ: "يَتنزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"(٣). يستشعر بأنّ ربَّ العزة والجلال يخاطبه، إنّ دلالة الإفراد تجعل المسلم يستشعر الحث والوجوب والحرمة أكمل استشعار؛ وذلك لأنّ النص يعنيه دون غيره. لقد جاء خطاب المفرد مبطلاً لكل محاولات إسقاطه على الآخرين.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٥٠٧.

(٢) رواه البخاري: كتاب الدعوات: باب التوبة: ٦٣٠٨.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٤.

٣) الاسم والفعل :

هذا الباب يحمل بين طياته أسرارًا ولطائف شريفة، ومن المهم قبل الولوج فيه معرفة الفرق الدقيق بين دلالة الاسم والفعل؛ حتى نتبين أسرار التعبير بهما ولطائفه.

فالاسم يدل على الثبوت، وأما الفعل فيأتي لدلالة الحدوث والتجدد، وقد بين عبدالقاهر الجرجاني ذلك مشيرا إلى ((أنّ موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء، فإذا قلت: (زيد منطلق)، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئًا فشيئًا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: (زيد طويل) و(عمر قصير)، فكما لا تقصد هاهنا إلى أن تجعل الطول والقصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجوبهما على الإطلاق كذلك لا تتعرض في قولك: (زيد منطلق) لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك. فإذا قلت: (زيد هاهو ذا ينطلق)، فقد زعمت أنّ الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا، وجعلته يزاوله ويُزجِّيه))[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الكلام البليغ والبيان الرفيع يضع كلاًّ منهما في مكانه الأليق. ودونك شاهد من القرآن الكريم يبرز الدلالة بوضوح، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ ﴾ {ص: ١٨}. قال الزمخشري: ((فإن قلت: هل من فرق بين يسبحن ومسبحات؟ قلت: نعم، وما اختير مسبحات إلا لذلك، وهو الدلالة على حدوث التسبيح شيئًا بعد شيء، وحالا بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح))[2].

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٧٤.

(٢) الكشاف: ٩٢١.

وحين التأمل في أحاديث كتاب التوحيد تجد البيان النبوي يستعمل الاسم والفعل لنكت بلاغية يبديها السياق. فمن ذلك قوله ﷺ: "مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"[1].

إنّ المجيء بالأفعال (يدّعون/يعافيهم/يرزقهم) أضفى على المعنى أبعادًا أخر، فمع كفرهم وإعراضهم وافترائهم على الله الكذب، حيث زعموا أنّ لله ولدًا ـــ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـــ وقد جاء ذلك الكفر بشكل متجدد متواصل، وفي مقابل ذلك تبصر صبرًا وحلمًا يفوق الوصف، حيث يتفضل عليهم سبحانه بالمعافاة المستمرة، والرزق المتجدد.

وعلى النحو من هذا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْعَصْرِ وَصَلَاةِ الْفَجْرِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ فَيَقُولُ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ"[2].

أنعم النظر في إيثار البيان النبوي الفعل (يصلّون) على الاسم؛ لتدرك السر في ذلك، حيث جاء الفعل معبِّرًا عن استمرارهم في أداء الصلوات وتجدد ذلك منهم بصورة مطَّردة، وفي هذا إبراز لفضل هؤلاء المؤمنين الذين لازموا الصلاة، ومما يؤكد هذا المعنى أنّ الله عز وجل سألهم عن الترك فقط (كيف تركتم عبادي؟)، فما الفائدة إذن من قولهم: (وأتيناهم)؟ أجاب العيني عن ذلك بقوله: ((زادوا في الجواب إظهارًا لبيان فضلهم، وحرصًا على ما يوجب مغفرتهم))[3].

وفي مشهد جمالي أخاذ، تتوالى الأفعال في حديث آخر؛ لتشارك في إيضاح المراد، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَعَثَ عَلِيٌّ وَهُوَ بِالْيَمَنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ

(١) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾: ٧٣٧٨.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: ٧٤٢٩.

(٣) عمدة القاري: ٦٨/٥.

وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاثَةَ الْعَامِرِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلابٍ وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، فَتَغَيَّظَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا: يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: "إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ"، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اتَّقِ اللَّهَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ؟ فَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلا تَأْمَنُونِي؟"، فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ قَتْلَهُ، أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ فَمَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:"إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلَامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ"[(١)].

لاحظ التدفق الدلالي المنبعث عن تتابع الأفعال (يقرؤون/يجاوز/يمرقون/يقتلون/يدَعون)، إذ أبانت الأفعال عن قراءة متواصلة للقرآن الكريم من أولئك الجماعة الذين يخرجون من عقب ذي الخويصرة[(٢)]، لكنها قراءة عديمة الجدوى؛ فهي لا تجاوز حناجرهم، فمهما كثرت قراءتهم وتواصلت، لكنها قراءة لا يحصل معها فقه المعنى وإدراك المقصود، وفهم المراد[(٣)]، فليس لهم من هذه القراءة المتجددة سوى مرورها على الألسنة دون القلوب.

ثم انظر البراعة في التضاد بين (يقتلون/يدَعون) وكيف جاء مصورًا لشناعة فعلهم، وقبيح صنعهم، حيث باتوا قتلة لأهل الإسلام، عفيفين عن أهل الكفر والأوثان، وذلك ليس أمرًا حدث مرة واحدة فقط، بل يتجدد دهرًا بعد دهر.

ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ؛ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ؛ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا"[(٤)].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: ٧٤٣٢.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٥/٢٨٤.

(٣) ينظر: فتح الباري: ٥/٢٨٤.

(٤) باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦٠.

فقد جاء الفعل المضارع (يقرأ) مكرَّرًا في كل الأحوال، وهذا ينبئ عن أنه مقصود لذاته؛ حيث إنّ القراءة تكون مرة بعد مرة، وتارة بعد أخرى، بحيث تكون هجِّيراه، فليس المراد حصولها مرة واحدة فقط، كما أنّ النفي في قوله (لا يقرأ) يقصد به أن يكون عدم القراءة ديدنًا له وعادة[١].

ويأتي الفعل مبرزًا المشهد أمام الأعين في تصوير رهيب، من ذلك ما جاء في قوله ﷺ: "قَالَ لا يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ تَقُولُ: قَدْ قَدْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ. وَلا تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ"[٢].

جاء الفعلان (ينزوي/تفضل) مصوّرين المشهدين تصويرًا دقيقًا، وكأنهما أمامك، ففي المشهد الأول صوّر الفعل (ينزوي) الذي يدل على الانضمام والتجمع[٣]، صورة تجمع النار بعضها إلى بعض، وكيف تنضم أجزاؤها المتباعدة، وهو مشهد رهيب يبعث على الرهبة، ويكشف جزءًا من العظمة الإلهية.

ويأتي الفعل (تفضل) الذي يدل على الزيادة[٤]ليصوّر قبسًا من الفضل الإلهي المنهمر، حيث تتسع الجنة ــ بفضل الله ورحمته ــ لمن منّ الله عليهم بدخولها، ثم إنّ الفعل ينبئ عن تجدد ذلك التوسع واستمراره، فما أجزل عطاءك وما أغزر نوالك يالله!

وعن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ "أَنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ .."[٥].

---

(١) ينظر: شرح الطيبي: ١٦٣٦/٥.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: ٧٣٨٤.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة: ٣٤/٣.

(٤) ينظر: القاموس المحيط: ١٠٥٥ (الفضل).

(٥)باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾: ٧٤٥٤.

في الحديث يخبر الرسول ﷺ عن تكوين خلق الإنسان، وإيثار البيان النبوي الفعل (يجمع) يخيل لك صورة تمازج ماء الرجل والمرأة مع بعضهما حال استقرارهما في الرحم، وقد أخذ ابن أبي جمرة من هذا الحديث ما يدل على قدرة البارئ ﷻ، فهي قدرة ((لا يحجبها شيء، فلم يجعل الجمع علة الجماع؛ لأنّ المرء يجامع أهله مرارًا ولا يكون بينهما مولود حتى يشاء الله))[1]. وتكرر الفعل (يكون) ليصور الحال التي لم يرها الإنسان حال مروره بها؛ ليستشعر عظم المنّة، وجلالة العطاء، فيشكر خالقه ومولاه على رعايته دون أي فعل منه. كما يفيد هذا التراتب في خلق الإنسان جميل صبر الأم، وقوة جلدها، الذي يكبر شيئًا فشيئًا وهي تحوطه بعطفها وحنانها.

وأما الاسم فقد ورد في سياقات يتطلبها المقام، فمن ذلك قوله ﷺ في حجة الوداع: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.."[2].

فقد جاء الخبر (حرام) اسمًا؛ ليؤكد ثبات حرمة الدماء والأموال والأعراض؛ ليجعلها في عداد الأمور الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتجدد.

وتجيء أسماء الله الحسنى وصفاته العلى في معرض الأمور الثابتة له سبحانه أبد الآبدين، فهي مختصة به سبحانه. كما ورد في دعاء النبي ﷺ في التهجد، حيث قال: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ.."[3].

فصفات الله الواردة هاهنا محض اختصاص بالله ﷻ، وهي دائمة الثبوت له سبحانه على تعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة.

---

(١) بهجة النفوس: ٣/٢٢١.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾: ٧٤٩٩.

الفصل الثاني

الجملة

- المبحث الأول: الخبر والإنشاء.
- المبحث الثاني: التقديم والتأخير.
- المبحث الثالث: الإطلاق والتقييد.
- المبحث الرابع: القصر.

- المبحث الأول: الخبر والإنشاء:

-الخبر: أغراضه وأضربه:

لما كان الكلام لا يخرج عن كونه إما خبرًا وإما إنشاءً[1] قُدّم الحديث عنهما على سائر مباحث الجملة الأخرى، وقد اختلف البلاغيون في حدِّ الخبر، حتى إنَّ السكاكي ذهب إلى استغناء الخبر والإنشاء عن التعريف؛ لأنَّ الإنسان قادر على التفريق بينهما ضرورة[2].

والخبر في اصطلاح جمهور البلاغيين هو: ما يحتمل الصدق والكذب، وفي ذلك يقول الخطيب: ((اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم: صدقه: مطابقة حكمه للواقع، وكذبه: عدم مطابقة حكمه له. هذا هو المشهور وعليه التعويل))[3].

وقد أُخذ على هذا التعريف كون كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ فيما صح منه صدقين لا يحتملان الكذب البتّة، لذا لجأ كثير من البلاغيين إلى إضافة قيد في التعريف يمنع هذا الإيراد، فقالوا: بأنه ما يحتمل الصدق والكذب لذاته.

ولكن هذه الإضافة لم تنه الجدل حول تعريف الخبر، حيث اعترض بعض الباحثين على هذا القيد، فقال: ((أرادوا أن يريحوا أنفسهم فأخرجوا القرآن الكريم والحديث الشريف والمسلّمات من القاعدة، وقالوا: هذه أخبار علم مسبقًا أنها صادقة ونسوا أن القاعدة التي تعجز عن احتواء القرآن قاعدة عابثة))[4].

ويرى الدكتور ناصر الخنين أنّ في هذا القيد الذي أثبتوه إساءة أدب مع كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ؛ حيث جعلوا كلامهما ــ المقطوع بصحته ــ يحتمل الكذب

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة: ٣٨.

(٢) ينظر: المفتاح: ٢٥١.

(٣) الإيضاح: ٢٤.

(٤) بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ١١٨.

والصدق مع أنّ مصدره أصدق القائلين، ويعرِّف الخبر بأنَّه ((ما تركب من جملة أو أكثر، وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنية))[1].

غير أنّ هذا التعريف لا يضع حدًّا فاصلا بين الخبر والإنشاء؛ إذ إنَّ من أنواع الإنشاء التي ذكرها ما يصدق عليه هذا التعريف، فالتعجب مثلا في قولك: ما أحسن خلق محمد! جملة تفيد المخاطب أنّ محمدًا بلغ الغاية في حسن الخلق.

ومن أجود التعريفات التي وقفت عليها أنّ الخبر هو ((الكلام الذي يُقابل بالتصديق أو بالتكذيب))[2]. وهو مستفاد من تعريف ابن عثيمين للخبر بأنه ((الكلام الدائر بين النفي والإثبات من قبل المتكلم المقابل بالتصديق أو بالتكذيب من قبل المخاطب))[3].

وعلى هذا فيكون تعريف الإنشاء: ما لا يصح أن يقابل بالتصديق أو بالتكذيب.

وكلا هذين الأسلوبين يتمتعان بأسرار بيانية، ولطائف بلاغية، تتبين من خلال الوقوف على شواهدهما في الصفحات القادمة.

---

(١) النظم القرآني في آيات الجهاد: ٢٥٣.

(٢) التوجيه البلاغي لآيات العقيدة: ١٩٧.

(٣) دروس البلاغة مع شرح ابن عثيمين: ٣٣.

١) أغراض الخبر:

يجيء الخبر لغرضين رئيسين، الأول منهما: يسميه البلاغيون (فائدة الخبر)، ويريدون به: إفادة المخاطب حكمًا جديدًا تتضمنه الجملة. والثاني: (لازم الفائدة)، ويقصدون به: إفادة المخاطب أنّ المتكلم يعلم مضمون الخبر[١].

هذا وقد جاء البيان النبوي حافلاً بالغرض الأول، ولا غرو فالسنَّة هي المصدر الثاني للتشريع؛ لذا جاءت نصوصها ملأى بما يرشد المؤمنين إلى خيري الدنيا والآخرة.

هذان هما الغرضان الرئيسان للخبر، غير أن ثمة أغراض أخرى تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، حيث تتجاوز حدود الفائدة ولازمها[٢].كالترغيب، والوعيد، والاسترحام، والتوبيخ، والمدح، والذم، والمدح، وغيرها مما يرشد السياق إليه.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه ليس للخبر إلا غرضان هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة، وهذان الغرضان يحملان في الوقت ذاته معاني شتى، كإظهار الضعف، والاسترحام، والاستعطاف، والتحسر، والمدح، والفخر، وغير ذلك[٣]. وهذا يأتي كثيرًا لكنه غير مطّرد.

و الأصوب في رأي الباحث أن يقال: إنّ للخبر غرضين رئيسين هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة، غير أنّ الشائع في استخدام الخبر يكون لأغراض أخرى تفهم من خلال السياق والقرائن. سواءً كان ذلك بمعية الغرضين الرئيسين أو بدونهما.

وقد ورد في كتاب التوحيد جملة من الأحاديث التي تنضوي تحت الغرض الأول، فمن ذلك قول الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حين أراد أن يبعثه إلى اليمن: "إِنَّكَ تَقْدَمُ

(١) ينظر: المطول: ١٨١.

(٢) ينظر: خصائص التراكيب: ٧٩.

(٣) البلاغة في ثوبها الجديد (علم المعاني): ٦٠.

عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ..."[1].

فهاهنا خبر جديد يحمله الرسول ﷺ إلى مبعوثه، حيث أفاده أنّه سيقدم على قوم من أهل الكتاب، ولا شك في أهمية هذا الخبر؛ لارتباطه بأُسِّ القضايا، توحيد الله ﷻ، فدعوة أهل الكتاب تختلف عن دعوة غيرهم من الوثنيين والمشركين.

ونحو هذا قوله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ..."[2].

فهذا الخبر تضمن خبرًا جديدًا وهو أنّ (السلام) اسم من أسماء الله ﷻ، فقد كان الصحابة ﭫ يجهلون ذلك، بدليل أنّهم كانوا يقولون: السلام على الله، وهو ما جاء في مفتتح هذا الحديث، يقول ابن مسعود ﭬ: كنا نصلي خلف الرسول ﷺ فنقول: السلام على الله. حتى نهاهم الرسول ﷺ عن ذلك، وقال: "إنَّ اللّه هُوَ السَّلام"، ثم أرشدهم إلى هذه الذكر "التحيات لله ...".

فائدة الخبر في الشاهدين السابقين تتجه إلى إفادة المخاطب بحكم جديد، دون تطلع إلى معان أخرى، إذ الغاية منصبة على الفائدة التي تسكن الخبر، ومن ثم إيصالها للمخاطب. ولم أعثر في المادة المدروسة على شاهد تمحضت فيه الدلالة للازم الفائدة.

انحصر الحديث فيما سبق عن أحد الغرضين الرئيسين للخبر الخالي من حمل أي معان أخرى، وسننتقل الآن إلى المجال الأرحب في هذا الدرس، وهو خروج الخبر عن حدِّ فائدة الخبر، ولازم الفائدة؛ مفيدًا معاني شتى، تفهم من السياق وقرائن الأحوال، وقد نبه البلاغيون على هذا، قال سعد الدين التفتازاني: ((فإنه كثيرًا ما تورد الجملة الخبرية لأغراض أخرى سوى إفادة الحكم أو لازمه، كقوله تعالى حكاية عن امرأة عمران: ﴿ **رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ** ﴾ {آل عمران: ٣٦}؛ إظهارًا للتحسر على خيبة رجائها، وعكس تقديرها،

---

(١) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٢.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾: ٧٣٨١.

والتحزن إلى ربها؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرًا، وقوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ {مريم: ٤}؛ إظهارًا للضعف والتخشع، وقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ {النساء: ٩٥}؛ ادّكارًا لما بينهما من التفاوت العظيم؛ ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن انحطاط منزلته، ومثله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ {الزمر: ٩}؛ تحريكًا لحمية الجاهل، ومثل هذا أكثر من أن يحصى))[1].

وقد وردت في أحاديث كتاب التوحيد أخبار كثيرة تفيد أغراضًا متنوعة، ففي مشهد يملأ النفوس خوفًا وهلعًا يخبرنا الرسول ﷺ عنه بقوله: "يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ"[2].

يخبر الرسول ﷺ عن شيء من أهوال يوم القيامة، وإنه لمشهد رهيب، يبعث النفوس على الخوف ويحفزها على التزود والاستعداد، كما أنّ فيه إشارة إلى عِظَم عظمة الله ﷻ، وسعة قدرته، فهذه المخلوقات العظام الجسام الضخام في ذلك اليوم وقبله وبعد خاضعة لقدرة الله منقادة لأمره؛ أحدها في قبضة العلي الكبير والأخرى يطويها بيمينه.

وفي غرض آخر، يكشفه لنا قول الرسول ﷺ: "لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ"[3].

يشتمل هذا النص على قانون رباني، وهو خبر جديد أفاده الحديث، كما يُلحظ من خلال هذا النص إشعاعات تحذيرية تنبعث من بين حروفه، إذ إنّ رحمة الله ﷻ التي هي من أشرف الغايات، وأسنى المطالب لا ينالها الجفاة القساة الغلاظ الشداد الذين لا يرحمون الناس ولا يعطفون عليهم. فالتحذير والتهديد من سلوك هذا المسلك الغليظ الجافي باد ظاهر.

---

(١) المطول: ١٧٩.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾: ٧٣٨٢.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: ٧٣٧٦.

ومن المعاني التي يفيدها الخبر الاسترحام والاستعطاف، فقوله ﷺ:"اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ..."[1].

فالرسول ﷺ يرشد أبا بكر ﷺ والمؤمنين من بعده إلى أن يقولوا هذا الدعاء في صلاقم، وقد اكتسى هذا الدعاء بمعاني الاسترحام، حيث الاعتراف بالخطأ والتقصير، وإظهار الضعف والتذلل لله ﷻ.

وفي قول المؤمنين لآدم ﷺ يوم القيامة: "أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ...."[2].

جاءت الأخبار لتفيد المخاطب وهو آدم ﷺ بأنّ المتكلمين يعلمون علو شأنه، ورفعة مكانته عند ربه؛ لذلك كان أول نبي يسألونه الشفاعة (لِتَشْفعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّك) وفي الوقت ذاته فإنها تتضمن مدح نبي الله آدم ﷺ ، حيث امتاز عن غيره بهذه الأمور، وخصه الله بها، كما أنّ فيها حضًّا له ليشفع لهم عند ربهم.

وفي قوله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[3].

جاء النص محمّلاً بهذه الأخبار؛ ليستنهض الهمم، ويبعث العزائم، ويوقظ الغافلين، ويبشر الصالحين.

وفي قوله ﷺ: "لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"[4].

يخبر الرسول ﷺ عن أنّ هذا الدين باق إلى قيام الساعة، وأنّ ثمة طائفة ستحمل لواءه، وستقيم شعائره، وتثبت عليه مهما كثرت المغريات، وفشت المنكرات، وفيه أيضا

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾: ٧٣٨٨.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٠.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٤٩٨.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ ﴾: ٧٤٦٠.

بشارة لأهل الإيمان، وتطمين لهم، ودعوة لهم للثبات على الحق والصبر عليه والتواصي على ذلك.

ومن الأخبار التي خرجت عن حد الغرضين الرئيسين، ما جاء في احتجاج موسى وآدم عليهما السلام، قال ﷺ: "احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ الْجَنَّةِ. قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالاتِهِ وَكَلامِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى"[1].

يخطئ من يجعل الخبرين : (أنت آدم أبو الناس..) و (أنت موسى الذي اصطفاك الله) من قبيل لازم الفائدة؛ وذلك لأن كلاًّ من النبيين يعلم أن الآخر يعلم بالخبر، وإنما الغرض هنا الإنكار. فموسى عليه السلام ينكر على آدم عليه السلام إخراج ذريته وحاله هذه، وكذا ينكر آدم على موسى هذا الإنكار وهو يعلم أنّ هذا أمر قد قدره الله عليه.

(١) باب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾:٧٥١٥.

٢) أضرب الخبر:

يتكئ البلاغيون في حديثهم عن هذا الدرس على المناقشة التي جرت بين أبي العباس[١]، والكندي المتفلسف، فقد روي عن ابن الأنباري أنه قال: ((ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوًا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: (عبدالله قائم)، ثم يقولون: (إنّ عبدالله قائم)، ثم يقولون: (إنّ عبدالله لقائم)، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: (عبدالله قائم) إخبار عن قيامه، وقولهم: (إنّ عبدالله قائم) جواب عن سؤال سائل، وقولهم: (إنّ عبدالله لقائم) جواب عن إنكار منكرٍ قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني))[٢].

فقد أبرز أبو العباس جانبًا من تميز اللغة العربية، وما تتمتع به من قدرة فائقة في دقة التعبير، حيث يختلف سياق الكلام باختلاف أحوال المخاطبين، وقد انطلق البلاغيون من هذه الرواية إلى تقسيم الخبر إلى ثلاثة أضرب[٣]:

١) الضرب الابتدائي: وهو إذا ما كان المخاطب خالي الذهن. حيث يأتي الخبر خاليًا من أي تأكيد.

٢) الضرب الطلبي: وهو إذا ما كان المخاطب مترددا في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر، وفي الوقت نفسه طالب معرفته ليزول تردده. فيؤكد الخبر بمؤكد واحد استحسانًا.

---

(١) وقع خلاف في المقصود بأبي العباس هنا، هل هو المبرد أم ثعلب؟ ومرد الخلاف أنّ المبرد وثعلبًا متفقان في الكنية، ومتعاصران؛ عاشا معًا في بغداد، وتوفيا فيها، وكلاهما من أئمة اللغة والأدب، وقد ساق عبدالقاهر الخبر في الدلائل دون تعيين، وغالب كتب البلاغة التي عينت المراد ذكرت أنه المبرد، ورجح محمود شاكر أنه ثعلب مخالفًا المشهور، وكذلك فضل حسن عباس، ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها: حاشية ص١١٦. ولمزيد من التفصيل، ينظر: مجلة العرب: عدد شهري رجب وشعبان ١٤٢٨هـ، قصة الفيلسوف الكندي وأبي العباس حول أضرب الخبر في اللغة العربية: نقد وتوثيق. وقد خلص صاحب البحث إلى أن المراد بأبي العباس هو ثعلب.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣١٥.

(٣) ينظر: الإيضاح: ٢٩.

٣) الضرب الإنكاري: وهو ما يُلقى للمخاطب المنكِر، ويأتي الخبر بأكثر من مؤكد على حسب إنكار المنكِر.

وخير ما يرشد إلى بيان هذه الأضرب، وإيضاح الفرق بينها، ما ورد في قصة أصحاب القرية، يقول تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ {يس: ١٣- ١٦}.

فقد جاء الخطاب مؤكدًا بـــ(إنّ) والجملة الاسمية (إنّا إليكم مرسلون)؛ لّما قابلوهم بالتكذيب (فكذبوهما)، ولكن لّما اشتد إنكارهم وقوي، وذلك بنفي الرسالة عنهم (ما أنتم إلا بشر مثلنا)وهو كما ترى أسلوب مؤكد بالنفي والاستثناء، ثم أردفوا ذلك بقولهم: (وما أنزل الرحمن من شيء)وهذا تأكيد أبلغ من الذي قبله في نفي الرسالة عنهم، ثم ختموا تكذيبهم بقولهم: (إن أنتم إلا تكذبون) فلمّا أصروا على التكذيب، واشتد إنكارهم أجاب الرسل عليهم بقولهم:(قالوا ربنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون)،فجاء الخطاب مؤكدًا بأكثر من مؤكد: القسم من خلال استشهادهم بعلم الله الذي يجري مجرى القسم؛ لأنه يؤكد مفهوم الخبر[(١)]، و(إنّ)المؤكدة، والجملة الاسمية، واللام المزحلقة في قوله: (لمرسلون).

- **الضرب الابتدائي:**

وهو ما إذا كان المخاطب خالي الذهن غير شاك ولا منكِر، حيث يلقى إليه الخبر خاليًا من التوكيد، ففي قوله ﷺ: " السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحَجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ ..."[(٢)].

نجد أنّ المخاطبين خلاة الأذهان من هذه الأخبار، فلم يكونوا شاكين ولا مترددين ولا منكرين؛ لذا جاءت هذه الأخبار متعاقبة دون اللجوء إلى مؤكدات.

(١) حاشية القونوي: ١٦/١٠٦.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾: ٧٤٤٧.

ويأتي حديث النزول الإلهي خاليًا من المؤكدات، يقول ﷺ: " يَتنزَّلُ رَبُّنا ــ تَبارَكَ وَتَعالَى ــ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"[1].

إنّ مجيء الخبر هكذا خلو من المؤكدات راجع إلى أنّ المتلقين خلاة الأذهان من هذا الخبر، فلم يكونوا على علم ودراية به ، فنزول الله ﷻ لم يكن معروفًا من ذي قبل.

ونحو هذا ما ورد في الحديث الأخير من صحيح البخاري، وهو قوله ﷺ: "كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"[2].

حيث جاء الخبر خاليًا من المؤكدات، ولا غرو فالصحابة ﭫ ليسوا شاكين أو مترددين في قبول الخبر وتصديقه، فقد كانوا يحملون أحاديث الرسول ﷺ محمل الصدق المطلق، ويأخذونها مأخذ الحق الذي لا ريب فيه.

ومن الشواهد على هذا الضرب، قوله ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"[3].

فقد جاءت الأخبار متوالية دون مؤكدات؛ ذلك أنّ المؤمنين لم يكونوا على دراية بهذا الفضل العظيم للصيام، واختصاص الله ﷻ به من بين سائر الأعمال والقربات.

أما التأكيد باللام في قوله: (ولخلوف فم الصائم ..) فليس لأنّ الصحابة ﭫ كانوا شاكين في هذه الأخبار، وإنما التأكيد كان ــ فيما يظهر ــ لغرابة الخبر؛ إذ كيف تكون تلك الرائحة الكريهة التي يأنفها الناس زكية كالمسك عند رب العالمين، وقد أشار بعض الباحثين إلى أنّ التأكيد قد يساق لغرابة الخبر[4].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾: ٧٥٦٣.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٢.

(٤) ينظر: خصائص التراكيب: ٩٨.

- الضرب الطلبي:

عندما يتردد المخاطب في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر نأتي في الخبر بمؤكد واحد استحسانًا؛ لإزالة تردده وتحيره.

وثمة ملمح لطيف هنا، فقد نأتي بالتأكيد وإن كان على وفق اعتقاد المخاطب، لكن لوجود بعض التردد في نفس المتكلم يلجأ إلى التأكيد؛ ليزيل هذا التردد، يقول أبو موسى: ((وقد لحظ البلاغيون أنّ وجود التردد في النفْس يقتضي هذا الضرب من الصياغة المؤكدة، ولو كان الخبر على وفق ظن المخاطب، فأنت تقول: إنّه صواب للمتردد الذي يميل إلى أنّه صواب، وليس فقط للمتردد الذي يظن أنّه ليس بصواب، وسبب التأكيد بالنسبة إلى الثاني ظاهر، أما بالنسبة إلى الأول، فإنّه لوحظ أنّ النفْس حين تتردد تصير في حاجة إلى توكيد، وهذا ملحظ نفسي دقيق))[(١)].

ومن شواهد هذا الضرب قوله ﷺ: "فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[(٢)].

هذا الحديث يتضمن أمرًا نبويًّا كريمًا للمؤمنين بأن يسألوا الله الفردوس الأعلى، فكأنّ سؤالاً مشوبًا بشوق عظيم إلى معرفة جوابه بدا على الوجوه حين سماع هذا الأمر، و لم نسأله الفردوس؟ فجاء الجواب مؤكَّدًا سبب ذلك، فيه تلبية لرغبة النفوس واستشرافهم لمرامي ذلك الأمر.

وفي خبر آخر يحل النبي ﷺ إشكالاً حصل بين صحابيين كريمين، فقد روى البخاري عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أنه قَال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: كَذَبْتَ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ

---

(١) خصائص التراكيب: ٨٠.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٣.

عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا، فَقَالَ: "أَرْسِلْهُ اقْرَأْ يَا هِشَامُ"، فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ" ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اقْرَأْ يَا عُمَرُ"، فَقَرَأْتُ الَّتِي أَقْرَأَنِي فَقَالَ: "كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ"[1].

لقد جاء البيان النبوي بالخبر (إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف) مؤكّدًا، مزيلاً الحيرة التي ألّمت بعمر بن الخطاب ﷺ، وذلك حين أقرَّ الرسول ﷺ هشام بن حكيم ﷺ على قراءته التي لم يسمعها عمر ﷺ من قبل، فأراد الرسول ﷺ أن يقطع دابر الحيرة والتردد ، فجاء مؤكّدًا الخبر (إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف). كما أنّ قول الرسول ﷺ لكل من عمر وهشام ﷺ بعد قراءهما: (كذلك أنزلت) استشكل على عمر ﷺ فكأنّه أراد أن يسأل، وكيف يكون ذلك؟ فجاء الجواب المبين.

وعندما سأل أناس النبي ﷺ عن الكهان قال: "إنّهُم لَيْسُوا بشَيء"، فقالوا: يا رسول الله، فإهم يحدثون بالشيء يكون حقًّا؟ فقال النبي ﷺ: "تِلْكَ الكَلمَةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُها الجنّي، فَيُقرْقِرُها في أُذنِ وَلِيِّه كقَرْقَرَة الدَّجاجَة، فيَخْلِطُونَ فِيْه أَكْثَرَ مِنْ مِائةِ كَذْبَة"[2].

لما كان السائلون قد بلغ بهم الشك والتردد مبلغه في تصديق خبر الكهان، جاء البيان النبوي بالخبر مؤكّدًا بـــ(إنّ/الباء)؛ ليزيل ما علق في قلوبهم من الشك ونحوه.

- الضرب الإنكاري:

يتوجب التوكيد في الأخبار إذا ما كان المخاطب منكِرًا، والتوكيد في هذا يختلف كثرةً و قلّةً بحسب اختلاف إنكار المخاطب قوةً وضعفًا، "فإن كان إنكاره غير مستحكم في نفسه أكِّد بمؤكَّد واحد، وإن كان مستحكمًا تضاعفت عناصر التوكيد بمقدار تصاعد

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾: ٧٥٥٠.

(٢) باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواقم وتلاوقم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦١.

حالة الإنكار؛ لأنّ وظيفة الخبر حينئذ هي تثبيت هذا المعنى في تلك النفس الرافضة له، فلا مفر من أن تكون قوة العبارة ووثاقتها ملائمة لحال النفس قادرة على الإقناع))[1].

يقول عبد القاهر في حديثه عن (إنّ): ((وأما جعلها إذا جمع بينها وبين (اللام) نحو: إنّ عبدالله لقائم للكلام مع المنكِر فجيد؛ لأنّه إذا كان الكلام مع المنكِر كانت الحاجة إلى التأكيد أشد، وذلك أحوج ما تكون إلى الزيادة في تثبيت خبرك إذا كان هناك من يدفعه وينكر صحته))[2].

ففي تفضيل سورة الإخلاص يروي البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ أَنَّ رَجُلاً سَمِعَ رَجُلاً يَقْرَأُ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ"[3].

لّما كانت حال الرجل المنكر لترداد صاحبه هذه السورة العظيمة هكذا، جاء البيان بمؤكِّدات متوالية: القسم، و(إنّ)، واللام؛ تبيانًا لذلك الرجل وللناس عامة رفعة شأن هذه السورة، وعلو منزلتها. فهي ((السورة المشتملة على توحيد الأسماء والصفات))[4].

ومن ضروب التوكيد ما لا يلتفت فيها إلى حال المخاطب، وإنما يلتفت فيها إلى حال المتكلم نفسه، وبيان مدى انفعاله بها وتمكنها وتقررها في نفسه[5].

وخير شاهد على هذا الضرب قوله ﷺ: "قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ: فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوه، وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ..."[6].

---

(١) خصائص التراكيب: ٨١.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٢٧.

(٣)باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٤.

(٤) تفسير السعدي: ٩٣٧.

(٥) ينظر: خصائص التراكيب: ٩١.

(٦)باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠٦.

تأمل الحشد الهائل للمؤكدات في قوله: (فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين)، لقد أراد الرسول ﷺ أن يبين كيف كان هذا الحكم متقررًا في نفس الرجل؛ لذا جاء بهذا الخبر مؤكَّدًا بالقسم، واللام، ونون التوكيد الثقيلة، بل وكيف كان الرجل حريصًا على تقرير هذا الحكم لدى الآخرين كما استقر في نفسه.

وقد يجري الكلام على خلاف مقتضى الظاهر؛ بأن يقتضي المقام للمتكلم أن يحمل المخاطب على غير حاله الحقيقية؛ وذلك لأسرار بلاغية، ولطائف بيانية، يلتفت إليها المتكلم، ويعيها البصير بدقائق اللغة، حيث إنّ ((سلوك هذه الطريقة فيها دقة وغموض))[1].

فخالي الذهن قد ينزَّل منزلة الشاكِّ المتردد، فعن أبي موسى ﷺ قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ: "ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا..."[2].

فالصحابة ﷺ حاشاهم أن يكونوا شاكين ومترددين في سمع الله ﷻ وبصره وقربه، ولكن لما رأى النبي ﷺ ما هم عليه من رفع الأصوات والجهر بالتكبير نزَّلهم منزلة من يشك في قدرة الله ﷻ على السمع والبصر والقرب، فجاء الخبر مؤكَّدًا بـــ(إنّ)؛ تقويةً لهذا المعنى، وتثبيتًا له في نفوسهم.

ومن ضروب إجراء الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، تنزيل المنكِر منزلة غير المنكِر؛ وذلك لعدم الاعتداد بإنكاره، لأنه لو تأمل وفكّر وقدّر لارتدع عن إنكاره وتكذيبه، حيث يجيء الكلام للمنكِر كما يساق ((إلى النفس الخالية من الإنكار، وهذا مثل سابقه فن دقيق، لا يهتدي لمسالكه إلا بصير بسياسة الكلام، ثم إنّ له أثره الغالب في النفس حين تجد الذي يواجه الرفض والجحود خاليًا من الاحتفال والتوكيد، هامسًا بالحقيقة في غير جلجلة ولا ضجيج))[3].

---

(١) الإيضاح: ٣٠.

(٢)باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾: ٧٣٨٦.

(٣) خصائص التراكيب: ٨٧.

ومن شواهد هذا الضرب قوله ﷺ: "مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلا اللَّهُ، لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلا اللَّهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا اللَّهُ"[1].

فالرسول ﷺ ساق هذه الأخبار خالية من التوكيد، غير معتد بإنكار الجاحدين والمكذبين، وهذا مما يزيد هذه الأخبار تمكنًا في النفس واستقرارًا فيها، إذ هي بمثابة الأمور الثابتة التي لا نقاش فيها ولا جدال.

وقد ينزل غير المنكِر منزلة المنكِر إذا بدت عليه شيء من أمارات الإنكار، حيث يخاطب بأسلوب التوكيد في أمر يقرُّه ولا ينكره، شاهد هذا ما جاء عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه من أنّه أتى النَّبِيَّ ﷺ مَالٌ، فَأَعْطَى قَوْمًا وَمَنَعَ آخَرِينَ، فَبَلَغَهُ أَنَّهُمْ عَتَبُوا، فَقَالَ: "إِنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الَّذِي أُعْطِي..."[2].

فلا يشك مؤمن في كون الصحابة رضي الله عنهم على علم بما يكنُّه قلب الرسول ﷺ لهم من محبة وتقدير، غير أنّ هذا العتب منهم جعله ينزِّلهم منزلة المنكرين لهذه المحبة، مما ألجأه إلى تأكيد محبته لهم، بـــ(إنّ). ومما يرجح هذا أنّ الخبر قد جاء في رواية أخرى للبخاري بثلاث مؤكّدات: "فَوَاللهِ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ ..."[3].

- الإنشاء: أنواعه، وأسراره البلاغية:

قسَم البلاغيون الإنشاء قسمين:

١) الإنشاء الطلبي: وهو ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب[4].

٢) الإنشاء غير الطلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوبًا.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾: ٧٣٧٩.

(٢)باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴾: ٧٥٣٥.

(٣) رواه البخاري: كتاب الجمعة، باب من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد: ٩٢٣.

(٤) ينظر: المفتاح: ٤١٤.

وهذا الأخير لم يكن داخلاً في فلك اهتمام البلاغيين؛ لأنّ أكثر صيغه إنّما هي في الأصل أخبار نقلت إلى الإنشاء[1]، كما أنّه خالٍ من المعاني الثواني؛ فالقَسَم هو القَسَم، والتعجب هو التعجب، غير أنّ بعضها لا يخلو من ((مواقع متفننة وفاعلة في النفس فعل أقوى الأساليب وأدخلها في بحث البلاغة، ولكن هذا داخل في الباب العام، وهو دقة المطابقة وما وراءها من لطف الاعتبار، وخفي الملاحظة))[2]. أما الإنشاء الطلبي فأساليبه غنية بالمعاني الكثيرة المتنوعة ذات التأثير البالغ كما سيأتي.

وهذا القسم – أعني الإنشاء غير الطلبي- له أساليب متعددة منها: المدح والذم، وصيغ العقود، والتعجب، والترجي، والقسم وغيرها.

وقد وردت بعض الشواهد على هذا القسم، فمن ذلك قول الرسول ﷺ في خطبة الوداع: "أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلا لِيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ"[3].

ففي هذا الحديث المليء بالوصايا المهمّة، يؤثر البيان النبوي لفظ الرجاء على غيره كالتمني مثلاً، فيقول: (فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه)، وفيه إشعار باستجابة الصحابة ﷺ لهذا الطلب النبوي، وتنفيذهم له؛ لأن الترجي يكون في الأمر القريب الحصول المتوقع[4].

ومن أساليب الإنشاء غير الطلبي الواردة في كتاب التوحيد أسلوب القسم، ففي آخر حديث الشفاعة يقول ﷺ: "..قَالَ: ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ"[5].

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة: ٧٢.

(٢) دلالات التراكيب: ١٩٧.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

(٤) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: ١/٤٤٦.

(٥) باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: ٧٥١٠.

الله ﷻ أصدق القائلين ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ {النساء: ١٢٢}، ولا يقسم إلا بعظيم، في خاتمة هذا الحديث قسم عظيم، حيث أقسم الله ﷻ بعزته وجلاله وكبريائه وعظمته بأن يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، لقد جاء هذا القسم تطمينًا، وتلبية لرغبة النبي الرؤوف الرحيم ﷺ الذي تردد على دار سيده ومولاه أربع مرات؛ مستشفعًا لأمته، كما يجيء هذا النص بردًا وسلامًا على قلوب الموحدين، حيث لا خلود في النار. يفتح هذا القسم باب الرجاء في عفو الله ورحمته؛ ليلجه المقصرون، ويدلف إليه المعرضون.

أمّا الإنشاء الطلبي، وأنواعه الخمسة: الأمر، والنهي، والتمني، والنداء، والاستفهام، فقد عني البلاغيون به كثيرًا، ودافعهم في ذلك ((أنّه كثير الاعتبارات، وتتوارد عليه المعاني التي تجعله من الأساليب الغنيّة ذات التأثير والعطاء))(١). وفي الصفحات القادمة سيكون التفصيل والإيضاح لما أجمل هنا.

١) أسلوب التمنّي:

يعرّف البلاغيون التمنّي بأنه ((طلب الشيء المحبوب الذي لا طمع فيه؛ لاستحالة الحصول عليه، أو بعد مناله))(٢).

وأسلوب التمنيّ له علاقة وثيقة بالحالة النفسية للمتمنّي، حيث إنّ المعاني التي ترد في باب التمنيّ ((ذات طبيعة خاصة، فهي من المعاني التي تتعلق بها القلوب وتشتاقها، سواءً أكانت بعيدة أم مستحيلة، ثم إنّ البعد فيها ربما لا يكون بعدًا بالنسبة للواقع أو العرف أو العقل، وإنّما هو بعد من حيث إحساس النفْس به))(٣).

والأداة الموضوعة للتمنّي (ليت)، وإذا كانت أدوات الأمر والنهي والاستفهام تخرج عن معانيها الأصلية، وتستعمل في معانٍ أخرى فإنّ الأمر في التمنّي مختلف، حيث تكلّم البلاغيون عن إفادة التمنّي بغير أداته الأساسية (ليت)، ولم يتكلّموا عن إفادة (ليت)

---

(١) دلالات التراكيب: ١٩٧.

(٢) المطول: ٤٠٧.

(٣) دلالات التراكيب: ١٩٩.

معنى غير التمنّي، إلا ما كان من استعمالها في الترجي لغرض بلاغي؛ كأن يكون المطلوب قريبًا لكنه صعب المنال، ورجع بعض الباحثين ذلك إلى ((عراقتها في التمنّي، وأنّها لم تتخلص منه، ولم تجر في غير هذا المعنى القلبي الحميم))[1].

والأدوات التي ذكر البلاغيون استعمالها في باب التمنّي لنكت بلاغية هي: (هل/ لو/ لعلّ)[2].

ولم يرد سوى شاهد واحد للتمنّي، وهو ما جاء في حديث الشفاعة، قال ﷺ: "يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُهِمُّوا بِذَلِكَ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ.."[3].

فـــ(لو) هنا مستعملة في التمنّي[4]، والسر في التعبير بها أنّها تزيد المُتمنّى بعدًا، فلشدة الهول الذي غشاهم، تمكّن اليأس من قلوبهم، فأصبح أمر الشفاعة في نفوسهم بعيد المنال، صعب التحقق. وإنما كان المتمنى بـــ(لو) عزيزًا بعيد المنال ((لأنها وضعت في حقيقتها لتدل على امتناع الشيء، ومن هنا كانت حرف امتناع لامتناع))[5].

٢) أسلوب الاستفهام:

الاستفهام مأخوذ من الفهم، يقال: فهمت الشيء: علمته، وعرفته، وعقلته[6]. والهمزة والسين والتاء تفيد الطلب، فالمراد: طلب الفهم.

وفي الاصطلاح هو ((طلب حصول صورة الشيء في الذهن))[1]، ويكون ذلك عن طريق أدوات مخصوصة، هي ((الهمزة، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيّان))[2].

---

(١) دلالات التراكيب: ٢٠٤.

(٢) ينظر: الإيضاح: ١٤٧.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٠.

(٤) ينظر: عمدة القاري: ١٩٦/٢٥.

(٥) ينظر: البلاغة فنونها وافنانها: علم المعاني: ١٦٤.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٣٤٢/١٠. (فهم).

وإذا كان غاية الاستفهام طلب العلم بالشيء، فإنّ دلالة هذا الأسلوب لا تقف عند مدلوله الأصلي، بل إنّها تتجاوزه إلى معانٍ أخرى يقصدها المتكلم، تشع من بين جنبات سؤاله، يساعد على إدراكها السياق. سمّاها بعض الباحثين الدلالات المجازية، وحدّها عنده ((أن يكون المستفهم ليس في حاجة إلى فهم شيء من المخاطب بالاستفهام، بل هو ينشئ معاني يقتضيها المقام، قاصدًا إلى إعلام المخاطب بها لا أن يستفهم هو من المخاطب عن شيء))(٣).

لكنّ عددًا من الدارسين لم يطمئنّوا إلى هذه التسمية (الدلالات المجازية)، ولم يرتضوا هذا الإطلاق، وذلك لبقاء الاستفهام قويًّا وراء كل معنى من هذه المعاني، وإنّما كان هذا من السيد الشريف ومن جاراه، وتكلفوا فيها أشد التكلف، ثم إنّ الاستفهام قد يفيد معاني متعددة في نص واحد، فإذا ادعينا أنّ الأداة مجاز في إحدى هذه المعاني فما موقفنا من غيرها؟(٤).

وفي رأي الباحث أنّ لأسلوب الاستفهام معاني يرشد إليها السياق بمعونة القرائن مع بقاء الدلالة الأصلية للاستفهام، وإن كان متواريًا خلف المعاني الأخرى لكنه لا يتلاشى. ثم إنّه من غير الممكن حصر هذه المعاني؛ إذ ما تفيده أداة الاستفهام من معاني((أرحب وأدق من أن نحدده تحديدًا تامًّا، وأنّ المعاني التي يشير إليها هي بطبيعتها خفيّة وهاربة لا تستطيع وصفها بإحاطة وسيطرة))(٥).

وقد رود الاستفهام بقسميه: المعنى الأصلي، والمعنى المستفاد من السياق في أحاديث الرسول ﷺ، فقد أشار أحد الدارسين إلى ((أنّ كثيرًا من نصوص الاستفهام الواردة عن رسول الله ﷺ في الصحيحين مراد بها طلب الفهم، ومعرفة الشيء، وتمثل هذه

(١) المطول: ٤٠٩.

(٢) الإيضاح: ١٤٨.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: ٤.

(٤) ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: ٣٠٠، ودلالات التراكيب: ٢١٩، علم المعاني: ٣٩٤.

(٥) دلالات التراكيب: ٢٢١.

الأحاديث نسبة كبيرة تكاد تصل إلى حد النصف من شواهد الاستفهام في كلامه ﷺ، والنصف الآخر منها جاء للدلالة على معاني الاستفهام البلاغية))[1].

وفي المادة المدروسة جاء الاستفهام بضربيه، لكنّ الشواهد كانت في الغالب للدلالة على المعاني البلاغية للاستفهام.

فمن شواهد الضرب الأول، سؤال النبي ﷺ لرجل: "أَمَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ شَيْءٌ؟"، قَالَ: نَعَمْ سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا لِسُوَرٍ سَمَّاهَا.

نص الحديث هنا واضح الدلالة على أنّ النبي ﷺ يطلب شيئًا لم يكن معلومًا عنده من قبل، فهو يريد أن يزوجه المرأة كما في الرواية الأخرى[2] بمقابل وإن كان شيئًا من القرآن.

وأما المعاني التي يفيدها أسلوب الاستفهام من السياق فمتنوعة؛ منها: التقرير، من ذلك ما جاء في حديث الرسول ﷺ حول جسر جهنم، "وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ السَّعْدَانَ؟"، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ..."[3].

اقتضت بلاغة الرسول ﷺ أن يشبه لأصحابه بعض صور ذلك المشهد المفزع بأشياء من بيئة الصحب الكرام ﷺ؛ ليستحضروا الصورة أبلغ استحضار، حيث شبه الكلاليب بشوك السعدان[4]، والرسول ﷺ يدرك أن الصحابة لا يجهلون نبات السعدان،لكنه أراد من الاستفهام تقرير هذه الصورة وتثبيتها في فهومهم. وهذا المعنى

---

(١) الاستفهام في الصحيحين: خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية: ٢٨٨.

(٢) رواه البخاري: كتاب النكاح، باب تزويج المعسر: ٥٠٨٧.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٤) السعدان: نبت ذو شوك، من أطيب مراعي الإبل. ينظر: لسان العرب: ٢٦٤/٦ (سعد). وجاء في المثل: مرعى ولا كالسعدان. ينظر: مجمع الأمثال للميداني: ٢٧٥/٢.

(التقرير) حين يجيء في صورة الاستفهام فيه تنبيه للمخاطب، وحث له على تدبر الأمر وتأمله[1].

ويأتي التقرير لحمل المخاطب على الإقرار بالفعل، كما في قوله ﷺ: "يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنْ رَبِّهِ حَتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: أَعَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَيَقُولُ: عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَرِّرُهُ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ"[2].

قوله (أعملت كذا وكذا؟) استفهام يبعث على الرهبة، ويشي بدقة المراقبة، يقف العبد المحمّل بالأوزار بين يدي الرحيم الغفار؛ ليقرره بذنوبه التي عملها ونسيها أو تناساها، فالاستفهام هنا جاء لحمل المخاطب على الاعتراف بما اقترفته يداه، وأنّى له أن ينكر؟ وفي هذا الحديث بيان عظيم امتنان الله ﷻ على عباده المسيئين المقصرين. ومن مظاهر عظمة رحمة الرب أنه قال: (يضع كنفه عليه) أي: ستره[3]. فالمعنى أنّ الله ﷻ ((يستر عبده عن رؤية الخلق له لئلا يفتضح أمامهم فيخزى، لأنه حين السؤال والتقرير بذنوبه تتغير حاله، ويظهر على وجهه الخوف الشديد، ويتبين فيه الكرب والشدة))[4].

ومن المعاني التي يفيدها الاستفهام الحث والتحريض على الفعل، يُلحظ هذا في مثل قوله ﷺ: "يَا آدَمُ أَمَا تَرَى النَّاسَ؟ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا.."[5].

لجأ المؤمنون إلى آدم ﷺ راغبين إليه أن يشفع لهم عند ربهم؛ لعلمهم بما خصه الله ﷻ بفضله، وفي قولهم: (أما ترى الناس؟) حث وتحريض على الشفاعة، سالكين طريق الاستفهام لإثارة الانتباه.

---

(١) ينظر: علم المعاني: ٤٠٢.

(٢)باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم.: ٧٥١٤.

(٣) ينظر: خلق أفعال العباد: ١٧٣/٢.

(٤) ينظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان: ٤٢٢/٢.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: ٧٤١٠.

ويتجلى هذا المعنى أيضًا في قوله ﷺ: "يتنزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي؟ فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي؟ فَأَغْفِرَ لَهُ"[1].

غاية الكرم ومنتهى الجود أن يهب مالك الملك عبيده على تقصيرهم وإعراضهم ما يريدون مقابل عمل يسير. لقد جاءت الاستفهامات المتتالية: (من يدعوني؟، من يسألني؟، من يستغفرني؟) مفيدة الحض والحث على القيام بين يدي الله ﷻ في هذا الوقت الشريف، فهو وقت ((غفلة، وخلوة، واستغراق في النوم، واستلذاذ له، ومفارقة اللذة والدعة صعب، ولا سيما أهل الرفاهية، وفي زمن البرد، وكذا أهل التعب ولا سيما في قصر الليل، فمن آثر القيام لمناجاة ربه والتضرع إليه مع ذلك دل على خلوص نيته، وصحة رغبته فيما عند ربه، فلذلك نبّه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا وعلقها؛ ليستشعر العبد الجد والإخلاص لربه))[2].

ومن المعاني البلاغية للاستفهام: التعجب، وذلك كما جاء في حديث تفضيل هذه الأمة على غيرها، يقول ﷺ: "إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُمْ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ: رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَقَلُّ عَمَلاً وَأَكْثَرُ أَجْرًا؟ قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، قَالُوا: لا، فَقَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ"[3].

هذا الحديث فيه ((تفضيل هذه الأمة، وتوفير أجرها مع قلة عملها؛ وإنما فضلت لقوة يقينها، ومراعاة أصل دينها))[4]. لقد جاء هذا الأمر مثار تعجب أهل الكتاب إذ كيف تعطى أمة محمد ﷺ قيراطين قيراطين، وهم أقل عملاً، فقد عمل اليهود من أول

---

(١)باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾:٧٤٩٤.

(٢) فتح الباري: ١٤/٣٣٠.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾: ٧٤٦٧.

(٤) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ٦/٢١٣.

النهار إلى الظهر، والنصارى من الظهر إلى العصر، والمسلمون من العصر إلى المغرب[1]، لذلك استفهموا: (هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجرًا؟)، ولا شك في أنّ معنى الاستفهام المراد هنا هو التعجب.

ومن شواهد معنى التعجب في أسلوب الاستفهام، ما جاء في محاورة الله ﷻ لأهل الجنة، يقول ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبِّ؟ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"[2].

لما رأى أهل الجنة النعيم المقيم رأي عين وباشروه بأنفسهم، لم يتصوروا أنّ ثمة نعيم أعظم من هذا النعيم وإكرامًا أجلّ منه، لذلك قالوا: (وما لنا لا نرضى يا رب؟) كيف لا نرضى وقد أورثتنا الجنة حيث ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ثم يزداد عجبهم عندما يخبرهم الله ﷻ بوجود شيء أعظم وأفضل مما ظفروا به، فيستفهمون متعجبين وكأنهم قد بلغوا الغاية في النعيم: (وأي شيء أفضل من ذلك؟).

كما يفيد الاستفهام في هذا الحديث معنى آخر هو الإكرام، فالله ﷻ حين يحاور أهل الجنة ويسألهم إنما هو من بابة الإكرام لهم، وأي إكرام أبلغ من كلام الرب مع عبده؟

ومن المعاني أيضًا: النفي، كما في قوله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ شَعِيرَةً"[3].

فالرسول ﷺ يذكر في هذا الحديث العقوبة الشديدة التي تنتظر الذين ذهبوا إلى مضاهاة خلق الله ﷻ، وجاء الاستفهام (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟) ليفيد معنى النفي؛ أي ((لا أحد أظلم ممن قصد حال كونه يخلق، أي: يصنع ويقدر كخلقي))[4].

---

(١) ينظر: شرح كتاب التوحيد للغنيمان: ٢٦٣/٢.

(٢) باب كلام الرب ﷻ مع أهل الجنة: ٧٥١٨.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾: ٧٥٥٩.

(٤) عمدة القاري: ١١١/٢٢.

ومن المعاني البلاغية للاستفهام: الإنكار، من ذلك ما رواه البخاري من أنّ سعد ابن عبادة ﷺ قال: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلاً مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ وَاللَّهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ، وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمِدْحَةُ مِنْ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْجَنَّةَ"[١].

أراد رسول الله ﷺ أن يبين قوة غيرته، وكذا غيرة الله ﷻ، فاستغل إعجاب الصحابة، وإكبارهم لغيرة سعد بن عبادة ﷺ فقال منكرًا[٢]: (تعجبون من غيرة سعد؟)، ولا يخفى على المتدبر مزية هذا الأسلوب في استثارة الانتباه، واستجلاب الأذهان، فهو أبلغ من قوله مثلاً: (أنا أغير منه) مجردة، إذا كنتم أكبرتم غيرة سعد فأنا أغير منه، والله أغير منّي.

وتحسن الإشارة إلى ما قرره عبدالقاهر في المعنى اللطيف للإنكار، حيث يقول: ((واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإنّ الذي هو محض المعنى أنه لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه. فإذا ثبت على دعواه قيل: فافعل فيفضحه ذلك. وإما لأنه هم بفعل ما لا يُستصوَب فعله فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ. وإما لأنه جوّز وجوْدَ أمرٍ لا يوجد مثله فإذا ثبت على تجويزه قبّح على نفسه وقيل له: فأرناه في موضع وفي حال. وأقم شاهداً على أنه كان في وقت))[٣].

ومن المعاني البلاغية للاستفهام: التحقير، شاهد ذلك قوله ﷺ: "يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟"[٤].

---

(١) باب قول النبي ﷺ "لا شخص أغير من الله": ٧٤١٦.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٢٩١/٢٠.

(٣) دلائل الإعجاز: ١١٩.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾:٧٣٨٢.

يكشف هذا الحديث بعضًا من أهوال ذلك اليوم العظيم، حيث قبْض الله للأرض، وطيّه للسماوات بيمينه، وهاتان آيتان من آيات ملكوت الله ﷻ. في ذلك اليوم يقول الله ﷻ: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ {غافر: ١٦}، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1] {غافر: ١٦}، لا ملك سوى ملكه، الناس كلهم سواء؛ الملوك والعامة، الأغنياء والفقراء، لا فرق بينهم إلا بالعمل. في ذلك اليوم ينادي سبحانه: (أين ملوك الأرض؟) وفي هذا الاستفهام دلالة على التحقير، فكأنه يقول: أين سلطانكم؟ أين جاهكم؟ أين أموالكم؟ كل ذلك إلى اضمحلال وزوال، فكيف تسمونه ملكًا؟!

ونختم الحديث عن المعاني التي يفيدها الاستفهام بمعنى الشوق والرغبة، وقد ورد في قوله ﷺ: "لا يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ تَقُولُ: قَدْ قَدْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلا تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ، حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ"[2].

جاء الاستفهام (هل من مزيد؟) مطابقًا للآية الكريمة: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ {ق: ٣٠}، وقد ذكر أبو حيّان أنّ المراد بالاستفهام "الرغبة في الزيادة والاستكثار من الداخلين"[3]، وهذا فيه دلالة على أنّ المخلوقات مشوقة إلى الإيفاء بما خلقت له، بالإضافة إلى إظهار الامتثال التام لما خلقها الله لأجله[4].

وقد يأتي الاستفهام مفيدًا لمعانٍ متعددة، وممن أشار إلى ذلك عبد القاهر، حيث قال معلّقًا على الهمزة في قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا ﴾ {الأنبياء: ٦٢}: "واعلم

---

(١) زبدة التفسير: ٤٦٩.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾: ٧٣٨٤.

(٣) تفسير البحر المحيط: ١٢٦/٨.

(٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٣١٨/٢٦.

أنّ الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لِمَ كان، وتوبيخ لفاعله عليه))[1]. فعبد القاهر يعدد ثلاثة معانٍ للاستفهام في هذه الآية.

وقد أتى شاهد على هذا النحو، فمن ذلك ما أخبر به علي ﷺ من أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَالَ لَهُمْ: "أَلا تُصَلُّونَ؟"[2].

يمدّنا الاستفهام في قوله: (ألا تصلون؟) بدلالات متنوعة، ففيه حث وتحريض على قيام الليل، واغتنام الأوقات الفاضلة فيه، كما أنّ فيه إنكارًا عليهما ترك هذا العمل الفاضل، كما نلمح فيه أيضًا تعجبًا من حالهما، إذ كيف يتخلّفا عن قيام الليل وهما من هما.

هذا، وإنّ المعاني التي يفيدها الاستفهام كثيرة، ولا يمكن الإحاطة بها، كما أنّها أحيانًا تبدو واضحة في حدود الجملة التي وقعت فيها الأداة، وفي أحايين أخر لا يبرز ذلك المعنى إلا إذا راجعت السياق كاملاً، متأملاً ما قبل جملة الاستفهام وما بعدها[3].

٣)أسلوب الأمر:

هو نقيض النهي[4]. وعند البلاغيين: طلب الفعل على جهة الإلزام والاستعلاء[5]، وقد ذكر البلاغيون أنّ للأمر صيغًا أربع هي: فعل الأمر، والمصدر النائب عن الفعل، والمضارع المقترن بلام الأمر، واسم فعل الأمر[6].

وسيجري الحديث هاهنا عن صيغ الأمر الواردة، وتتبع المعاني الثواني من خلال التأمل في السياق، الذي تستمد منه الصيغة دلالتها.

---

(١) الدلائل: ١١٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾: ٧٤٦٥.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب: ٢١٩.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٢٠٣/١ (أمر).

(٥) الإيضاح: ١٦٠، والمطول: ٤٢٤.

(٦) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٢٨، والطراز: ١٥٥/٣.

وقد ورد أسلوب الأمر بمعناه الحقيقي، من ذلك ما جاء في وصية الرسول ﷺ لمعاذ حين أرسله إلى اليمن، حيث قال: ".. فإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"(١).

فالنبي ﷺ في النص يأمر معاذًا ﵁ بأن يتجنب أخذ كرائم أموال الناس، وهي نفائسها التي تتعلق بها نفوسهم(٢). فالأمران (خذ/توقّ) وردا على جهة الإلزام.

وشاهد آخر جاء بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر، يأمر فيه ﷺ إحدى بناته بالصبر حين فقدت أحد أبنائها، يحدث أسامة بن زيد فيقول: كنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ..."(٣).

ففي الحديث أمر نبوي كريم بالصبر والمصابرة واحتساب الأجر عند الله لكل من ابتلي بفقد قريب أو حبيب، والأصل في اللام أن تستعمل للغائب، ولكل من كان غير مخاطب(٤).

وفي شاهد آخر تتجلى بلاغة استعمال اللام المقترنة بالمضارع، ففي حديث الحشر، يقول ﷺ: "يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٌ(٥) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..."(٦).

---

(١) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٢.

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٧٩٩.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: ٧٣٧٧.

(٤) ينظر: المقتضب: ٤٣/٢، وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: ١٤٦.

(٥) غبَّرات: أي بقايا من أهل الكتاب، جاء في اللسان: ((غُبْرُ كل شيء: بقيته، وهو الغُبَّرُ أيضًا، والغُبَّرات جمع غُبَّر))، ينظر: لسان العرب: ٧/١٠ مادة (غبر).

(٦) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٩.

الأصل في اللام أنها تكون للغائب، فلم خوطب به أهل المحشر؟ يقال: إنّه للهول الذي يغشى القلوب في ذلك الموقف العظيم، حيث القلوب غير القلوب، والأبصار غير الأبصار، نزَّل البيان النبوي الواقفين في أرض المحشر منزلة الغائب الذي يخاطب بهذه الصيغة.

ويخرج الأمر عن معناه الأصلي إلى معان تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، فمن تلك المعاني الدعاء، وهو طلب على سبيل الخشوع والتضرع، قال: ﷺ: "...اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ"[(١)].

قوله: (فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت) ليس من الأمر بمعناه الحقيقي، وإنما يفيد معنى الدعاء والتضرع إلى الله ﷻ. وفي الحديث إشارة إلى أدب من آداب الدعاء، وهو الثناء على الله ﷻ.

ومن المعاني التي يفيدها الأمر التعجيز، كما جاء في قوله ﷺ: " قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً"[(٢)].

فالأمر في قوله: (فليخلقوا ذرة ...) ((أمر بمعنى التعجيز، وهو على سبيل الترقي في الحقارة أو التنزل في الإلزام))[(٣)]. فالغاية من هذا الأمر بيان عجزهم، والانتقال منه إلى الاعتراف بأنّ الله هو الخالق الواحد جلّ في علاه.

ومن المعاني أيضًا الإكرام، قال ﷺ: "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٩.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾:٧٤٥٩.

(٣) فتح الباري: ٦٢١/١٧.

وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا قَالَ: قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ، أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"(١).

فالأمر الوارد في خاتمة الحديث (فليعمل ما شاء) مستعمل في الإكرام لهذا العبد الذي يعقب الذنب توبة صادقة؛ يندم فيها على ما قدّم، ويعزم على عدم الرجعة إلى مقارفة الذنب مرّة أخرى. قال العيني في قوله: (غفرت لعبدي ثلاثًا، فليعمل ما شاء): ((معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك))(٢). ومعنى الإكرام هنا مفهوم من سياق الحديث، وهذا يؤكد أهمية السياق في إدراك المعاني الثواني، حيث إنّ هذا اللفظ ورد في آية قرآنية غير أنّه استعمل في معنى مناف لمعنى الإكرام، تأمل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ {فصلت: ٤٠}، فالأمر هنا مستعمل في التهديد(٣). فلا بد إذن من ((تأمل السياق؛ لأنّه هو الذي تستمد منه الصيغة دلالتها، فقد ترى التركيب يجري في سياقين، ويفيض بمعنيين متباينين))(٤).

ومما يدخل في معنى الإكرام قوله ﷺ: "يَجْمَعُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا آدَمُ أَمَا تَرَى النَّاسَ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكَم وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَهَا وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ وَلَكِنْ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطَايَاهُ الَّتِي أَصَابَهَا وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا آتَاهُ اللَّهُ التَّوْرَاةَ وَكَلَّمَهُ

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠٧.

(٢) عمدة القاري: ٢٥/٢٤٥.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٩/٣٠٥.

(٤) دلالات التراكيب: ٢٤٩.

تَكْلِيمًا فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ لَهُمْ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَكَلِمَتَهُ وَرُوحَهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ..."[1].

فالأوامر (ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع) من باب الإكرام للرسول ﷺ، ويبدو ذلك جليًّا من خلال انتقال الناس من نبي إلى نبي، وكلٌّ من أولئك الأنبياء عليهم السلام يعتذر عن الشفاعة، حتى ينتهي الأمر عند محمد ﷺ؛ ليختصه الله ﷻ ويكرمه بجعله الشافع المشفَّع دون غيره من الأنبياء عليهم السلام.

كما يفيد هذا النص معنى آخر هو الالتماس، وهو الطلب على سبيل التلطف بدون استعلاء[2]. ففي ذلك المشهد المهول يبحث الناس عن أي سبيل يخلصهم من الكرب الذي غشاهم، فيلتجئون إلى أنبياء الله عليهم السلام يلتمسون منهم الشفاعة عند ربهم، بادئين بآدم عليه السلام (اشفع لنا إلى ربنا) فالأمر هنا ليس على سبيل الاستعلاء واللزوم، وكيف يكون ذلك وهم في غاية العجز والضعف. بالإضافة إلى أنّ آدم عليه السلام أرفع منزلة منهم وأعلى شأنًا.

ومن المعاني التي يفيدها الأمر الإلهاب والتهييج، ويراد به: ((كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه، وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهييج له على الفعل أو الكف لا غير))[3].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: ٧٤١٠.

(٢) ينظر: الإيضاح: ١٦٢.

(٣) الطراز: ٣/٩٣.

ومن شواهد هذا المعنى ما رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ من أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَرْسَلَ إِلَى الأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ وَقَالَ لَهُمْ: "اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ"(١).

فلا يُتصوَر أنّ أولئك الأجلاء الذين آووا رسول الله ﷺ حين طرده الناس، ونصروه إذ خذله قومه، ألا يصبروا على البلاء، بل قد ضربوا في ذلك أروع الأمثلة وأبلغها، ولكن المراد هنا الاستمرار على ذلك الصبر والمداومة عليه، ويؤكد ذلك أيضًا مجيء (حتى) التي تفيد الغاية.

ويأتي التخيير من المعاني التي يفيدها أسلوب الأمر، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فاحتكما إلى رسول الله ﷺ، وقرأ كل منهما عليه قال: " كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَؤوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ"(٢).

فالأمر في الحديث (فاقرؤوا ما تيسر منه) جاء ليفيد معنى التخيير للقراءة بأي من الأحرف السبعة، فكلها وارد عنه ﷺ، وأنّه لا ينبغي الإنكار على أحد قرأ بها، وقد ذكر ابن حجر أنّ فيه ((تطمينًا لعمر لئلا ينكر تصويب الشيئين المختلفين))(٣).

ومن المعاني أيضًا الندب، كما جاء في قوله ﷺ: "إِذَا دَعَوْتُمْ اللَّهَ فَاعْزِمُوا فِي الدُّعَاءِ، وَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي فَإِنَّ اللَّهَ لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ"(٤).

ففي الحديث أمر نبوي كريم على سبيل الندب والاستحباب لمن رفع كفيه إلى ربه داعيًا مبتهلاً أن يعزم مسألته؛ بأن يجدّ فيها، ويجزم بوقوع مطلوبه، محسنًا الظنّ بربه عزّ وجلّ في إجابة مرغوبه(٥)، وهذا من أسباب إجابة الدعاء.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٢.

(٢)باب قوله تعالى: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾: ٧٥٥٠.

(٣) فتح الباري: ١٨٩/١١.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾: ٧٤٦٤.

(٥) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٦١٣، وفتح الباري: ٣٤٨/١٤.

وفي قوله ﷺ: "اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ"[١]. أمر بمعنى الندب لسائر المؤمنين أن يشفعوا لبعضهم البعض، قال ابن حجر: ((في الحديث الحض على الخير بالفعل، وبالتسبب إليه بكل وجه))[٢].

٤)أسلوب النهي:

خلاف الأمر، يقال: نهاه ينهاه نهيًا فانتهى وتناهى: كفّ[٣]، وهو في اصطلاح البلاغيين: ((طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء، والحرف المستعمل له هو (لا) الجازمة في قولك: لا تفعل))[٤].

ومن شواهد ورود النهي على معناه الحقيقي قوله ﷺ: "لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ"[٥].

فهذا نهي صريح عن الحلف بالآباء، وهذا النهي مقتضٍ للتحريم[٦]، وقد بيّن العلماء العلماء السر في النهي عن الحلف بغير الله، فذكروا أنّ ((الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه، والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده))[٧].

ويخرج النهي عن معناه الحقيقي إلى معان أخرى تُدرك من السياق والقرائن، منها التحذير، مثال ذلك: ما ورد في حديث أبي هريرة ﷺ من أنّ أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال ﷺ: "لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾ {البقرة: ١٣٦}"[٨].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾: ٧٤٧٦.

(٢) فتح الباري: ١٣/٥٧٥.

(٣) ينظر: اللسان: ١٤/٣١٢. (نهي)

(٤) المطول: ٤٢٧.

(٥) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٤٠١.

(٦) ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد: ٢/٢٢٧.

(٧) فتح الباري: ١٥/٢٧٤.

(٨) باب ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب الله بالعربية وغيرها: ٧٥٤٢.

فالنهي الوارد في الحديث يتضمن معنى التحذير من التعاطي مع أخبار أهل الكتاب سواء بالتصديق أو التكذيب، قال الخطابي: ((هذا الحديث أصل في وجوب التوقف عما يشكل من الأمور والعلوم، فلا يقضى عليه بجواز أو بطلان، ولا بتحليل ولا تحريم))(١).

٥)أسلوب النداء:

يعرّف البلاغيون النداء بأنه ((طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة))(٢).

وحروف النداء ثمانية: الهمزة، أيْ، آيْ، آ، أيا، هيا، وا، وقد أشار البلاغيون إلى أنّ (يا) هي الأكثر شيوعًا، ولهذا قال بعضهم: إنّها مشتركة في النداء للقريب والبعيد، غير أنّ كثيرًا من العلماء ذهب إلى أنّها وضعت لنداء البعيد، قال الزمخشري: ((و (يا) حرف وضع أصله لنداء البعيد ...ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب؛ تنزيلاً له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأنّ الخطاب الذي يتلوه معني به جدًّا))، ويفسر سبب ابتهال الداعي إلى الله بقوله: يا رب، يا الله بأنه ((استقصار منه لنفسه، واستبعاد لها من مظانّ الزلفى، وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين؛ هضمًا لنفسه، وإقرارًا عليها بالتفريط في جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته، والإذن لندائه وابتهاله))(٣).

وقد يُنزّل القريب منزلة البعيد لأسرار بلاغية، فمن نداء الله ﷻ لأهل الجنّة يقول ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ..."(٤).

فالله ﷻ من صفاته القرب، فهو قريب من عباده حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته(١)، وفي الحديث ينادي أهل الجنّة بـــ(يا) الموضوعة لنداء البعيد، والنكتة هنا هي

(١) أعلام الحديث: ٣/٩٤١.

(٢) عروس الأفراح: ١/٥٦٣.

(٣) الكشاف: ٥٦.

(٤) باب كلام الرب ﷻ مع أهل الجنة: ٧٥١٨.

الإشارة إلى بعد منزلة أهل الجنة عمن سواهم، ورفعة قدرهم، وعظيم شأنهم عند ربهم ﷻ.

وقد ينادى بـــ(يا) القريب؛ وذلك لإثارة انتباه المخاطب، كما جاء في قوله ﷺ: "يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ"[(٢)].

فالرسول ﷺ لم يكن بعيدًا عن عبدالله بن قيس رضي الله عنه ليناديه بـــ(يا) التي وضعت في الأصل لنداء البعيد، وإنّما فعل ذلك من أجل إثارة انتباهه، وجذبه إليه. كما أنا نلمح سرًّا آخر هو بيان أهمية ما ناداه من أجله، فهذا الذكر (لا حول ولا قوة إلا الله) ذكر عظيم استحق هذا التنبيه.

وقريب من هذا السر، منادة القريب بهذه الأداة لاستدعاء الانتباه، بالإضافة إلى الإشعار بأنّ ما سيقال أمر بالغ الأهمية، كما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه من أنّ النبي ﷺ قال له: "يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ"[(٣)].

كما يُلمح معنى التشويق في البدء بالنداء، تشويق إلى الخبر الذي سيلقيه عليه. فالرسول ﷺ في هذا الحديث ((رسم لنا كيفية إثارة الانتباه، وإعداد المخاطب، وتهيئته نفسيًّا وذهنيًّا، وتشويقه بفتح عقله وقلبه معًا لتلقي الحقائق و المعلومات))[(٤)].

ولحذف حرف النداء نكت بيانية، يقول ﷺ: "إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْ النَّارِ، رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْوًا، فَيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ الْجَنَّةُ مَلأَى، فَيَقُولُ لَهُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ يُعِيدُ عَلَيْهِ: الْجَنَّةُ مَلأَى فَيَقُولُ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مِرَارٍ"[(٥)].

---

(١) صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة: ١٠٥.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾: ٧٣٨٦.

(٣) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٣.

(٤) من روائع الأدب النبوي: ١٢٠.

(٥) باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم.: ٧٥١١.

ما أوسع رحمتك يا الله! وما أعظم فضلك! فهذا عطاؤك لآخر أهل الجنة دخولاً الجنّة! فكيف بالسابقين المقربين؟

تدبر قوله: (رب الجنّة ملأى) حيث حذف حرف النداء هنا، والسر - فيما يبدو- إحساس ذلك الرجل بقربه من ربه ﷻ، وقوة رغبته في الولوج إلى رحمة الله، واشتياقه الشديد إلى النعيم المقيم، فهو قد لاقى من النكال والجحيم ما لاقى.

ويجيء النداء لأغراض أخرى تفهم من السياق وقرائن الأحوال، حيث تضفي الجمل وإيحاءاتها على أداة النداء ((شفافية مستمدة من هذا المعنى، فتتلون الأداة، وتظهر الوجه البلاغي من دعاء، وإغراء، وزجر، واستغاثة، وما سوى ذلك))[(١)].

ومن شواهد خروج النداء عن معناه الأصلي ما جاء في حديث العرش، قال ﷺ: "وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا..."[(٢)].

لقد جاءت جملت النداء (أي رب ..) متضمنة معنى الدعاء، فهو يبتهل إلى الله ﷻ أن يباعده عن الجحيم مؤثرًا في ذلك (أيْ) التي وضعت لنداء القريب؛ لاستشعاره قرب خالقه ﷻ منه.

ومن المعاني إظهار التحسر والندم، كما في قوله ﷺ: "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ، وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي..."[(٣)].

(رب أذنبت) نداء مليء بالحسرة والندم، وفي حذف حرف النداء إشارة إلى سرعة الأوبة والرجوع إلى الله، فليس لديه متسع وقت لإطالة الكلام، إنها سمة المتقين الصادقين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

(١) النداء في اللغة والقرآن: ١٦٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠٧.

{الأعراف: ٢٠١}، كما أنه يوحي إلى شعور التائبين المنكسرين العائدين إلى هدى ربهم ونوره قربَ الله ﷻ منهم.

وقد يحمل النداء على معنى الاختصاص، شاهد ذلك: ما جاء في حديث التحيات: "التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.."[(١)].

والمقصود بالاختصاص في باب النداء: ذكر اسم ظاهر بعد ضمير يقصد به الاختصاص لا النداء؛ لأجل بيانه ونعته[(٢)].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾: ٧٣٨١.

(٢) ينظر: جمالية الخبر والإنشاء: ٢١١.

- المبحث الثاني: التقديم والتأخير:

يعد باب التقديم والتأخير من أعمدة علم المعاني، كما أنّ هذا الأسلوب يسمح بمخالفة سمت الكلام، وتغيير مراتبه، حيث يشكل مظهرًا من مظاهر مرونة اللغة وطواعيتها، ولا يعني هذا بحال أن يكون الكلام فوضى؛ فمع كون مواقع الكلمات في الجملة عظيمة المرونة لكنها ((شديدة الحساسية، وأي تغيير فيها يحدث تغييرات جوهرية في تشكيل المعاني وأحوالها وصورها وظلالها))[1]. إذن فالتقديم في الكلام والتأخير فيه إنما يكون لدواعٍ بلاغية.

وقد عرَّف أحد الباحثين هذا الأسلوب بأنه ((تبادل يقع بين مواقع الكلمات، بحيث تترك الكلمة موضعها في المقدمة؛ لتحلَّ كلمة أخرى موضعها؛ وذلك لتؤدي غرضًا بلاغيًّا ما كانت لتؤديه لو أنّها بقيت في مكانها الذي اقتضته قاعدة الضبط اللغوي))[2].

وقد عني البلاغيون بهذا الأسلوب عناية فائقة، فهذا عبدالقاهر يوضح هذا الباب في العربية، فيؤكد بأنه ((باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحُوِّل اللفظ من مكان إلى مكان))[3].

ويواصل عبدالقاهر الكشف عن القيمة البلاغية لهذا الأسلوب ، فيقول: ((وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: (إنّه قدم للعناية، ولأنّ ذكره أهم) من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟ ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه))[4].

وفي أحاديث الدراسة جاء التقديم لمعانٍ متنوعة، يكشفها التأمل في الشواهد التالية.

---

(١) دلالات التراكيب: ١٧٦.

(٢) بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ١٠٨.

(٣) دلائل الإعجاز: ١٠٦.

(٤) دلائل الإعجاز: ١٠٨.

والبدء سيكون من تقديم المتعلقات، فمن ذلك قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ"(١).

هذا النص جزء من دعاء الرسول ﷺ في التهجد، فيه إعلان الاستسلام التام والانقياد المطلق لله ﷻ، وقد جاء البيان النبوي بهذه المعاني سالكًا أسلوب التقديم، حيث ((قدّم صلات الأفعال عليها؛ إشعارًا للتخصيص وإفادة للقصر))(٢). ويتضمن هذا الدعاء شدة الافتقار إلى الله وعظم فاقة العبد إلى مولاه، وأنّه في كل أموره لا ينفك عن استلهام المدد والعون من الله ﷻ.

وفي حجة الوداع يقول ﷺ في خطبته: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا..."(٣).

لما أراد المصطفى ﷺ أن يقرر أمرًا عظيمًا وهو حرمة الدماء والأموال والأعراض، استخدم مجموعة من الأساليب البلاغية كالتأكيد، والتشبيه، والتقديم، والأخير هو مرادنا هنا، حيث قدم الجار والمجرور (عليكم) على خبر (إنّ) الذي هو قوله: (حرام)، وفي هذا بلاغة عالية؛ إذ لما كانت النفوس تتشوق إلى سماع الخبر إذا بالبيان النبوي يفجؤها بقوله: (عليكم) فأنتم المخاطبون بهذا الخبر والمعنيون به، ليس غيركم، كما أنّ هذا التخصيص جاء مشوبًا بالتوكيد.

ومن مباحث هذا الدرس تقديم المسند إليه على المسند، وذلك لأغراض بلاغية يتطلبها المقام، مثال ذلك قوله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ"(٤).

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾: ٧٣٨٥.

(٢) فتح الباري: ٥٠٦/٣.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

(٤)باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٤٩١.

فالشاهد قوله: (وأنا الدهر) قال الخطابي: ((معناه: أنا صاحب الدهر، ومدبر الأمور التي تنسبونها إلى الدهر، فإذا سب ابن آدم الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلي؛ لأنّي فاعلها، وإنما الدهر زمان ووقت جعلته ظرفًا لمواقع الأمور))[(١)].

إذن جاء تقديم المسند إليه هنا؛ لإفادة اختصاص الله ﷻ بتدبير الأمور وتصريفها، وقصرها عليه، وأنّ الدهر لا علاقة له بأي شيء من ذلك، إذ لا يعدو أن يكون ظرفًا للحوادث.

وفي حديث اختصام الجنة والنار يقول ﷺ: "اخْتَصَمَتْ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَتْ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ مَا لَهَا لا يَدْخُلُهَا إِلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتْ النَّارُ: يَعْنِي أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا.."[(٢)].

جاء تقديم المسند إليه (أنت) في قوله للجنة: (أنت رحمتي)، وقوله للنار: (أنت عذابي) مفيدًا اختصاص كلٍّ من الجنة والنار بالرحمة والعذاب، فالجنة محل رحمة الله تعالى وثوابه، والنار موطن عقابه وعذابه.

وفي قوله ﷺ: "نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[(٣)].

قال النووي: ((قال العلماء: معناه: الآخرون في الزمان والوجود، السابقون بالفضل ودخول الجنة، فتدخل هذه الأمة الجنة قبل سائر الأمم))[(٤)].

قوله: (نحن الآخرون السابقون) جاء على طريقة تقديم المسند إليه؛ وذلك للحاجة لتقوية هذا الأمر، إذ إنّ هذا الحكم فيه غرابة، فهم متأخرون زمنًا ومع ذلك سابقون لغيرهم فضلاً، فالتقديم هنا للتقوية، ويضاف إلى ذلك إفادة الاختصاص، فالحكم مختص بأمة محمد ﷺ دون غيرها من الأمم، فهذه الأمة تأخر وجودها عن الأمم الماضية لكنها

---

(١) أعلام الحديث: ٣/٩٩٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ٧٤٤٩.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٥.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦/١٤٧.

((سابقة لهم في الآخرة، بأنهم أول من يحشر، وأول من يحاسب، وأول من يقضى بينهم، وأول من يدخل الجنة))(١).

وقد يُفاد معنى آخر في ذا التقديم، وهو الفخر، فالرسول ﷺ يفخر أن تكون أمته تحظى بهذا الامتياز والتفوق، وأن يكون ذلك اختصاص من الله ﷻ لها.

وقد يحتاج الخبر إلى تأكيد فيقدم المسند إليه، كما جاء في قوله ﷺ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْعَصْرِ وَصَلاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ"(٢).

فقول الملائكة: (تركناهم وهم يصلون/ وأتيناهم وهم يصلون) جاء على سبيل تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، وفي ذلك تقوية لهذا الحكم، وهو مداومة المؤمنين على الصلاة حتى باتت هجيراهم.

وأما الدواعي البلاغية لتقديم المسند على المسند إليه، فمنها: إفادة الحصر، كما جاء عن أبي ذر من أنّ النبي ﷺ كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال: "بِاسْمِكَ نَمُوتُ وَنَحْيَا"، فإذا استيقظ قال: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"(٣).

فقد ختم الذكر بقوله: (وإليه النشور) أي: ليس إلى أحد سواك، فجميع الخلق صائرون إليك، وما في هذا الدعاء من استشعار نعم الله وآلائه، واستحضار يوم البعث مع تنفس كل صباح، ما يبعث النفس على ابتداء يوم جديد بالإقبال على الله.

ونحو هذا قوله ﷺ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ فَأُرِيدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٤).

فتقديم المسند هنا جاء لغرض التخصيص، بمعنى أنّ الله ﷻ قد خص كل نبي بدعوة مقطوع أمر استجابتها، وما عدا ذلك فهو على رجاء الإجابة(١).

---

(١) فتح الباري: ٣/١٢١.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: ٧٤٢٩.

(٣) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٥.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: ٧٤٧٤.

وفي قوله ﷺ في فضل الصوم: "لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"(٢).

يرغب النبي ﷺ في أمر الصيام ويغري المؤمنين به، ذاكرًا عددًا من الحوافز لأهل الصيام، منها: (للصائم فرحتان) فهما فرحتان مختصتان بالصائمين والصائمات دون غيرهم، لا يشاركهم فيها أحد، وفي هذا الاختصاص إشارة إلى شرف شعيرة الصيام، وسمو منزلتها.

كما يفيد هذا التقديم معنى تعجيل البشارة لأهل الصوم.

ويأتي تقديم المسند مفيدًا تقوية الحكم كقوله ﷺ: "إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْ النَّارِ، رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْوًا، فَيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ: رَبِّ الْجَنَّةُ مَلأَى، فَيَقُولُ لَهُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ يُعِيدُ عَلَيْهِ: الْجَنَّةُ مَلأَى، فَيَقُولُ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مِرَارٍ"(٣).

يخرج هذا الرجل من النار حبوًا؛ لشدة ما لاقاه في النار من عذاب، فإذا ما وصل الجنة رآها ملأى حتى أصبح هذا الشيء يقينًا عنده، حينئذ يكرمه الوهاب ﷻ كرمًا لم يخطر له على بال (إنّ لك مثل الدنيا عشر مرار)، لقد جاء التقديم مقويا هذا الحكم ومؤكدًا له، لما قد يشعر به الرجل من استغراب، فقد جاء في بعض الروايات أنّ الله ﷻ لما قال للرجل "إنّ لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إنّ لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: تسخر مني؟ أو: تضحك مني وأنت الملك؟"(٤).

ويجيء تقديم المسند لمعنى التشويق، ويكون كثيرًا مع العدد، وقد ورد هذا المعنى في قوله ﷺ: "ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ؛

---

(١) ينظر: فتح الباري: ٢٧٩/١٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٢.

(٣) باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: ٧٥١١.

(٤) رواه البخاري: كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار: ٦٥٧١.

لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ"(١).

يتوجه التحذير في هذا الحديث إلى عدد من المحظورات الشرعية، وقد سلك البيان النبوي أسلوب التقديم للتشويق، حيث جاء المسند (ثلاثة) مقدّمًا، ليتشوق المتلقي إلى معرفة تلك الأمور التي يحصل بموجبها هذا العقوبات العظام، فالتقديم هنا يهيئ النفس، وينشط الذهن لتلقي الخبر.

ونحو ذلك ما ختم البخاري به صحيحه، يقول ﷺ: "كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"(٢).

جاء تقديم الخبر (كلمتان) على المبتدأ (سبحان الله وبحمده ..) لتشويق السامع؛ حيث يظل في ترقب وتطلع إلى المسند إليه، فقد جاء الخبر موصوفًا بصفات عديدة ضاعفت التلهف إلى معرفة المبتدأ، وثمة حسن آخر وهو إطالة الكلام في وصف الخبر، ((وكلما طال الكلام في وصف الخبر حسن تقديمه؛ لأن كثرة الأوصاف تزيد السامع شوقًا))(٣).

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٦.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾: ٧٥٦٣.

(٣) فتح الباري: ٦٣١/١٧.

- **المبحث الثالث**: **الإطلاق والتقييد**:

الإطلاق في اللغة يدل على التخلية والإرسال(١).

وأما في الاصطلاح فهو ((أن يذكر الشيء باسمه، لا يقرن به صفة ولا شرط ولا زمان ولا عدد ولا شيء يشبه ذلك))(٢). وأوضح بعضهم أن الإطلاق يعني أن يقتصر في الجملة على ذكر جزئيها المسند والمسند إليه(٣). ويُلجأ لهذا الأسلوب حين لا يتعلق الغرض بتقييد الحكم بوجه من الوجوه، كما يفيد إطلاق العنان لفكر المتلقي لتذهب نفسه فيه كل مذهب(٤).

وأما التقييد فهو: ما زاد على المسند والمسند إليه(٥).

والتقييد يكون بالتوابع، وضمير الفصل، والمفاعيل، وأدوات الشرط، والنفي، والتمييز، والحال، والنفي، والنواسخ، والجار والمجرور(٦).

والغرض الرئيس للتقييد هو زيادة الفائدة، يقول سعد الدين: ((وأما تقييد الفعل وما يشبهه من اسم الفاعل، والمفعول، وغير ذلك، بمفعول مطلق، أو به، أو فيه، أو له، أو معه، ونحوه من الحال، والتمييز، والاستثناء، فلتربية الفائدة وتقويتها؛ لأن ازدياد التقييد يوجب ازدياد الخصوص، وهو يوجب ازدياد البعد الموجب لقوة الفائدة))(٧).

١) الإطلاق:

يكاد يكون أسلوب الحذف هو الوسيلة الأكثر حضورًا في إفادة الإطلاق، ولا شك في أنّ بلاغة الحذف والذكر لا تنفك عن مراعاة المقام، وقد بيّن أبو موسى ذلك

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة: ٣/٤٢٠. (طلق).

(٢) الصاحبي: ٢٠٠.

(٣) ينظر: معجم البلاغة العربية: ١/٤٧٢.

(٤) ينظر: جواهر البلاغة: ١٤٤.

(٥) ينظر: معجم البلاغة العربية: ٢/٧٢٨.

(٦) ينظر: المطول: ٣١٤.

(٧) المطول: ٣١٤.

بقوله: ((إنّ للحذف أغراضه التي لا يغني الذكر غناءه فيها، وأنّ للذكر أغراضه التي لا يغني الحذف غناءه فيها، وأنّ البلاغة مراعاة المقامات والأحوال، فالذكر في موطنه بليغ مطابق، والحذف في موطنه بليغ مطابق))(١).

وقد جاء الإطلاق في حديث الاستخارة، يقول ﷺ: "إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ"(٢).

أفاد قوله: (فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم) إطلاق القدرة و العلم لله ﷻ، حيث لم يقيد تلك القدرة و العلم بشيء، إذ إنّ قدرة الله تعالى لا يحدها شيء، وعلمه لا يحيط به وصف، وهذا الإطلاق يفيد أيضًا أنّ ((القدرة لله وحده، وكذلك العلم له وحده))(٣).

واجتماع هاتين الصفتين؛ القدرة والعلم يشير إلى ((انتفاء أن يكون شيء يعجز الله؛ لأنّ عجز المريد عن تحقيق إرادته إما أن يكون سببه خفاء موضع تحقق الإرادة، وهذا ينافي إحاطة العلم، أو عدم استطاعة التمكن منه، وهذا ينافي عموم القدرة))(٤).

ودونك شاهدًا آخرًا ينبيك عن أثر هذا الأسلوب في تمكين المعنى، ففي قصة آخر أهل النار دخولاً الجنة يقول ﷺ: "...ثُمَّ يَفْرُغُ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَيَبْقَى رَجُلٌ مِنْهُمْ مُقْبِلٌ بِوَجْهِهِ عَلَى النَّارِ، هُوَ آخِرُ أَهْلِ النَّارِ دُخُولاً الْجَنَّةَ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ اصْرِفْ وَجْهِي عَنْ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَشَبَنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذَكَاؤُهَا، فَيَدْعُو اللَّهَ بِمَا شَاءَ أَنْ يَدْعُوَهُ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أَعْطَيْتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي رَبَّهُ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ مَا شَاءَ، فَيَصْرِفُ اللَّهُ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ، فَإِذَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَنَّةِ وَرَآهَا سَكَتَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ قَدِّمْنِي إِلَى بَابِ

(١) خصائص التراكيب: ١٨٠.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾: ٧٣٩٠.

(٣) عمدة القاري: ١٩/٢٣.

(٤) التحرير والتنوير: ٣٣٩/٩.

الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لا تَسْأَلَنِي غَيْرَ الَّذِي أُعْطِيتَ أَبَدًا؟ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ وَيَدْعُو اللَّهَ حَتَّى يَقُولَ: هَلْ عَسَيْتَ إِنْ أُعْطِيتَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَ غَيْرَهُ؟ فَيَقُولُ: لا وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَيُعْطِي مَا شَاءَ مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فَرَأَى مَا فِيهَا مِنْ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَيَقُولُ اللَّهُ: أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ؟ فَيَقُولُ: وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ! فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ لا أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ، فَلا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ، فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ: تَمَنَّهْ، فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى حَتَّى إِنَّ اللَّهَ لَيُذَكِّرُهُ يَقُولُ: كَذَا وَكَذَا حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ: ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ"[1].

هذا مشهد بديع من مشاهد الكرم الإلهي والجود الرباني مقابل الطمع الآدمي، تأمل قوله: (تمنّه) إنّه يأمره أمر إكرام أن يتمنّى أماني بلا حدود أو قيود، لم يضع لهذه الأماني مكانًا أو زمانًا أو شرطًا أو نحو ذلك، بل جعلها مطلقة دون قيد، ثم انظر إلى الجود المتتابع حين يُذكّر المنّان عبده بأمور نسيها ليتمنّاها، وتكتمل الصورة بهاءً وإشراقًا حين قال: (حتى انقطعت به الأماني) فقد جعله يتمنّى حتى خلا ذهنه، وعجز فكره عن طلب المزيد. ما أجودك يا الله! هذا عطاؤك لآخر الداخلين، فكيف سيكون لأولهم من السابقين؟

٢) التقييد:

تنوعت وسائل التقييد تنوعًا ينبئ عن براعة هذا الأسلوب، واحتوائه أسرارًا بيانية، ولطائف بلاغية، ولعلنا البدء يكون بالوسيلة الأشد وهجًا في مادة الدراسة، وهي التقييد بالجار والمجرور، فمن ذلك ما ورد في حديث الشفاعة، قال ﷺ: "يَجْمَعُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَمَا تَرَى النَّاسَ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ"[1].

فالتقييد في قوله: (خلقك الله بيده) جاء ((إكرامًا وتشريفًا له، وأنّه خلق إبداعًا من غير واسطة أرحام))[2].

وفي آخر الحديث نفسه تقييد بالجار والمجرور أيضًا، يقول ﷺ: "يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنْ الْخَيْرِ ذَرَّةً"[3].

تأمل القيد (في قلبه) ثم لاحظ تكرار الرسول ﷺ له في كل مرة؛ ليدل على المكانة الكبيرة و المنزلة الرفيعة التي يتبوؤها هذا العضو، إذ إنّ مدار الأعمال عليه، كما ((إنّ صلاح حركات العبد وجوارحه، واجتنابه للمحرمات، واتقاءه للشبهات بحسب حركة قلبه))[4].

ومن شواهد التقييد بالجار والمجرور قوله ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ"[5].

صورة أخرى تبرز شيئًا من الكرم الإلهي الدفّاق، حيث يعامل سبحانه عباده بالفضل، ففي هذا النص قيد يؤكد على قضية ملحة، إنّها أس العمل الصالح الإخلاص لله،

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: ٧٤١٠.

(٢) شرح الطيبي: ٢/٥٣١.

(٣)باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: ٧٤١٠.

(٤) جامع العلوم والحكم: ٩٤.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَامَ ٱللَّهِ﴾: ٧٥٠١.

فالله ﷻ يكافئ من ترك السيئة بالحسنة لكن ذلك مشروط ومقيد بكون ذلك الترك كان لله (وإن تركها من أجلي) فلا بد أن يكون الترك خوفًا من الله لا خوفًا من نظر مخلوق أو عجزًا عن إتيان العمل أو نحو ذلك[1].

ومن وسائل التقييد: المفاعيل، ومنها: المفعول المطلق كما جاء في قوله ﷺ: " إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا"[2].

لقد جاء القيد (عيانًا) مفيدًا توكيد هذه الرؤية، وأنّها فضل ثابت اختص الله به المؤمنين، كما أنّ هذه الرؤية ستكون بالعين المبصرة، واختيار هذا المصدر المرادف للرؤية (عيانًا) جاء في غاية البلاغة، حيث ورد في اللسان: ((رآه عيانًا: لم يشك في رؤيته إياه))[3]. وهكذا تآزر توكيد الجملة وتقييدها لتأكيد حصول الرؤية للمؤمنين.

ومن القيود الحاضرة في أحاديث الدراسة المفعول فيه، بنوعيه الزمان والمكان، فمن الأول ما جاء في حديث الرب ﷻ مع أهل الجنة، يقول ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبِّ؟ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا"[4].

ما أطيب هذا الحوار وألذّه، هكذا تتوالى عطايا الكريم على عباده المؤمنين؛ ليصلوا إلى أعظم الأعطيات: رضاه ﷻ، وكم زاد الظرف (أبدًا) هذا الإكرام إكرامًا، وهذا الشرف شرفًا، فرضاه سبحانه عن أهل الجنة ليس موقوتًا بأمد محدود، ولا أجل معدود، بل هو رضى مستمر دائم لا ينقطع.

وأما ظرف المكان، فتقيَّد به الجملة لأسرار تدرك من السياق، فمن ذلك قوله ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: الصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي، وَالصَّوْمُ

---

(١) ينظر: أعلام الحديث: ١١٨٣/٣.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٥.

(٣) لسان العرب: ٥٠٥/٩. (عين).

(٤) باب كلام الرب ﷻ مع أهل الجنة: ٧٥١٨.

جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"(١).

تأمل في الجملة التي ختم بها الحديث، وكيف أنّ القيد فيها جاء مكمّلاً لإبراز فضيلة الصوم، وشرف فاعليه، (ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) وكفى بهذا الجزء بيانًا للكمالات التي يجنيها الصائمون، إنّ تلك الرائحة الكريهة التي يأنفها البشر أطيب عند الله من ريح المسك، إذن جاء القيد لتأكيد المكانة السامقة للصيام في الشريعة.

ومن الوسائل المقيِّدة: النعت، ومما جاء من طريقه: قوله ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي ملأ خَيْرٍ مِنْهُمْ ..."(٢).

فالنعت في قوله: (خير منهم) أفاد فضيلة إضافية، هي أن الملأ الذين يذكر الله عندهم العبد الذاكر خير من أولئك الذين ذكر العبد ربه عندهم.

ونحو هذا قوله ﷺ: "مَنْ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينٍ كَاذِبَةٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ"(٣).

جاء التقييد بـــ(مسلم) هنا؛ ليفيد باختصاص هذه العقوبة العظيمة بالمسلم دون إباحة مال من سواه، قال النووي: ((وأما تقييده ﷺ بالمسلم فليس يدل على عدم تحريم حق الذمي، بل معناه: أنّ هذا الوعيد الشديد، وهو أن يلقى الله تعالى وهو عليه غضبان لمن اقتطع حق المسلم، وأما الذمي: فاقتطاع حقه حرام، لكن ليس يلزم أن تكون فيه هذه العقوبة العظيمة))(٤). ويفسر القاضي عياض هذا التخصيص فيقول: ((وتخصيصه هنا

(١) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾: ٧٤٩٢.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾: ٧٤٠٥.

(٣) رواه البخاري: ٧٤٤٥.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٦٢/٢.

بالمسلم، إذ هم المخاطبون، وعامة المتعاملين بالشريعة، لا أنّ غير المسلم بخلافه بل حكمه حكمه في ذلك))[١].

ومن قيود الجملة: الحال، ومن شواهده قوله ﷺ: " إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْ النَّارِ، رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْوًا، فَيَقُولُ لَهُ رَبُّهُ: ادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رَبِّ الْجَنَّةُ مَلأَى، فَيَقُولُ لَهُ ذَلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَكُلُّ ذَلِكَ يُعِيدُ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ مَلأَى، فَيَقُولُ: إِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا عَشْرَ مِرَارٍ"[٢].

من خاتمة الحديث يبدأ البحث في دلالة القيد الحالي (حبوًا)، لقد جاء الحال مصوّرًا حالة ذلك الرجل المتهالكة بسبب العذاب، فهو لا يستطيع الوقوف فضلاً عن السير، حيث يمشي على يديه وبطنه[٣]. إنّ هذه الصورة المؤلمة إذا وضعت إلى جانب عاقبة الرجل، وهي ملكه مثل الدنيا عشر مرار تبرز جانبًا من فضل الله العظيم ورحمته الواسعة بعباده.

ومن القيود، قيد التمييز، ووظيفته تكمن في إزالة الإبهام، وإيضاح المعنى، من ذلك: قوله ﷺ: "بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَى رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ"[٤].

فقد قيد رجل الجراد الذي يعني ((جماعة من الجراد، كما يقال: سرب من الظباء، وغابة من الحمر، وهو من أسماء الجماعات التي لا واحد من لفظها))[٥] بقوله: (من ذهب) وذلك لبيان المراد وإيضاح المقصود للمخاطب.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٤٣٤/١.

(٢) باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: ٧٥١١.

(٣) ينظر: القاموس المحيط: ١٢٧٩. (حَبَا).

(٤) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٣.

(٥) شرح الكرماني: ٤٢/١٤، وينظر: فقه اللغة وأسرار العربية: ١٦٧.

- **المبحث الرابع**: **القصر**:

دلالة القصر في اللغة لا تخرج عن معنيين، أحدهما يدل على ((ألا يبلغ الشيء مداه ونهايته، والآخر على الحبس))[1]. وقد انطلق البلاغيون في تحديد معنى القصر من هذه الدلالة اللغوية فحدّوه بأنّه ((تخصيص شيء بشيء بطريق معهود))[2].

والمراد بقولهم: (بطريق معهود) أي: أنّ هذا التخصيص لا يكون إلا عبر طرق محددة، وسبل معروفة، وقد أوصل بعض العلماء هذه الطرق إلى أربعة عشر طريقًا[3]، غير أنّ علماء البلاغة قصروا حديثهم على أربعة طرق هي[4]:

١) النفي والاستثناء.

٢) إنّما.

٣) العطف.

٤) تقديم ما حقه التأخير.

وثمة طرق أخرى يدل ظاهرها على القصر غير أنّ علماء البلاغة لم يصطلحوا عليها، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ {البقرة: ١٠٥} ليس من الطرق الاصطلاحية، وإن كان فيه المعنى العام لاختصاص شيء بشيء[5].

وهذه إشارة سريعة إلى تقسيمات القصر قبل الحديث في تفاصيل هذه الطرق، وإيراد الشواهد عليها وتحليلها، حيث إنّ لأسلوب القصر تقسيمات باعتبارات متعددة، هي كالآتي[6]:

أولاً: القصر باعتبار طرفيه، وينقسم إلى:

---

(١) مقاييس اللغة: ٥/٩٦. (قصر)

(٢) المطول: ٣٨١.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٢/٦٤.

(٤) ينظر: التلخيص في علوم البلاغة: ١٣٩.

(٥) ينظر: أساليب القصر في الصحيحين ودلالاتها البلاغية: ١/٢٦.

(٦) ينظر في تقسيمات القصر: التلخيص: ١٣٧وما بعدها، والمطول: ٣٨١وما بعدها.

أ. قصر الموصوف على الصفة: مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ {آل عمران: ١٤٤}.

ب. قصر الصفة على الموصوف: نحو قولنا: إنّما الشاعر المتنبي.

ثانيًا: القصر باعتبار عموم النفي وعدمه:

أ. حقيقي: وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه، بحيث لا يتعداه إلى غيره، نحو: لا خالق إلا الله.

ب. إضافي[1]: وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه في أمر معيّن، مثل: الجاحظ كاتب لا شاعر، فهنا نفيت عن الجاحظ صفة الشاعرية، لكن هذا لا يعني أنّ الجاحظ لا يملك صفات أخرى غير الكتابة، فالنفي هنا مختص بأمر معيّن.

والقصر الحقيقي ينقسم قسمين:

١) التحقيقي: وهو ما كان مطابقًا للحقيقة والواقع، نحو قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ {الأنعام: ٥٩}

٢) الادعائي: وذلك إذا لم يكن القصر الحقيقي متحققًا في الواقع، نحو: لا شاعر إلا المتنبي، على سبيل نفي الشاعرية عمّن سواه، فهو قصر حقيقي غير متحقق في الواقع؛ إذ الدنيا تزخر بعدد هائل من الشعراء، لكننا نزلنا شاعرية غير المتنبي منزلة العدم؛ مبالغة في استحقاق المتنبي لهذا الوصف.

وقد رجح بعض الباحثين بأنّه لا مانع من وجود الادعاء في القصر الإضافي، فإذا قلنا: إنّما الشاعر المتنبي لا البحتري، فهو إضافي ادعائي سِيق مساق المبالغة، حيث بالغ في وصف شاعرية المتنبي، حتى نزّل شعر البحتري منزلة من لا يحسن قرض الشعر[2].

---

(١) سمّاه السبكي في عروس الأفراح: قصرًا مجازيًّا. ينظر: عروس الأفراح: ٤٨٧/١.

(٢) ينظر: وبحوث المطابقة لمقتضى الحال: ١٣/٢، أساليب االقصر في الصحيحين: ٣١/١.

وأما من رأى أنّ الادعاء لا يأتي مع الإضافي فيرد عليه بأنّ ((روح النصوص الأدبية تأبى هذا القيل، والذي يمكن قوله: إنّ شواهد القصر الإضافي في الادعائي قليلة نسبيًّا عن نظائرها في القصر الحقيقي))[(١)].

وأما القصر الإضافي، وهو باعتبار المخاطب فينقسم ثلاثة أقسام:

١) الإفراد: ويخاطب به من يعتقد الشركة، نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ {آل عمران: ١٤٤}، فالصحابة نُزِّلوا منزلة من يعتقد أنّ محمدًا ﷺ يجمع بين صفتي الرسالة والخلد، فجاء أسلوب القصر مفيدًا أنّ النبي ﷺ مقصور على الرسالة فقط دون البراءة من الهلاك.

٢) التعيين: ويخاطب به الشاك والمتردد، كقولك: إنّما الجاحظ كاتب، لمن يتردد في كونه كاتبًا أو شاعرًا.

٣) القلب: ويخاطب به من يعتقد العكس، نحو قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ {المائدة: ٧٥}، فالقصر هاهنا قلب؛ حيث كان النصارى يعتقدون ألوهية عيسى عليه السلام، فجاء القصر قالبًا هذا الاعتقاد، قاصرًا على عيسى الرسالة.

وعلى كل حال، فالسياق هو المرشد إلى معرفة نوع القصر، فشاهدا الإفراد والقلب متطابقان، لكنّ السياق فرّق بين المراد بالقصر فيهما.

ويمتاز أسلوب القصر بأنّه فنٌّ كثير الفوائد غزير الأسرار، بالإضافة إلى أنّه يحتضن نكاتًا بلاغية، ولطائف بيانية؛ حيث تجد فيه الإيجاز، وتمكين الكلام وتقريره في الذهن، وإفادة التعريض، والمبالغة إلى غير ذلك[(٢)].

---

(١) بحوث المطابقة لمقتضى الحال: ١٣/٢.

(٢) ينظر: جواهر البلاغة: ١٦٨.

والجملة القصرية تشتمل على حكم واحد متضمن للإثبات والنفي، إثبات المقصور للمقصور عليه، ونفيه عمن سواه إن عامًّا وإن خاصًّا، فهي جملة واحد في قوة جملتين[(١)].

ولعلنا نكتفي بما سبق؛ لنقصد شواهد القصر من خلال طرقه:

-طريق النفي والاستثناء:

وهو أبلغ الطرق وأقواها، وذلك لما فيه من وضوح معنى القصر، فالمعنى فيه يتحقق بالنفي أولاً، ثم بالاستثناء ثانيًا، ويعلل أبو موسى هذا التميز بـــ((أنهم يقيسون عليه غيره، ويصطنعون في توضيح صورة المعنى، وتحديد المقصور والمقصور عليه، فيقولون مثلاً: إنّ قولك: إنّما لك هذا، معناه: ما لك إلا هذا))[(٢)].

والأصل في هذا الطريق أن يكون فيما يجهله المخاطب وينكره ويشك فيه؛ لذلك حين يأتي الحديث في القرآن عن إنكار المشركين لوحدانية الله ﷻ يجيء القصر بهذا الطريق، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ {آل عمران: ٦٢}. قال عبدالقاهر: ((وأما الخبر بالنفي والإثبات، نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه))[(٣)].

وقد يجيء أسلوب القصر بهذا الطريق؛ ليفيد تمكين المعنى وتقريره في النفوس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ {الأنعام: ١٠٦}، فالخطاب لمحمد ﷺ وهو ليس منكرًا، ولا منزَّلاً منزلة المنكر، إنما جاء القصر لمحض التوكيد، وإفراغ الحقيقة في قالب متين موثق؛ لتقريرها في النفوس أبلغ تقرير[(٤)].

---

(١) ينظر: بحوث المطابقة لمقتضى الحال: ٧/٢

(٢) ينظر: دلالات التراكيب: ١٢٨.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٣٢.

(٤) ينظر: من نحو المباني إلى نحو المعاني: ٢١٩.

ومن شواهد هذا الطريق قوله ﷺ: "يَا فُلانُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ.."[١].

غاية الافتقار إلى الله ومنتهى التبرؤ من الحول والقوة، إنّ مثل هذه الابتهالات تقذف في النفس شعورًا بأنّ الإنسان مهما بلغ شأنه فإنه مفتقر إلى الله من كل وجه، ولاحظ القصر كيف أسهم في ترسيخ هذه المعاني (لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك) أي: لا ملاذ ولا مخلص من الله إلا إليه، فهو قصر صفة على موصوف، حيث قصر اللجأ والنجاة والخلاص على الله ﷻ دون من سواه، وهو حقيقي تحقيقي؛ لعموم النفي لما سواه سبحانه، ولمطابقته للواقع.

ونحو هذا قوله ﷺ: "تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لا يُخْرِجُهُ إِلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"[٢].

فالحديث هذا عن الفضل العظيم الذي أعده الله للمجاهدين في سبيله، لكن ذلك الجزاء مشروط بما ورد في الجملة القصرية (لا يخرجه إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلماته) وقد جاء على سبيل القصر الحقيقي لعموم النفي فيه، فلا يكون سبب خروجه الرياء ولا السمعة ولا الحمية أو الغنيمة ولا غير ذلك سوى رضى الله ﷻ وابتغاء ما عنده[٣].

وفي حديث اختصام الجنة والنار يقول ﷺ: ".. فَقَالَتْ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ مَا لَهَا لا يَدْخُلُهَا إِلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتْ النَّارُ: يَعْنِي أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ.."[٤].

قوله: (لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم) قصر صفة على موصوف، حيث قصر دخول الجنة على هذه الفئة، ولا شك في أنّ هذا القصر حقيقي لكنه غير تحقيقي، بل

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: ٧٤٨٨.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: ٧٤٥٧.

(٣) ينظر: بهجة النفوس: ٣/١٥٨.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ٧٤٤٩.

جاء على سبيل المبالغة، إذ الجنة ليست مقتصرة على الضعفاء فحسب، لكن لّما كان غالب أهل الجنة الفقراء كما ورد في الحديث: "اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ"[1]. جعلت كأنّها لهم ولا يدخلها غيرهم، وإلا فالجنة يدخلها الأغنياء والوجهاء، وكلٌّ بفضل الله ورحمته.

ومن الشواهد قوله ﷺ: "لا تَحَاسُدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، فَيَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ"[2].

فالمراد بالقصر في قوله: (لا تحاسد إلا في اثنتين) أنه: ((ليس حسد لا يضر إلا اثنين))[3]. وقد حملها بعضهم على معنى الغبطة[4]، فيكون المعنى: لا غبطة إلا في هاتين الخلتين، وعلى هذا فيكون القصر حقيقي على سبيل المبالغة؛ لأن الغبطة لا تنحصر فيهما، وإنما تكون في أمور أخرى، ومجيء المعنى على هذا الأسلوب ((لبيان علو درجتهما، وعظيم شرفهما، ورفعة منزلتيهما))[5].

-طريق (إنّما):

تتكون هذه الأداة من جزئين: حرف التأكيد (إنّ) و (ما) الزائدة الداخلة عليها التي كفّتها عن العمل في الجملة الاسمية، وهيّأتها للدخول على الجملة الفعلية، ووهبتها حكمًا زائدًا، هو القصر والاختصاص[6].

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ٣٢٤١.

(٢) باب قول النبي ﷺ: "رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل" ٧٥٢٨.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٠٧.

(٤) ينظر: شرح الكرماني: ٤٢/٢.

(٥) الأدب النبوي: ١٩٧.

(٦) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني: ١٢٤.

ويوضح المرادي دلالة (إنّما) على القصر، فيقول: ((لمّا كانت كلمة (إنّ) لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه، ثم اتصلت بها (ما) الزائدة المؤكدة، ناسب أن تضمن معنى الحصر؛ لأن الحصر ليس إلا تأكيدًا على تأكيد))[1].

ويجيء استعمال (إنّما) على الضد من النفي والاستثناء، حيث تجيء مع الأمر المعلوم الذي لا يجهله المخاطب، ولا ينكره، أو للمجهول المنزَّل منزلة المعلوم، يقول عبدالقاهر: ((اعلم أنّ موضوع (إنّما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزَّل هذه المنزلة))[2].

ويضاف إلى ذلك أنّها تفيد الادّعاء والمبالغة، والتعريض، والأخير جعله عبدالقاهر أقوى حالاتها، وأشدها تأثيرًا، حيث يقول: ((اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نَفْس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أنّا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ {الرعد: ١٩}. أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يُذَم الكفار، وأن يقال: إنهم من فرط العناد، ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل، وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في غير ذلك من غير أولي الألباب))[3].

ولا سبيل إلى معرفة أي الأساليب يفيد التعريض إلا من خلال تأمل النص وتذوق معناه وتلمس خفاياه، والاستضاءة بالسياق[4].

ومن شواهد القصر بــ(إنّما) ما جاء في حديث أسامة بن زيد ﷺ قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ إذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: "ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ" فَأَعَادَتْ الرَّسُولَ أَنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ

(١) الجنى الداني: ٣٩٧.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣٠.

(٣) دلائل الإعجاز: ٥٣٤.

(٤) ينظر: دلالات التراكيب: ١٦٧.

بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَدُفِعَ الصَّبِيُّ إِلَيْهِ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ كَأَنَّهَا فِي شَنٍّ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا قَالَ: "هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ"[1].

القصر في قوله: (إنّما يرحم الله من عباده الرحماء) قصر حقيقي على سبيل المبالغة؛ لأن رحمة الله ﷻ وسعت كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ {الأعراف: ١٥٦}. فهي ليست حكرًا على الرحماء، وإنما جاء القصر هنا لبيان فضلهم، وعلو كعبهم، ورفع شأن فضيلة التراحم بين العباد، وكأنّ رحمة الله خاصة بهم.

وفي هذا القصر أيضا تعريض بسوء حال أولئك القساة الجفاة الذين لم تجد الرحمة في قلوبهم موطئًا، وهم أبعد ما يكونون من رحمة الله ﷻ.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: بعَثَ عَلِيٌّ ﷺ وَهُوَ بِالْيَمَنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ، وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ، وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاثَةَ الْعَامِرِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلابٍ، وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، فَتَغَيَّظَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: "إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ"[2].

فالقصر هاهنا إضافي، والمراد به القلب، حيث قلب ما كان يجول في خواطرهم من كون هذا العطاء دليل محبة وعنوان تفضيل، مبيِّنًا أنّ ذلك العطاء محض تأليف وإيناس لهم؛ ((ليثبتوا على الإسلام رغبة فيما يصل إليهم من المال))[3].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: ٧٣٧٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: ٧٤٣٢.

(٣) عمدة القاري: ٣٤٣/١٥.

طريق التقديم:

سبق الحديث عن التقديم ودلالاته في مبحث التقديم والتأخير[١]، حيث إنّ دلالته على القصر أحد الأسرار البلاغية التي تكتنف هذا الأسلوب؛ إذ التقديم هو الطريق الوحيد من طرق القصر التي يدرك من خلال السياق وقرائن الأحوال[٢].وقد جاء الحديث على إفادة التقديم القصر هناك. والمقصور عليه في هذا الطريق هو المقدم.

ومن شواهد هذا الطريق ما جاء في حديث ابن عباس ﵄ قال: كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو مِنْ اللَّيْلِ: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ"[٣].

اشتملت هذه الابتهالات المتوالية على جمل قصرية كثيرة جاءت من طريق التقديم، ففي قوله المتكرر: (لك الحمد) يظهر العبد حال دعائه امتنان الله ﷻ عليه بنعم لا تعد ولا تحصى، فالحمد كل الحمد متوجه لله سبحانه لا إلى أحد سواه، وفي قوله : (أنت رب، أنت قيم، أنت نور) يظهر العبد غاية ضعفه أمام سيده ومولاه، فهو مفتقر إليه أشد الافتقار، يدعو ربه المتصرف المدبر لهذا الكون، ويزداد هذا التذلل لله في ختام الدعاء، حيث يجيء يرفع العبد يديه إلى خالقه ملتجئًا بجمل قصرية قصيرة سريعة توحي بسرعة حرص العبد على الفوز برحمة الله وغفرانه، جاءت الجمل ناطقة بالوحدانية متشحة بالذل والخضوع (لك أسلمت، بك آمنت، عليك توكلت، إليك أنبت، بك خاصمت، إليك حاكمت) وكلها من قبيل قصر الصفة على الموصوف، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لعموم نفي كل تلك الصفات عما سوى الله تعالى، ولتحققها في قلوب المؤمنين الصادقين.

---

(١) ينظر: ص ١٢٢من هذا البحث.

(٢) ينظر: الإيضاح: ١٣٨.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾: ٧٣٨٥.

ويؤخذ من ذا الحديث ((استحباب تقديم الثناء على المسألة عند كل مطلوب اقتداءً به ﷺ))[1].

وأما طريق العطف فلم أجد شواهد له.

-طريقان آخران للقصر:

ثمة طريقان آخران لم يعدهما البلاغيون من طرق القصر الاصطلاحية، هما:

١ - تعرف الطرفين: أي جعل المسند والمسند إليه معرفتين.

٢ - ضمير الفصل: وذلك إذا وقع ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر.

والشواهد الواردة اشتملت على الطريقين معًا، من ذلك ما جاء في حديث التحيات من أنّ الصحابة ﭫ كانوا يصلون خلف النبي ﷺ فيقولون: السلام على الله، فقال النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ..."[2].

ففي قوله: (إنّ الله هو السلام) اجتمع الطريقان، فالطرفان معرفتان، وضمير الفصل متوسط بين المبتدأ والخبر، والمراد أنّ السلام مقصور على الله ﻷ فهو اسم من أسمائه الحسنى[3].

وهذا من القصر الإضافي، إذ المعنى ليس السلام تحية لله، بل هو اسم من أسمائه، فهو قصر قلب، حيث قلب حكمًا كان لدى الصحابة، وهو صلاحية كون السلام تحية لله ﻷ.

ومما جاء على ذين الطريقين، مارواه أبو موسى من أنّ رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّه"[4].

---

(١) عمدة القاري: ٢٥١/٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾: ٧٣٨١.

(٣) ينظر: شرح أسماء الله الحسنى: ١٤٠.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: ٧٤٥٨.

فالقصر في قوله: (لتكون كلمة الله هي العليا) قصر حقيقي؛ لعموم النفي لما سواه، فأي قصد يتقاطع مع السعي لإعلاء كلمة الله فليس في سبيل الله من شيء، وهو من القصر التحقيقي.

وقد أشار التفتازاني إلى معنى دقيق، حيث ذكر أنّ ضمير الفصل قد يفيد التأكيد إذا كان التخصيص حاصلاً بدونه[١]، بأن يكون في الكلام ما يفيد القصر كما في الأمثلة السابقة، فالتخصيص فيها حاصل بدون ضمير الفصل فحين نقول: (إنّ الله السلام) فالجملة قصرية بتعريف الطرفين.

وهكذا تجد أسلوب القصر غنيا بالإشارات البلاغية، والنكات البيانية ((ولو استقرأنا بدائع التعبير في لغتنا الجميلة لوجدنا كثيرًا منها معتمدًا على أسلوب القصر))[٢].

(١) ينظر: المطول: ٢٥٢.

(٢) البلاغة العربية في ثوبها الجديد (المعاني): ١٨٤.

الفصل الثالث

الجمل

- ❖ المبحث الأول: خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.
- ❖ المبحث الثاني: الفصل والوصل.
- ❖ المبحث الثالث: الإيجاز.
- ❖ المبحث الرابع: الإطناب.

- المبحث الأول: خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

الأصل في الكلام أن يكون على مقتضى الظاهر، بحيث تؤدي العبارات والجمل المعاني التي تحملها الألفاظ في الظاهر، ولكن الكلام قد يأتي مخالفًا لهذا الأصل طلبًا لأسرار بلاغية يقتضيها المقام.

وصور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر متعددة، فقد مرّ عند الحديث عن أضرب الخبر، الحديثُ عن مخالفة الكلام مقتضى الظاهر، كتنزيل المنكر منزلة غير المنكر، وعكسه، وكذا تنزيل المتردد منزلة غيره[1].

ومن صور المخالفة أيضًا: المخالفة بين الأفعال، والأسلوب الحكيم، والالتفات، ووضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر، وغيرها[2].

- المخالفة بين صيغ الأفعال:

هذه إحدى صور مخالفة الكلام مقتضى الظاهر؛ بحيث يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي، أو باسم الفاعل، أو المفعول، وعن الماضي بلفظ المضارع، وعن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر، كل ذلك لنكت بلاغية يتطلبها المقام[3].

فمن ذلك قوله ﷺ: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"[4].

فقد جاء جواب الشرط بصيغة الماضي (دخل) مع أنّ قائلها لم يدخلها بعد، إذ لا يزال يتقلب في دنياه، لكنّ البيان النبوي آثر الماضي خلافًا للأصل؛ لتحقق الوقوع[5]، فكأنّ دخول الجنة صار حتميًّا لكل من أحصى هذه الأسماء، وفي هذا تحفيز على هذا العمل، إذ الجزاء مضمون.

---

(١) ينظر: ص ٩٩-١٠٠ من هذا البحث.

(٢) ينظر: شرح عقود الجمان: ٢٦.

(٣) ينظر: علم المعاني لبسيوني فيود: ٢٧٥.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾ : ٧٣٩٢.

(٥) ينظر: عمدة القاري: ٣٣/١٤.

ونحوه قوله ﷺ: "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ..."(١).

أراد (يموج)؛ لأن الحدث لم يقع بعد، ولكنه عبّر عنه بالماضي إشارة إلى تحقق الوقوع، فهو لا محالة واقع. إنّ هذا الأسلوب لا يجعلك في إمكان وقوع الحدث، وإنما ينقلك لتعاين الموقف وما فيه من أهوال وشدائد، إذ إنّ وقوع الحدث من عدمه ألغاها استعمال الفعل الماضي. فهذه المخالفة تختصر الطريق؛ لتوجه تفكير الإنسان للنظر في أحوال ذلك اليوم والاشتغال بالمنجيات فيه، والبعد كل البعد عن التفكير في وقوع ذلك اليوم من عدمه، فذاك بات أمرًا مفروغًا منه بدلالة الماضي (ماج).

ومنه قوله ﷺ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"(٢).

مقتضى الظاهر أن يقال: (وجنِّب الشيطان ما ترزقنا) لكنه فضّل الماضي، والسرّ في ذلك ربما يعود إلى روح المؤمن المتفائلة، الروح التي تحسن الظن بربها، الواثقة من إجابته سؤلها، فهو يدعو الله ﷻ حال إتيانه زوجه أن يجنب ولده الشيطان، وكأنّ الوالد موجود بين يديه.

- **الأسلوب الحكيم**:

وهو ((تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده؛ تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيهًا على أنه الأولى بحاله أو المهم له))(٣).

---

(١) باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: ٧٥١٠.

(٢) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٦.

(٣) الإيضاح: ٨٨.

ومن شواهده ما رواه علي بن أبي طالب ﷺ من أنّ النبي ﷺ كان في جنازة، فأخذ عودًا فجعل ينكت في الأرض، فقال: " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ أَوْ مِنْ الْجَنَّةِ"، قَالُوا: أَلا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: "اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ"[(١)].

لم يجب النبي ﷺ السائلين عندما سألوه: (ألا نتكل؟) بقوله: (اتكلوا / أو لا تتكلوا)، وإنما وجههم إلى التقرب من الله ﷻ، وامتثال أوامره في العاجل، وتفويض الأمر إليه في الآجل.

فالرسول ﷺ نقل بإجابته هذه أذهان السائلين إلى الأهم والأولى، وهو مواصلة العمل الصالح، والاستمرار عليه.

ومن الأسلوب الحكيم، ما روته عائشة -رضي الله عنها- قالت: قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَا هُنَا أَقْوَامًا حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِشِرْكٍ يَأْتُونَا بِلُحْمَانٍ لا نَدْرِي يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَمْ لا؟ قَالَ: "اذْكُرُوا أَنْتُمْ اسْمَ اللَّهِ وَكُلُوا"[(٢)].

سلك النبي ﷺ سبيل الأسلوب الحكيم؛ لأنه أراد أن ينقل اهتمام الصحب الكرام إلى ما يهمهم في حالهم تلك، فلما أخبروه بعدم علمهم، هل ذكر اسم الله على هذه الذبائح أو لا؟ بيّن أن الأولى بحالهم ألا ينشغلوا بهذا الأمر، وما عليهم سوى أن يذكروا اسم الله عليها ثم يأكلوا، قال الطيبي: ((كأنه قيل لهم: لا تهتموا بذلك ولا تسألوا عنها، فالذي يهمكم الآن أن تذكروا اسم الله عليها))[(٣)].

ومنه قوله ﷺ: "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَان، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ"[(٤)].

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾: ٧٥٥٢.

(٢)باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٨.

(٣)ينظر: شرح الطيبي: ٩/٢٨٠٥.

(٤) باب قول الله تعالى:﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٣.

فرح الصحابة الذين كانوا بحضرة النبي ﷺ لما سمعوا هذا الخبر، فالإيمان بالله ورسوله ﷺ، وإقامة الصلاة وصيام رمضان تكفل للمؤمنين دخول الجنّة، فسألوا النبي ﷺ أينبئوا الناس بذلك؟ لم يجبهم الرسول ﷺ عن موافقته من عدمها، وإنما قال: (إنّ في الجنّة مائة درجة ..)؛ لأنه أراد ألا تقف همة أمته عند دخول الجنّة فحسب، فالجنة منازل ودرجات، وهذا من كمال رحمته بأمته. لقد أجابهم بإخبارهم عما هو أعظم مما يريدون إخبار الناس به؛ لتتجه إليها رغباتهم، وتقصدها هممهم.

- الالتفات:

هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم، والخطاب، والغيبة، بعد التعبير عنه بطريق آخر منها[1].

وقد أوضح الزمخشري الفائدة العامة للالتفات، فذكر أنه أسلوب من أساليب العرب آتٍ ((على عادة افتتانهم في الكلام، وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن؛ تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد))[2].

ويؤكد ابن الأثير على أنّ لكل التفات فائدة تقتضيه، مشيرًا إلى عدم اكتفاء الالتفات بتنبيه السامع وإيقاظه، فيقول: ((والذي عندي في ذلك أنّ الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضتها، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تحد بحد، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها))[3].

ومن شواهد الالتفات ما ورد في حديث فرض الصلاة الطويل، جاء فيه أنّ موسى عليه السلام كان يراجع النبي ﷺ كلما نزل من عند الله عز وجل، فيقول له: إنّ أمتك لا تستطيع ذلك، حتى خفّف الله عز وجل عن أمة محمد ﷺ فجعلها خمس صلوات، فقال موسى عليه السلام

---

(١) ينظر: الإيضاح: ٨٤.

(٢) الكشاف: ٢٩.

(٣) المثل السائر: ٢/١٣٦.

لمحمد ﷺ كما يروي أنس ذلك: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ، فَأُمَّتُكَ أَضْعَفُ أَجْسَادًا وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ، كُلَّ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ لِيُشِيرَ عَلَيْهِ وَلا يَكْرَهُ ذَلِكَ جِبْرِيلُ، فَرَفَعَهُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ فَقَالَ: "يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، فَخَفِّفْ عَنَّا، فَقَالَ الْجَبَّارُ: يَا مُحَمَّدُ قَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ قَالَ: إِنَّهُ لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ كَمَا فَرَضْتُهُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ، قَالَ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ.."(١).

يظهر هذا الحديث كمال شفقة محمد ﷺ بأمته، وحرصه الشديد على امتثالهم أوامر الله ﷻ، حيث تتكرر مطالبته لربه بأن يخفف عن أمته، حتى أكرمه الله بجعلها خمسًا بأجر خمسين؛ فضلا منه ومنّة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد جاء الالتفات شاهدًا على هذه الشفقة، مؤكدًا هذا الحرص، فقد التفت ﷺ من الغيبة إلى التكلم في قوله: (يا رب، إنّ أمتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا) إذ كان مقتضى الظاهر أن يقول: (فخفف عنهم) لكنه جعلهم بضعة منه، فأجساد أمته وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم ليست إلا جسده وقلبه وسمعه وبصره وبدنه، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾{التوبة: ١٢٨}، أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم، ويحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، شديد الرحمة والرأفة بكم(٢).

ومنه أيضًا قوله ﷺ: " اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ"(٣).

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ : ٧٥١٧.

(٢) ينظر: تفسير السعدي: ٣٥٦.

(٣) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : ٧٤٤١.

جاء الكلام مخالفًا لمقتضى الظاهر، حيث عدل ﷺ عن الغيبة إلى التكلم، فقال: (فإني على الحوض)، وإلا فإن الأصل أن يقال: (فإنه على الحوض)، وما ذلك إلا ليستحث القلوب المؤمنة على الصبر والمصابرة، ويحفزها على المكابدة المجاهدة، فكأنّ النبي ﷺ يوجه حديثه إلى كل مؤمن على وجه الخصوص بأني أنتظرك هناك فاصبر وصابر، وتحمل الأذى في سبيل الله؛ لتظفر باللقيا.

ومن الالتفات ما ورد في حديث التحيات، قال ﷺ: "التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .."[(١)].

انتقل البيان النبوي من الغيبة إلى الخطاب في قوله: (السلام عليك)، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: (السلام على النبي)، ولعل السر في هذا هو قوة استحضار شخصية الرسول ﷺ، وكأنّه أمامك تخاطبه كل يوم خمس مرات على الأقل، وفي هذا تجديد للعهد والميثاق بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، فالمسلم مهما تباعدت به السنون عن زمن الرسول لكنه بهذا الذكر يستشعر قربه منه؛ مما يدفع به إلى الاستقامة على طريقه، والسير وفق منهجه، وعدم الحيدة عنه. استشعار القرب هذا يستحث السائرين على طريقته إلى المواصلة ويحفزهم على الاستمرار، كما أنه يستنهض همم المتكاسلين المتأخرين.

- المخالفة بين الإضمار والإظهار:

هذه صورة أخرى من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، الشاهدة على دقة التعبير في كلام البلغاء. وله صورتان: وضع المضمر موضع المظهر، ووضع المظهر موضع المضمر.

ومن الشواهد له قوله ﷺ: "إذَا سَألْتُم الله فَسَلُوهُ الفردَوس الأعْلَى، فإنَّه أوسَطُ الجنَّة، وأعْلَى الجنَّة، وفَوْقَه عَرْشُ الرَّحمن، ومِنهُ تَفَجَّرُ أنْهَارُ الجنَّة"[(٢)].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ : ٧٣٨١.

(٢) باب قول الله تعالى:﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٣.

فقد أظهر في موضع الإضمار، إذ مقتضى الظاهر أن يقال: (أوسط الجنة، وأعلاها)، لكن إصرار البيان النبوي على الإتيان به مظهرًا فيه تشويق لهذا الموعود، وزيادة ترغيب، حيث إنّ من المعروف أنّ المحب يطرب لسماع اسم محبوبه، فكيف إذا كان ذلك غاية قصده، ومنتهى أمله؟ لا شك في أنّ ترداد لفظ (الجنّة) على مسامع المؤمنين يزيد في اشتياقهم لها، ويحفزهم للعمل بما يقربهم منها.

ومنه قوله ﷺ في حديث رؤية الرب ﷻ: "وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمْ السَّعْدَانَ" قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: "فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلا اللَّهُ.."(١).

هذا بعضُ مشهدٍ من مشاهد الهول يوم القيامة؛ حيث الصراط ومرور الناس عليه، وقد حشد البيان النبوي طاقته ليسهم في الترهيب من ذلك اليوم عبر أساليب كثيرة في هذا المقطع، منها الإظهار مكان الإضمار، فقد جاء قوله: (هل رأيتم السعدان؟ ..... فإنها مثل شوك السعدان) مخالفًا لمقتضى الظاهر الذي يقتضي الإضمار، فالأصل أن يقال: (هل رأيتموه؟ ... فإنها مثله) لكن البيان النبوي أراد أن يقرر صورة شوك السعدان ويمكنها في النفوس ليبثَّ المهابة في القلوب؛ لتستعد لذلك اليوم بالمزيد من التقرب إلى الله ﷻ.

وقد يجيء الإظهار موضع الإضمار؛ ليبين قبح الفعل وشناعته، من ذلك ما جاء في الحديث القدسي، قال ﷺ: ((قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))(٢).

فالإظهار في قوله: (وأنا الدهر) أظهر هذا الفعل، وهو سب الدهر في منتهى الشناعة، إذ كيف يجرؤ أحد على إيذاء خالقه ﷻ؟

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : ٧٤٣٧.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾: ٧٤٩١.

وفي قوله ﷺ: "قال الله ﷻ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ"[1].

فقد كان مقتضى الظاهر أن يقال: (ولخلوف فمه)، لكن لما كان المقام مقام حديث تكريم للصائمين، وإبراز لفضيلة هذه العبادة، جاء الإظهار بدل الإضمار إشارة إلى كمال العناية بهم، كما أنّ في الإظهار تكريمًا للصائمين، فحقهم الإظهار والإشهار.

(١) باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٢.

- المبحث الثاني: الفصل والوصل:

الفصل هو ترك عطف الجمل على بعضها، والوصل: عطفها، ويهدف البحث في هذا الدرس إلى إلقاء الضوء على ((المناسبات بين المعاني، وتحديد صلات بعضها ببعض، وكيف ساغ أن تلتقي هذه بتلك؟ ولم وصلت؟ ولم فصلت؟ وما نوع الصلات؟ وما درجتها؟ إلى آخر هذا البحث الذي يتدبر أعطاف الجملة والجمل؛ ليرى ما بينها وبين أعطاف جيرانها من علاقات، كما يتناول مقاطع الكلام ومفاصله عند منتهى أجزاء معانيه، ما كبر منها وما صغر؛ ليتأمل هذه المقاطع ويحدد الخيط الرفيع الغائر في ضمير الكلام، فيجمع أوله وآخره، وهل انخرط في هذا الخيط حبّات من جنس واحد؟ أو من أجناس متشابهة؟ أم كانت تسقط فيه حبّات من أجناس متباعدة؟ وهل وقع هذا البعيد في سياقه موقع القريب المأنوس فقبله السياق وتشربه النص، وتمكن فيه؟ أم أنه ظل فيه غريبًا ناشزًا ينبو في مكانه، وتستثقله النفوس، ويتنافر به النظم، أو يتشارد به الكلام))[١].

لقد كان هذا الدرس حاضرًا في التصانيف البلاغية منذ وقت مبكر؛ فالجاحظ يذكر أنّ الفارسي سئل: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل[٢]، ويقف أبو هلال العسكري وقفة طويلة يذكر فيها أقوالا كثيرة تنبئ عن أهمية هذا الأسلوب[٣]، ورفعة شأنه.

ثم جاء بعد ذلك عبدالقاهر، فأكّد علو كعب هذا الأسلوب في العربية؛ حيث أشار إلى أنّ العلم بمواضع الفصل والوصل ((من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلّص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد))[٤].

وقد وضع عبدالقاهر أصول بحث الوصل والفصل وقوانينه، موردًا الكثير من الأمثلة مع تحليلها، ثم جاء بعده القزويني وغيره من الشرّاح فحددوا قواعد هذا الأسلوب،

---

(١) دلالات التراكيب: ٢٦٧.

(٢) ينظر: البيان والتبيين: ٨٨/١.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين: ٤٠٦.

(٤) دلائل الإعجاز: ٢٢٢.

فكان تحديدهم أدق ضبطاً، وقواعدهم أكثر تقييدًا[1]؛ حيث وضعوا للفصل خمس مواضع، وللوصل موضعين[2].

ومن الشواهد الحافلة بهذا الأسلوب قوله ﷺ يوم الأحزاب: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمْ الأَحْزَابَ، وَزَلْزِلْ بِهِمْ"[3].

فقد فصل بين الجملتين (منزل الكتاب، سريع الحساب)؛ لما بينهما من كمال الاتصال، والفصل بينهما يوحي إلى كمال اجتماعها في الموصوف وهو الله ﷻ. وجاء فصل جملة (اهزم الأحزاب) عما قبلها؛ لما بينهما من كمال الاتصال، فقد اتفقت الجملتان في الإنشائية؛ فالأولى نداء، والثانية دعائية، ولا جامع بينهما، وهذا خلاف ما جاءت عليه الجملة الأخيرة (وزلزل بهم) التي عطفت على ما قبلها؛ وذلك للاتفاق في الإنشائية، ولوجود الرابط بين الجملتين، وهو سؤال الله ﷻ إلحاق الهزيمة والهلاك بالكفار المحاربين لرسوله ﷺ.

ومنه قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ؛ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ"[4].

هذا الدعاء من الأدعية المشروعة المُرغَّب فيها عند النوم، وقد جاءت الجمل الأول معطوف بعضها على بعض؛ لما بينهما من الترابط الوثيق والالتحام، وهي جمل متفقة في الخبرية أيضًا، وهذا العطف يشي بشدة حاجة الإنسان إلى ربه من كل وجه، وأنّه في غاية الافتقار إلى ربه، ثم جاء الفصل بعد ذلك في قوله: (رغبة ورهبة إليك) على سبيل الاستئناف البياني، فلما ذكر استسلامه لله ﷻ وانقياده له، وتوكله عليه، تشوفت النفس إلى معرفة سبب ذلك، فجاء الجواب (رغبة ورهبة إليك) مفصولا عما سبق. ثم جاءت

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٣/١١٩.

(٢) ينظر: التلخيص: ١٧٥.

(٣) باب قول الله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: ٧٤٨٩.

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: ٧٤٨٨.

الجملة التالية لهذا الجواب (لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك) مفصولة أيضًا؛ لما بينهما من كمال الاتصال؛ فهي مؤكدة لمعنى الجملة السابقة، فالعبد يرجو ربه ويخافه؛ لأنه خالقه ومولاه فلا مفر منه إلا إليه. وفي ختام الحديث جاءت الجملتان الأخيرتان موصولا بينهما (آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت) للاتفاق في الخبرية مع وجود الرابط فيما بينهما، وهو الإيمان بأصلين من أصول الإيمان.

وفي قوله ﷺ : " يَدُ اللَّهِ مَلأَى، لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.."[1].

هذا المقطع يضم ثلاث جمل مفصول بعضها عن بعض، غير أنها في أقوى مراتب الاتصال؛ حيث يجمعها معنى واحد، وهو سعة الجود الإلهي والعطاء الرباني الذي لا يحد ولا يعد؛ فقد أبانت الجملة الأولى عن سعة عطاء الله ﷻ، وأنه في غاية الغنى، وعنده من الفضل ما لا نهاية له[2]، ثم جاءت الجملة الثانية مؤكدة للأولى؛ حيث إنّ ما عند الله ﷻ لا تنقصه النفقات والأعطيات ولو كبرت وكثرت[3]، بعد ذلك جاءت الجملة الثالثة لتزيد المعنى تأكيدًا فوق تأكيد؛ فيد الله ﷻ دائمة الصب بالعطاء[4]. وهكذا نجد أنّ الجمل فصلت عن بعضها؛ لما بينها من الترابط الوثيق، فكل جملة تؤكد أختها؛ ليترسخ المعنى في ذهن المتلقي، كما أنّ الفصل يشير إلى أنّ كل صفة من هذه الصفات كفيلة بترغيب المؤمنين في فضل الله.

ومن شواهد الفصل ما رواه أبو مُوسَى رضي الله عنه قَالَ:كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا، فَقَالَ: "ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا"[5].

---

(١) باب قول الله تعالى:﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾:٧٤١١.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٣٧٣/١٧.

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٦٨٥.

(٤) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٨٨/٧.

(٥) باب قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾: ٧٣٨٦.

يوجه رسول الله ﷺ المؤمنين إلى الرفق بأنفسهم، وخفض أصواتهم في التكبير، فرفع الصوت إنما يرفعه الإنسان؛ لبعد من يخاطبه؛ ليسمعه، وأنتم تدعون الله السميع القريب[1].

جاء قوله: (تدعون سميعًا بصيرًا قريبًا) مفصولاً عما قبله؛ وذلك لمجيئه في سياق تأكيد الجملة السابقة، فبين الجملتين كمال اتصال، وفي الفصل إيحاء إلى المفاصلة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بعد سماعهم هذا التوجيه، وجاء قوله: (قريبًا) تأكيدًا بعد تأكيد، وذلك لأنّ ((البعيد وإن كان ممن يسمع ويبصر، لكنه لبعده قد لا يسمع ولا يبصر))[2].

وفي قوله ﷺ: "أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلاّلا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.."[3].

لّما كان بين الجملتين شبه كمال اتصال فصل بينهما، فالجملة الثانية مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، فلما قال النبي ﷺ: (فلا ترجعوا بعدي ضلاّلاً) كأنّ سائلاً بدت عليه آثار الدهشة يسأل: وكيف نرجع ضلاّلاً بعد إيماننا بك؟ فقال: (يضرب بعضكم رقاب بعض).

ونحو هذا قوله ﷺ: "لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"[4].

يشير الحديث إلى طائفة من المؤمنين يبقون على إقامة شرع الله ﷻ حتى تقوم الساعة[5]، ثم ذكر ما يؤكد هذا البقاء بقوله: (ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم) فهم قائمون بأمر الله مهما ووجهوا من تكذيب ومخالفة وتضييق، وفصلت هذه الجملة عما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال؛ فالجملة الثانية جاءت مؤكدة للأولى. ويشير هذا

---

(١) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٢٧/١٧.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٣٣٣/١٧.

(٣) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾: ٧٤٦٠.

(٥) ينظر: عمدة القاري: ٢١٣/٢٥.

الفصل القائم على كمال الاتصال إلى انفصالهم عن بقية النّاس لا سيما المخالفين والمكذبين، فهم وحدهم القائمون بشرع الله دون غيرهم، مع اتصالهم بالناس واختلاطهم بهم ومعايشتهم إياهم. ويشير قوله: (حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) إلى طول المعاناة والمكابدة مع طول الصبر والتحمل.

ومن الشواهد الشاهدة على دقة هذا الأسلوب قوله ﷺ: "مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنْ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"(١).

جاء الفصل بين الجملتين الأوليين لما بينهما من شبه كمال الاتصال؛ فلما ذكر أنه ليس ثمّ أحد أصبر على سماع أذى من الله، تشوفت النفس إلى معرفة ذلك الأذى، وكيف يكون؟ فجاء الجواب في جملة فصلت عما قبلها (يدّعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم). ولعل الوصل بـــ(ثمّ) فيه إلماح إلى ما بين الجهتين من تباعد كبير؛ بين المخلوق الذي آذى خالقه بهذه الألفاظ، وبين الخالق المنعم المتفضل على عباده حتى من يؤذيه منهم، فهو تقابل من كل الوجوه.

وفي قوله ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ وَلا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ"(٢).

مشهد من المشاهد المروعة يوم القيامة، حيث يقوم الله ﷻ بمناقشة الخلائق منذ بدء الخليقة من آدم إلى قيام الساعة، لم فعلت كذا؟ لم صنعت هذا؟(٣)، فالفصل في قوله: (ليس بينه وبينه ترجمان) عما سبقها؛ جاء لكون هذه الجملة جاءت مبينة وموضحة لمن بدا له سؤال عن طريقة التكليم، فالفصل لشبه كمال الاتصال.

ومن الشواهد أيضًا قوله ﷺ: "جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا"(٤).

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾: ٧٣٧٨.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٣.

(٣) ينظر: شرح عيون الأخبار للشيخ عبدالكريم الخضير (مخطوط على الشبكة العالمية).

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٤.

فقد وصل بين الجملتين (جنتان .. وجنتان) لاتفاقهما في الخبرية مع وجود الرابط بينهما، فالحديث عن نوعين من الجنّات التي أعدها الله لعباده، وجاء الفصل في كلٍّ من الجملتين في قوله: (جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما) وقوله: (جنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما) لما بينهما من كمال الاتصال، فالجملة الثانية في كلٍّ من الجملتين بدل بعض من كل للجملة الأولى.

ومن شواهد كمال الاتصال قوله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَها.."[(١)].

فالفصل في الجمل جاء لما بينها من كمال الاتصال، فالجملة الثانية المتعلقة بالطعم والريح فصلت عما قبلها؛ لكونها بدلاً من الجملة الأولى.

ومما يناقش في درس الوصل الدلالات البلاغية لحروف العطف (الواو) و (الفاء) و (ثم)، فـــ(الواو) لمطلق الجمع، و (الفاء) للترتيب مع التعقيب، و (ثم) للترتيب مع التراخي.

وقد سبق ذكر بعض الشواهد المتعلقة بالعطف بالواو، أما (ثم)، فقوله ﷺ: "لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنْ النَّارِ بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا؛ عُقُوبَة، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمْ: الْجَهَنَّمِيُّونَ"[(٢)].

هذا إخبار عن حال عصاة الموحدين بأنّهم يدخلون النّار، فيصيبهم سفع من النار، أي: أثر من النار[(٣)]، ولا يمكن الجزم هنا بإفادة (ثم) للتراخي في الإخراج؛ لأنّ ذلك في علم الله ﷻ، يبقيهم في النار ما شاء، لكنها تفيد المفارقة الكبيرة بين الحالين، ففي الحال الأولى عذاب وجحيم، وفي الأخرى عطاء ونعيم.

وتأتي الفاء للترتيب بلا مهلة، وتظهر هذه الدلالة فيما رواه أبو هريرة ﷺ من أنّ النبي ﷺ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ "أَنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَوَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَأَسْرَعَ

(١) باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦٠.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : ٧٤٥٠.

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٣٣.

وَبَذَرَ، فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ"(١).

حيث تشير الفاءات المتعاقبة (فأسرع .. فتبادر .. فيقول) إلى شغف ذلك الرجل بالزرع، كما توضح أيضًا النعيم العظيم الذي يلقاه المؤمنون في الجنّة، حيث تبادر الطرفَ نبات الزرع واستحصاده وتكويره مباشرة دون تراخٍ، قال العيني: ((والمعنى: أنه لما بذر لم يكن بينه وبين استواء الزرع، ونجاز أمره كله من القلع والحصد والتذرية والجمع إلا قدر لمحة البصر))(٢)، وهذا محض فضل من الله وإكرام.

وبعد فإنّ باب الفصل والوصل من أدق أبواب البلاغة، لا يستطيع الوقوف على أسراره إلا من تفقّه في كلام العرب، وأوتي في فهمه ((طبعًا سليمًا، ورزق في إدراك أسراره ذوقًا صحيحًا؛ ولهذا قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل والوصل، وما قصرها عليه إلا لأنّ الأمر كذلك، وإنما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه، وأنّ أحدًا لا يكمل فيه إلا كمل في سائر فنونها، فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه في البيان))(٣).

---

(١) باب كلام الرب مع أهل الجنة: ٧٥١٩.

(٢) عمدة القاري: ٢٧٤/١٢.

(٣) الإيضاح: ١٦٥.

- المبحث الثالث: الإيجاز:

عُني البلاغيون بأسلوب الإيجاز عناية كبيرة، ولا غرو فهو من أشرف خصائص اللغة العربية، الناطقة بتمكنها، وقدرتها على تكثيف المعاني، وطي كثير من الألفاظ بل والجمل.

الإيجاز في اللغة: قصر الكلام وتقليله واختصاره[1].

وفي الاصطلاح، يرى الجاحظ بأنه قلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني[2].

وقد أشاد به جماعة من البلاغيين، يقول ابن الأثير: ((وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة، من سبق إلى غايتها وما صلّى[3]، وضرب في درجاتها بالقدح المعلّى، وذلك لعلو مكانه، وتعذر إمكانه))[4].

ومع ولع العرب بهذا الأسلوب واحتفائهم به لكنهم جعلوا المقام الفيصل في حسن هذا الأسلوب أو قبحه، وممن أشار إلى هذا ابن قتيبة في قوله: ((لو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال، لجرّده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام))[5].

ويأتي الإيجاز على ضربين، لكل منهما دلالاته ودواعيه[6]:

١) إيجاز القِصَر.

٢) إيجاز الحذف.

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٢٢١/١٥.

(٢) ينظر: البيان والتبيين: ٢٨/٢.

(٣) المُصَلِّي من الخَيْل: الذي يجيء بعدَ السابقِ لأَن رأْسَه يَلِي صَلا المتقدِّم وهو تالي السابق، ينظر: لسان العرب: ٣٩٨/٧ مادة (صلا).

(٤) المثل السائر: ٢٠٩/٢.

(٥) أدب الكاتب: ٢١.

(٦) ينظر: الإيضاح: ١٩٩.

١) إيجاز القِصَر:

هذا الضرب قائم على المقابلة بين التقليل والتكثير، للألفاظ والمعاني، حيث يعتمد على تكثيف المعاني. وهو في اصطلاح البلاغيين: ((الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه))(١).

وأثبت أبو هلال العسكري في كتابه الكثير من النقول الناطقة ببلاغة هذا الأسلوب، فقد روى أنه ((قيل لبعض المحدثين: مالك لا تزيد على أربعة واثنين؟ قال: هنّ بالقلوب أوقع، وإلى الحفظ أسرع، وبالألسن أعلق، وللمعاني أجمع، وصاحبها أبلغ وأوجز))(٢).

وثمة أمر يخص الحديث النبوي بشكل خاص، فقد كان النبي ﷺ معلم البشرية، فاقتضى أن يكون الكلام القليل أكثر؛ أوعى للحفظ والتبليغ. يقول العقاد: ((إنّ الإبلاغ في كلام النبي هو: اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية في بضع كلمات، وقد يبسطها الشارحون في مجلّدات))(٣).

وهذا النوع من الإيجاز يحتاج إلى إعمال فكر، وطول تأمل، وإلى هذا أشار الرمّاني، فقد ذكر أنّ إيجاز القِصَر أدقُّ من إيجاز الحذف، وفي ذلك يقول: ((وأما الإيجاز بالقِصَر دون الحذف، فهو أغمض من الحذف، وإن كان الحذف غامضًا؛ للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها من المواضع التي لا يصلح))(٤).

ويؤكد ابن الأثير خفاء دلالة إيجاز القِصَر مشيرًا إلى أنّ ((التنبه لها عسر؛ لأنه يحتاج إلى فضل تأمل، وطول فكرة؛ لخفاء ما يستدل عليه، ولا يستنبط ذلك إلا من رسخت قدمه في ممارسة علم البيان، وصار له خليقة وملكة))(٥).

---

(١) البيان والتبيين: ٢/١٦.

(٢) كتاب الصناعتين: ١٥٨.

(٣) عبقرية محمد: ٧٧.

(٤) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٧٧.

(٥) المثل السائر: ٢/٢١٦.

ومن شواهد هذا النوع، ما رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: "يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟" قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟" قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَلاّ يُعَذِّبَهُمْ"[(١)].

ألفاظ في غاية الوجازة توضح العلاقة بين الخالق والمخلوق، فحق الله على عباده يبينها ﷺ في عبارة قصيرة (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا) فهي شاملة لعمل الصالحات واجتناب المحرمات، وعطف الشرك على العبادة لأنه تمام التوحيد[(٢)]. في أثناء هذه الكلمات القليلة تنضوي الكثير من المعاني، حيث تشمل العبادات القولية والفعلية بكل ألوانها، والأمر نفسه يتكرر في التحذير من الشرك؛ فالشرك بالله ليس سبيلا واحدًا وإنما سبل متشعبة ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾{الأنعام: ١٥٣}، لكنه تحذير في إيجاز بليغ أفاد الإطلاق عن جميع سبل الشرك ووسائله. وفي أقصر من الجملة الأولى بيّن حق العباد على الله، وهذا الحق ((حق كرم من الله تعالى؛ لأنه هو الذي وفقهم وأعانهم وسددهم))[(٣)]. وتختصر هذه الجملة وصف ما أعدّه الرحمن لعباده المؤمنين من الجنان، وما يلقونه فيها من النعيم المقيم والعطاء المستديم. ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ {الرحمن: ٦٠}.

ومنه أيضًا قوله ﷺ: "لا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ النَّاسَ"[(٤)].

تظهر براعة البيان النبوي في الإيجاز المرتكز على تكثيف المعاني، فالنفوس تملّ الإطالة والإسهاب، وفي هذا النص يرشد المصطفى ﷺ بكل إيجاز إلى سبيل تُدرَك به رحمة أرحم الراحمين: ارحم الناس يرحمك الله. ثم إنك ترى إيجازًا آخر طوى فيه ذكر هؤلاء النَّاس؛ ليعمّ الجميع بلا استثناء، ثم إنه أيضًا لم يبين نوع الرحمة التي يُنال بها هذا الجزاء العظيم، فجاء اللفظ مقتصرًا على ذكر الرحمة فقط؛ ليشمل كلّ الرّحمات، قال ابن بطال:

---

(١) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٣.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٦٦٩/١٤.

(٣) شرح كتاب الإيمان من صحيح مسلم، للشيخ ابن جبرين، موقع الشيخ عبدالله بن جبرين الشبكي.

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾: ٧٣٧٦.

((فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر...ويدخل في الرحمة: التعاهد بالإطعام والسقي، والتخفيف في الحمل ...))[1]. عبارة موجزة حملت بين طياتها معان وافرة.

ومما يبدي براعة هذا الأسلوب ما رواه أبو موسى من أنّ رجلا جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، فأي ذلك في سبيل الله؟ قَالَ: "مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[2].

جاءت إجابة الرسول ﷺ على تلك الصور الواردة في سؤال الرجل ((في غاية البلاغة والإيجاز، وهي من جوامع كلمه ﷺ؛ لأنه إن أجابه بأنّ جميع ما ذكره ليس في سبيل الله، احتمل أن يكون ما عدا ذلك كلّه في سبيل الله، وليس كذلك، فعدل إلى لفظ جامع عدل به عن ماهية القتال إلى حال المقاتل، فتضمن الجواب وزيادة))[3]. فالمصطفى ﷺ أراد أن يشرع قاعدة للمقاتل في سبيل الله، فالصور الواردة في الحديث قد تتغير مع تعاقب الزمان، وتغير المكان، فمن أراد أن يعرف قتالا ما، هل هو في سبيل الله؟ أن يتأمل هذا القانون النبويّ.

وفي الحديث القدسي يقول ﷺ: "الصَّوْمُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ .."[4].

تحت هذه العبارة الموجزة تنضوي الكثير من المعاني الجميلة الرائقة، ففي هذا المقطع يتدثر كم هائل من الأجور والرغائب التي يسعى المؤمنون إلى الفوز بها، فحين يتكفل الكريم ﷻ بأجر عمل ما فإنّ إدراك بعض ذلك لا يحصى، وفي هذا تحضيض للمؤمنين على التقرب إلى الله ﷻ بهذه القربة الجليلة.

---

(١) شرح ابن بطال: ٢١٩/٩.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ : ٧٤٥٨.

(٣) فتح الباري: ٧٨/٧.

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٤٩٢.

وفي وصف النعيم العظيم الذي أعدّه الله للمؤمنين في جنته، يقول ﷺ: "قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"(١).

يختصر البيان النبوي النعيم العظيم الذي ينتظر المؤمنين في جمل قصيرة ليس فيها تقليل منه، وإنما توحي بعظم ذلك النعيم، فبلاغة النبوة جمعت بين المقابلة بين التقليل والتكثير؛ التقليل للألفاظ والتكثير للمعاني. النعيم الدائم جاء في جمل قصيرة، لكنها تحوي معاني تعجز المجلدات والمطولات عن لَمِّ شملها، فهو نعيم لم تره عين من قبل، و لم تسمع به أذن، و لم يخطر على قلب بشر، إذن هو شيء لا تدركه الحواس، ولا تتخيله العقول. أي وصف يغري بالنعيم أكثر من هذا؟

ومن شواهد إيجاز القصر قوله ﷺ في الحديث القدسي أيضًا: "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي"(٢).

فالعبد إذا أحسن الظنّ بربه كان خيرًا له، وإنْ أساء الظنّ فشر عليه، وإحسان الظنّ بالله يحصل للعبد ((إذا فعل ما يوجب فضل الله ورجاءه، فيعمل الصالحات، ويحسن الظنّ بأنّ الله تعالى يقبله، أمّا أنْ يحسن الظنّ وهو لا يعمل فهذا من باب التمنّي على الله، ومن أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأمانيّ فهو عاجز))(٣). قال ابن القيم: ((وحسن الظنّ إنما يكون بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وتقديره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها، ثم يحسن ظنه بربه))(٤).

وهكذا، فإنّ هذا الأسلوب شائع في كلام الرسول ﷺ، ولا غرو فالبيان النبوي يسلك في إيصال رسالته ونشر رحمته كل سبيل بليغ، يقول الزيّات: ((الإيجاز غالب على أسلوب الرسول ﷺ؛ لأنّ الإيجاز قوة في التعبير، وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل، وقوة الروح، وقوة الشعور، وقوة الذهن، وهذه القوى

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٤٩٨.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾: ٧٤٠٥.

(٣) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين: ٣/٣٣٥.

(٤) الجواب الكافي: ٤٥.

كلها على أكمل ما تكون في الرسول ﷺ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم في خطبه وأحاديثه))[1].

٢) إيجاز الحذف:

وهو ما يكون بحذف كلمة، أو جملة، أو أكثر؛ لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه[2].

وقد تحدث عبدالقاهر عن قيمة الحذف في الكلام، فقال: ((هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بيانًا إذا لم تُبِن))[3].

ولا بد أن تشتمل جملة الحذف على ما يدل عليه، فـ((الأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب))[4].

والحذف يأتي في الكلام ((لتصفية العبارة، وترويق الأسلوب من ألفاظ يُفاد معناها بدونها؛ لدلالة القرائن عليها، وهذا الاختصار وحذف فضول الألفاظ يجري مجرى الأساس الذي بُنيت عليه الأساليب البليغة ... ومقصد آخر تراه وراء كل حذف، هو بعث الفكر، وتنشيط الخيال، وإثارة الانتباه؛ ليقع السامع على مراد الكلام، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال، وخير الكلام ما يدفعك إلى التفكير، ويستفز حسك وملكاتك))[5].

والبدء سيكون بما ورد من حذف المسند إليه، من ذلك ما رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه من النبي ﷺ قال: "يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟" قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ:

---

(١) وحي الرسالة: ٨١/٣.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٢١٦/٢.

(٣) دلائل الإعجاز: ١٤٦.

(٤) المثل السائر: ٢٢٠/٢.

(٥) خصائص التراكيب: ١٦٠.

"أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟" قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ"[1].

فقد حُذف المبتدأ في إجابتي النبي ﷺ عن سؤاليه، فالأصل أن يقال: (حق الله على العباد أن يعبدوه ..) وفي الأخرى: (حق العباد على الله ألا يعذبهم)، لكنّه سلك سبيل الإيجاز والاختصار، لا سيما وأنّ المسند إليه معلوم.

ومن حذف المسند إليه، بناء الفعل للمفعول، كما في قوله ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ أَوْ مِنْ الْجَنَّةِ"[2].

بني الفعل (كتب) للمفعول؛ وذلك للعلم بالفاعل الحقيقي، وهو الله، وهذا أمر بدهي فلا يمكن لمخلوق مهما علا شأنه أن يحكم لأحد بجنّة أو نار، وإنما علم ذلك عند الله ﷻ وحده.

أما حذف المسند، فمن شواهده قوله ﷺ: "التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ، وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.."[3].

فقد حذف الخبر في قوله: (والصلوات) وكذلك (والطيبات)، أي: الصلوات لله، والطيبات لله، والغرض من ذلك الإيجاز والاختصار. وقد تقدم ما يدل عليه، في قوله: (التحيات لله).

ومن مظاهر الحذف: حذف المفعول، وفي هذا الحذف تكثر اللطائف[4]، وتدق الأسرار، وهو من أخص وجوه الحذف.

---

(١) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٣.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾: ٧٥٥٢.

(٣) باب قول الله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾: ٧٣٨١.

(٤) ينظر: المثل السائر: ٢/٢٣٩.

ومن شواهد حذف المفعول قوله ﷺ لما جاء رسول إحدى بناته تدعوه في وفاة ابن لها فقال: "ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى.."(1).

حذف مفعول (أخذ/ أعطى) للدلالة على العموم فيشمل أخذ الولد وإعطاءه وغيرهما، فليس هذا التوجيه النبوي بما فيه من الأمر بالصبر والاحتساب مخاطب به من فقد ولده فحسب. وإنّما لكل من ابتُلِي بفقد أحد يعزُّ عليه؛ قريبًا كان أم بعيدًا.

وقد يكون حذف المفعول من أجل إثبات المعنى للفاعل دون نظر لما وراء ذلك، كما جاء في قوله ﷺ في آخر خطبة الوداع التي تضمنت أصول الدين وقواعده: "أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟"(2).

يُلحظ هنا أنّ النبي ﷺ لم يذكر الأمور التي بلّغها وقام بها، فطيُّ المفعول هنا كان الغرض منه الإشهاد على تبليغه دون النظر إلى ما سوى ذلك من الأمور المبلَّغة وغيرها، ويعضد هذا أنه لم يُعن أيضًا، بذكر الأوقات التي كان يبلِّغ فيها، ولا الأماكن التي بلّغ فيها. فالتركيز هنا منصب على التبليغ وإقامة الحجة. وقد يضاف إلى ذلك ضيق المقام؛ فمن غير الممكن أن تحيط خطبة عابرة بحياة كاملة، وهل كانت حياته ﷺ إلا بلاغًا؟

ومنه قوله ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ أَوْ مِنْ الْجَنَّةِ" قَالُوا: أَلا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: "اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ "(3).

حذف البيان النبوي مفعول (اعملوا) ليتجه النظر وتنشغل النفوس بالمبادرة بالأعمال الصالحة، وعدم الاتكال، فالمقام لم يكن لذكر الأعمال الصالحة وبيان مراتبها، وإنما للحث على فعل الأسباب المقربة إلى الله.

ويحذف المفعول للاختصار والإيجاز إذا كان معلوماً بدلالة الحال، كقوله ﷺ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْعَصْرِ وَصَلاةِ

---

(1) باب قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾: ٧٣٧٧.

(2) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

(3) باب قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾: ٧٥٥٢.

الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ – فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ"[١].

ففي قوله: (وهم يصلُّون) لم تُبيَّن الصلاة المرادة؛ وذلك لأنّه قد جرى لها ذكر؛ فهما صلاتا الفجر والعصر، وتعرف الصلاة المقصودة بالنظر من خلال وقت المعراج، وقد يكون الغرض من الحذف هنا أنّ الغرض إثبات الفعل للفاعل، أي: بيان أنهم مستمرون في طاعة ربهم، مواظبون على ذلك.

ومن مظاهر الحذف: حذف المضاف، كما ورد في خطبة الوداع قال ﷺ: " فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، - قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ – وَأَعْرَاضَكُمْ، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا .."[٢].

ففي هذا النص حذف، تقديره: إنّ سفك دمائكم، وأخذ أموالكم، وثلب أعراضكم عليكم حرام[٣].

والغرض البادي من هذا الحذف الاختصار؛ لضيق المقام فالرسول ﷺ أراد أن يعرض في هذه الخطبة كثيرًا من أحكام الشريعة، ويلخص فيها أهمَّ معالم الدين. ويذهب الطيبي إلى أنّ سبب الحذف هنا: علم المخاطبين بالمحذوف[٤]، ولا يمنع أن يتوارد أكثر من سبب، و هذا برهان علو كعب البيان النبوي.

ومن صور الحذف: حذف الجملة، كما جاء حديث أبي هريرة أنّ النبي ﷺ كان يومًا يحدِّث، وعنده رجل من أهل البادية "أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَوَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: دُونَكَ يَا

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: ٧٤٢٩.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

(٣) ينظر: فتح الباري: ١/٢٨١.

(٤) ينظر: شرح الطيبي: ٦/١٩٦٤.

ابْنَ آدَمَ فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ"[1].

ففي الحديث حذف بعد قوله: (ولكنّي أحب أن أزرع)، وتقديره: ((فأذن له بالزرع، فأسرع ..))[2]. حيث طوى ذكر بعض التفاصيل التي تفهم من السياق، وفي ذكرها إثقال وإطالة.

---

(١) باب كلام الرب مع أهل الجنّة: ٧٥١٩.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٢٧٤/١٢.

- المبحث الرابع: الإطناب:

لا يقل الإطناب أهمية عن الإيجاز، فهو أحد الأساليب التي يلجأ إليها البليغ في بث رسالته ونشرها. ولا ريب في أنّ النبي ﷺ كان مهمومًا بتبليغ رسالة التوحيد للناس، وسلوك الطريقة المثلى. ولّما كان للإطناب مقاماته الداعية إليه حرص البيان النبوي على سلوك هذا الطريق.

والإطناب في الاصطلاح: ((هو زيادة المعنى على اللفظ لفائدة))[1]، وفي هذا التعريف قيد مهم وهو الفائدة، فالزيادة تكون حشوًا أو تطويلا لا داعي له إذا خلت من الفائدة، إذن فللإطناب مواضع يحسن فيها، وأخرى يقبح فيها، وقد قرر هذا المعنى جمع من البلاغيين، فقال الجاحظ: ((وللإطالة موضع، وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضع، وليس ذلك من عجز))[2]. وأشار إلى نحو من هذا أبو هلال العسكري، حيث ذكر((أنّ الإيجاز والإطناب يُحتاج إليهما في جميع الكلام، وكلٍّ نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ))[3].

والإطناب يأتي في الكلام على صور متنوعة، وفيما يأتي الوقوف على أبرز الصور التي حفلت بها المادة المدروسة:

١) الإيضاح بعد الإبهام:

هذه الصورة يبدو معناها من تأمُّل مسمّاها، حيث يُجمل المتكلم المعنى ويبهمه، ثم يفصله ويبينه، وقد فصّل القزويني القول في أسرار هذه الصورة ولطائفها، فذكر أنّ من البواعث البلاغية لسلوك هذا الطريق أنْ يُرى ((المعنى في صورتين مختلفتين، أو ليتمكَّن في

---

(١) المثل السائر: ٢/٢٨٠.

(٢) الحيوان: ١/٩٣.

(٣) كتاب الصناعتين: ١٧١.

النفس فضل تمكُّن؛ فإنّ المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوّفت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يَرِد بعد ذلك، فإذا ألقي كذلك تمكَّن فيها فضل تمكُّن، وكان شعورها به أتم، أو لتكمل اللذّة بالعلم به، فإنّ الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذّة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوّقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذّة، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذّة أخرى، واللذّة عقيب الألم أقوى من اللذّة التي لم يتقدمها ألم، أو لتفخيم الأمر وتعظيمه))[١].

ومن الشواهد التي جاءت على هذا اللاحب قوله ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأ خَيْرٍ مِنْهُمْ .. "[٢].

فقد أجمل أولا في قوله: (وأنا معه إذا ذكرني) وهذا غاية في الحث على ذكر الله ﷻ، فأي شرف يحظى به العبد حين ينال رحمة الله وتوفيقه وتسديده وإعانته[٣]؟ وكفى بهذا ترغيبًا وتحضيضًا. ولكنّ الأمر بعد التفصيل يبدو أكثر إغراءً، حيث جاء الحث على الذكر في صورتين مختلفتين؛ فالأولى مجملة، والثانية مفصّلة مبينة، وقد أسهم التفصيل في زيادة الترغيب في ذكر الله ﷻ لما حمله معه من فضل عظيم. جاء التفصيل في قوله: (فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)؛ ليؤكد فضيلة الذكر عبر أسلوب يستفز القلوب المؤمنة. كما أنّ فيه إشارة إلى أنّ الجزاء من جنس العمل.

وفي قوله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ"[٤].

---

(١) الإيضاح: ٢١٣.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ : ٧٤٠٥.

(٣) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٣/١٧.

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٤٩١.

فلما أجمل في قوله: (يؤذيني ابن آدم) تشوفت النفوس وتطلعت إلى معرفة نوع ذلك الإيذاء، فالقلوب قبل الأسماع في حالة ترقب لمعرفة التفاصيل، لا سيما قلوب المؤمنين، فهي تتأذى من كل ما يؤذي خالقها ويخالف أمره، كما أنّ أولئك المؤمنين متلهفون لسماع الإيضاح؛ حيث يخشون أن يكونوا ممن خسروا أولاهم وأخراهم لأذيتهم الله، بعد ذلك يجيء الإيضاح ليتمكّن في النفوس فضل تمكّن، ولتحاذر كل نفس مؤمنة أن تقع في أذية الله وهي لا تشعر.

ومن الشواهد التي تظهر قيمة هذا الأسلوب، ما رواه عمرو بن تغلب ﷺ من أنّ النبي ﷺ أتاه مال من اليمن، فأعطى قومًا ومنع آخرين، فبلغه أنهم عتبوا، فقال: "إِنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الَّذِي أُعْطِي .."[1].

لَمَ تعطي الرجل يا رسول الله، وتدع الرجل؟ لَمَ كان الذي تدع أحب إليك من الذي تعطي؟ تساؤلات تنبعث لا شعوريًّا من كل متلق حال سماعه هذا الجزء من الحديث، إنه يتطلع بلهف شديد إلى الإجابة عن تساؤلاته تلك. ففي هذا من التشويق ما فيه، وبعد كل ذلك التأهب الذهني والاستعداد النفسي، يقول ﷺ: "أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ". لقد أسهم هذا الأسلوب التشويقي بكل براعة في ترسيخ معاني الاستغناء بالله عن المخلوقين والرضا والقناعة بما قسم الله.

ويحسن هذا الأسلوب ويفضل في مقامات التحذير والتخويف، ومما ورد في ذلك قوله ﷺ: "ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ"[2]. إنّ قلوب المؤمنين لتنخلع حين سماع هذا التخويف، فهي بلا شك بعد سماعها لهذا المقطع ستصيخ بآذانها وتجمع نفوسها لتعرف أوصاف هؤلاء الثلاثة، وهذه غاية البيان النبوي في سلوك هذا الأسلوب، فهو إنما يريد جذب الانتباه وتركيز الأذهان، لترسخ أوصاف الثلاثة في الأذهان، وتستقر

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾: ٧٥٣٥.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٦.

في القلوب. بعد أن يظفر بذلك، يأتي الإيضاح "رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ؛ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ"(١).

ونحو هذا قوله ﷺ لوفد عبد القيس: "آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتُعْطُوا مِنْ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، لا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالظُّرُوفِ الْمُزَفَّتَةِ، وَالْحَنْتَمَةِ(٢)"(٣).

فقد جاء الحديث على سبيل الإجمال بالعدد قبل التفسير من أجل أن تتشوف النفس إلى معرفة التفصيل ثم تسكن إليه، ويستقر في العقل، كما أنّ هذا الضابط العددي من وسائل استحضاره وتذكره(٤).

ومن الإيضاح بعد الإبهام: التوشيع، وهو ((أن يؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسر باسمين، أحدهما معطوف على الآخر))(٥).

ومنه قوله ﷺ: "وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ حِينَ يُفْطِرُ وَفَرْحَةٌ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ.."(٦).

ففي قوله: (للصائم فرحتان) تشويق للسامع لمعرفة هاتين الفرحتين التي تحصلان للصائم، إنّ سلوك هذا الأسلوب يساعد في تثبيت هذا الحكم في الأذهان، إذ إنها تترقبه باهتمام بالغ.

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٦.

(٢) الدباء: هي القرع، والنقير: أصل النخلة ينقر ويتخذ وعاء، والظروف المزفتة: الأوعية المطلية بالزفت، والحنتمة: الجرة، هذه أوعية نُهي عن الانتباذ فيها بخصوصها بادي الأمر؛ لأنه يسرع فيها الإسكار، ثم ثبتت الرخصة في الانتباذ في كل وعاء، مع النهي عن شرب كل مسكر. ينظر: فتح الباري: ٢٤٢/١.

(٣) باب قول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ : ٧٥٥٦.

(٤) ينظر: فتح الباري: ٢٤٠/١، والمختار من كنوز السنة: ٣٤٤.

(٥) الإيضاح: ٢١٤.

(٦) باب قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾: ٧٤٩٢.

ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: " كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"[(١)].

لقد أسهم أسلوب التوشيع بالإضافة إلى هذه الأوصاف المتتابعة في زيادة لهف المتلقين إلى معرفة الكلمتين، وتشوفهم لها.

لقد كان الرسول ﷺ في غاية البلاغة، وهو يسلك هذا الطريق البليغ لتبليغ رسالته، حيث يهيئ الأذهان لتلقي الأحكام والأفكار، إنْ في الترغيب وإنْ في الترهيب. ولا شك في أنّ تهيئة الذهن لاستماع الأحكام يساعد على فهمه وإدراكه، وسرعة الانقياد له وتطبيقه.

٢) الاحتراس:

وهو ((أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه))[(٢)]. ويسمى التكميل أيضًا، وقد أبان الدسوقي عن وجه التسميتين، فذكر أنّ وجه التسمية بالتكميل ((لتكميله المعنى بدفع إيهام خلاف المقصود عنه، وأما وجه تسميته بالاحتراس فلأنّ حرس الشيء: حفظه، وهذا النوع فيه حفظ للمعنى، ووقاية له من توهم خلاف المقصود))[(٣)].

وقد ورد أسلوب الاحتراس في جملة من الأحاديث، منها قوله ﷺ في حديث الاستخارة: "إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ..."[(٤)].

يرشد الرسول ﷺ إلى استحباب استخارة الله ﷻ في الأمور التي يحار فيها المرء، حيث لا يدري أين الصواب فيها؟، وقد أفاد الاحتراس في قوله: (من غير الفريضة) أنّ الأمر بركعتي الاستخارة على سبيل الاستحباب لا الوجوب[(٥)].

---

(١) باب قول الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾: ٧٥٦٣.

(٢) التلخيص: ٢٢٩.

(٣) حاشية الدسوقي على السعد ضمن شروح التلخيص: ٢٣١/٢.

(٤) باب قول الله تعالى﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾ : ٧٣٩٠.

(٥) ينظر: فتح الباري: ٤٢٠/١٤.

وفي قوله ﷺ: "إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، - مِائَةً إلا وَاحِدًا - مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"[1].

فالاحتراس في قوله: (مائة إلا واحدا) جاء للتوكيد، ودفع التصحيف إنْ في السماع، وإنْ في الكتابة[2].

ومن الاحتراسات ما ورد في قوله ﷺ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الْعَصْرِ وَصَلاةِ الْفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ"[3].

سؤال الله ﷻ ليس طلبًا للعلم، فهو يعلم السرّ وأخفى؛ لذلك جاء الاحتراس في قوله: (وهو أعلم بكم) دفعًا لفساد التوهمات، وقد ذكر العيني أنّ الحكمة من سؤال الله للملائكة هي ((استدعاء شهادتهم لبني آدم بالخير، واستعطافهم بما يقتضي العطف عليهم، وقيل: لإظهار الحكمة في خلق بني آدم في مقابلة من قال من الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ {البقرة:٣٠}، والمعنى: أنه قد وجد فيهم من يسبح ويقدس مثلكم بنص شهادتكم))[4].

وفي قوله ﷺ: "الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا: أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحَجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.."[5].

---

(١) باب إن لله مائة اسم إلا واحدا: ٧٣٩٢.

(٢) ينظر: شرح الكرماني: ١١١/٢٥.

(٣) باب قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: ٧٤٢٩.

(٤) عمدة القاري: ٧٠/٥.

(٥) باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ : ٧٤٤٧.

كانت العرب في الجاهلية تغير في الشهور، فتقدم وتؤخر؛ حيث يجعلون الأشهر الحرم في أشهر أخرى، فيحلّون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، فلما كانت السنة التي حجّ فيها رسول الله ﷺ كان ذو الحجة قد عاد إلى مكانه[(١)].

وقد جاء الاحتراس في قوله بعد أن ذكر شهر رجب: (الذي بين جمادى وشعبان) تأكيدًا، وإزاحة للريب الحادث من النسيء الذي كانت تفعله العرب في الجاهلية[(٢)].

٣) التكرار:

درج البلاغيون على جعل التكرار نوعًا من الإطناب ما دام أنه يحمل فائدة، وإلا حمل على التطويل، وهو في اصطلاحهم: دلالة اللفظ على المعنى مردَّدًا[(٣)].

وقد أشار ابن قتيبة إلى أنّ التكرار من سنن العرب وطرائقهم، فقال: ((ومن مذاهبهم التكرار؛ إرادة التوكيد والإفهام، كما أنّ من مذاهبهم الاختصار؛ إرادة التخفيف والإيجاز؛ لأنّ افتنان المتكلم والخطيب في الفنون وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فنٍّ واحد))[(٤)].

ويأتي التكرار لأغراض بلاغة متعددة، أهمها: توكيد المعاني وتقريرها في النفوس، طول الفصل في الكلام، التلذذ بذكره، التفخيم والتعظيم، وغيرها[(٥)].

والتكرار يجيء في البيان النبوي، فيزيد المعنى إشراقًا، تأمل في قوله ﷺ: "وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُهَا، وَلا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، وَفِي جَهَنَّمَ كَلالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ هَلْ رَأَيْتُمْ السَّعْدَانَ؟" قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: "فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلا اللَّهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ الْمُوبَقُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، أَوْ

---

(١) ينظر: شرح رياض الصالحين لابن عثيمين: ٥١٥/٢.

(٢) شرح الطيبي: ٢٠١٤/٦.

(٣) ينظر: المثل السائر: ٣/٣.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ٢٣٥.

(٥) ينظر: جواهر البلاغة: ١١٠، والبلاغة العربية للميداني: ٧١.

الْمُوثَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمْ الْمُخَرْدَلُ، أَوْ الْمُجَازَى، أَوْ نَحْوُهُ، ثُمَّ يَتَجَلَّى حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الْمَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَنْ كَانَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مِمَّنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ بِأَثَرِ السُّجُودِ، تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ .."[1].

ففي هذا الجزء من الحديث تتكرر بعض العبارات ، وفي هذا إيحاء إلى شرف أسلوب التكرار إذا جاء في مكانه، حيث ورد في دعاء الرسل (اللهم سلّم سلّم) مشيرًا إلى شدة الهول، واستحكام الفزع في النفوس، فإذا كان الأنبياء وهم أولى الخلائق بالأمن والسلامة في ذلك اليوم، لا ينطقون إلا بطلب السلامة، فكيف بمن هم دونهم.

وفي تكراره لــ(شوك السعدان) ما يوحي إلى عظم هذه الكلاليب، ففيه تضخيم وتخويف، وفيه استحثاث للعقول لتفكر في ذلك المشهد وتتأمله.

ويأتي التكرار في قوله: (أثر السجود) تنويهًا بشرف هذه المواضع، وإكرامًا لها، فلما خضعت لربها، رفع ذكرها.

وفي حجة الوداع قال ﷺ: " أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلا لِيُبْلِغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ" ثم قال: "ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلّغت؟"[2].

كانت هذه الحجة قبيل وفاة الرسول ﷺ، وقد أرسى فيها معالم الدين، وأصول الشريعة، ولّما كان الأمر كذلك ناسب أن يختم الرسول ﷺ خطبته بقوله: (ألا هل بلغت؟) التي جاءت على سبيل الاستفهام التقريري، أي: قد بلغتكم ما أمرت بتبليغه لكم،

---

(١)باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٧.

(٢)باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٧.

فلا عذر لكم؛ إذ لم يقع مني تقصير في التبليغ[1]. وتأكيدًا منه ﷺ في تقرير قيامه بالبلاغ أحسن قيام، وإقامة للحجة على أمته كرر الاستفهام مرتين[2].

وعن أبي ذر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "أَتَانِي جِبْرِيلُ فَبَشَّرَنِي: أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ" قُلْتُ: وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى، قَالَ: "وَإِنْ سَرَقَ وَإِنْ زَنَى"[3].

هذا النص من أحاديث الرجاء التي تبهج الخاطر وتشرح الصدر، وقد جاءت فيه جملة الشرط مكررة، فأبو ذر لما سمع قوله ﷺ: (أنّه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنّة) بهذا الإطلاق سأل على سبيل الاستبعاد والتعجب (وإن سرق وإن زنى؟) حيث استعظم أبو ذر دخول الجنة ابتداء مع مباشرة الكبائر [4]، فردّ عليه الرسول ﷺ الجملة الشرطية نفسها (وإن سرق وإن زنى)؛ وذلك لتأكيد هذا المعنى، وتقريره وتمكينه في النفوس، فرحمة الله ﷻ لا تحد.

ومن شواهد التكرار قوله ﷺ: "إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ؛ أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُمْ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ .."[5].

هذا نص ظاهر في تفضيل الأمة المحمدية على من سواها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد جاء التكرار في قوله: (قيراطًا قيراطًا) وقوله: (قيراطين قيراطين) ليدل على

---

(١) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٤٩/٥.

(٢) ينظر: دليل الفالحين: ٣٩٥.

(٣) باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة: ٧٤٨٧.

(٤) ينظر: من بلاغة السنة: ١٥٣، قال الشيخ ناصر العقل: مرتكب الكبيرة في الآخرة تحت مشيئة الله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، والموحدون كلهم مصيرهم إلى الجنة، وإن عُذِّب في النار منهم من عذِّب، ولا يخلد أحد منهم فيها قط. ينظر: مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة: ١٨.

(٥) باب قول الله تعالى: ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾: ٧٤٦٧.

((على تقسيم القراريط على العمّال؛ لأنّ العرب إذا أرادت تقسيم الشيء على متعدد كررته))[1].

وفي قوله ﷺ: "لا حَسَدَ إلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ"[2].

بعد قراءة هذا الحديث يبدو سؤال: لِمَ لْمْ يقل: (آناء الليل والنهار) بدلا من تكرار الآناء مرتين، والجواب عن ذلك، هو دفع لما قد يتوهم من أنّ المراد آناء مجموعهما، فالمراد إذن استغراق أوقات الليل وساعاته، وكذلك أوقات النهار وساعاته، ومما يعضد هذا مجيء الفعل المضارع الدالّ على التجدد والاستمرار (يتلوه/ينفقه).

٤) الاعتراض:

تحدثت كتب البلاغة عن مسميات عدّة لهذا الطريق، ولكن التسمية الأكثر شيوعًا هي ما أثبت هنا، وهو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب؛ لنكتة سوى دفع الإيهام[3].

وأشار الخطيب بعد تعريفه للاعتراض إلى مجموعة من النكت المفادة منه، فذكر التنزيه والتعظيم، والدعاء، والتنبيه، والاستعطاف، وغيرها.

وتنوع نكت هذا الأسلوب يؤكد أهمية السياق البالغة في تحديد الغاية من الاعتراض.

فمن شواهده ما روي عن أبي بكر أنه قال للرسول ﷺ: علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: "قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، -وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ-، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[4].

---

(١) فتح الباري: ٣٣٢/٢.

(٢) باب قول النبي ﷺ: "رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء اليل والنهار، ورجل يقول: لو أوتيت مثل ما أوتي هذا فعلت كما يفعل": ٧٥٢٩.

(٣) ينظر: الإيضاح: ٢٢٣.

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ : ٧٣٨٨.

جاءت الجملة (ولا يغفر الذنوب إلا أنت) معترضة، وفي ذلك إشارة إلى إقرار العبد ((بأنّ الله هو الذي يغفر الذنوب، وليس ذلك لغيره، وفي الحقيقة هو أيضًا إقرار بالوحدانية؛ لأنّ من صفته غفران الذنوب هو الموصوف بالوحدانية))[1]. كما أنّ الدعاء المتضمن الاعتراف بالتقصير، والثناء على الرب ﷻ حري بالإجابة.

ومنه أيضًا قوله ﷺ: " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، -وَلا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلا الطَّيِّبُ-، فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ"[2].

فضل المولى ﷻ لا يمكن أن يعد ويحصى، فالعمل: صدقة من كسب طيب تعادل قيمة التمرة[3]، والجزاء: تربيتها حتى تكون كالجبل، وقد جاءت الجملة المعترضة (ولا يصعد إلى الله إلا الطيب) ((واردة على سبيل الحصر بين الشرط والجزاء؛ تأكيدًا وتقريرًا للمطلوب في النفقة))[4].

ومما جاء على هذا الطريق، قوله ﷺ: "لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"[5].

الاعتراض جاء في قوله: (ما يضرهم من كذبهم ولا من خالفهم)؛ للمبالغة في وصف صبر الأمة على ما يعترضها حال قيامها بأمر الله.

ومن شواهد الاعتراض قوله ﷺ: "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ، فَأُرِيدُ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي؛ شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[6].

قال النووي معلقًا على هذا الحديث: ((فيه كمال شفقته ﷺ على أمته، ورأفته بهم، واعتناؤه بالنظر في مصالحهم، فجعل دعوته في أهم أوقات حاجتهم))[1].

---

(١) عمدة القاري: ١٧٤/٦.

(٢) باب قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: ٧٤٣٠.

(٣) ينظر: أعلام الحديث: ١٢٥٠/٤.

(٤) عمدة القاري: ٣٩٥/٨.

(٥) باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: ٧٤٦٠.

(٦) باب قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: ٧٤٧٤.

وأما الاعتراض في قوله: (إن شاء الله) فقد ذكر ابن حجر أنه للتبرك[2]، يضاف إلى ذلك كمال التأدب مع الرب ﷻ، فقد علّق ﷺ فعله بمشيئة الله.

٥) التتميم:

وهو أن ((يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة))[3]. وهذه النكتة تختلف باختلاف المقام، والمراد بالفضلة ((ما ليس بأحد المسندين من الفضلات المعلومة: كالمفعول، والجار والمجرور، والتمييز، والتوابع، وليس المراد ما يتم أصل المعنى بدونه))[4].

وشاهده قوله ﷺ: "ما مِنْكُمْ أَحَدٌ إلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إِلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلا يَرَى إِلا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"[5].

مشهد عظيم، حين يقف العبد الضعيف بين يدي ربه ليحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، يتلفت ذات اليمين والشمال فلا يرى سوى عمله، ثم ينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، وقد أسهم التتميم في قوله: (تلقاء وجهه) في التهويل، فهذا التعبير يوحي بقرب النار قربًا شديدًا.

٦) التذييل:

وهو ضرب من ضروب التوكيد[1]، وحُدَّ بأنه ((تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها للتوكيد))[2]، ويأتي على ضربين: ضرب يخرج مخرج المثل، وضرب لا يخرج مخرج المثل.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٧٥/٣.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٢٧٨/١٤.

(٣) الإيضاح: ٢٢٢.

(٤) شرح مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح: ٧٢٤/١.

(٥) باب قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾: ٧٥١٢.

فمن شواهده قوله ﷺ: "هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ"(٣).

فقوله: (وإنما يرحم الله من عباده الرحماء) تذليل لما قبلها، وتأكيد لمعنى الرحمة في بني الإنسان وإغراء بها.

ومنه أيضًا ما جاء في حديث الاستخارة، قال ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"(٤).

جاء التذييل في الجملة الاسمية (وأنت علام الغيوب) تأكيدا لعلم الله الواسع لكل شيء، فلما أثبت علم الله ﷻ ونفى عن نفسه العلم، عقّب الجملة بجملة أخرى؛ تأكيدًا لسعة علم الله وإحاطته كل شيء.

---

(١) ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني: ١٥٥.

(٢) التلخيص: ٢٢٧.

(٣)﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: ٧٣٧٧.

(٤) باب قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾ :٧٣٩٠.

الفصل الرابع

التصوير البياني

- ❖ المبحث الأول: التشبيه.
- ❖ المبحث الثاني: المجاز:
  1) المجاز العقلي.
  2) المجاز اللغوي:
     - المجاز المرسل.
     - الاستعارة.
- ❖ المبحث الثالث: الكناية والتعريض.

يأتي التصوير في اللغة دالاً على معاني الشكل والهيئة والصفة[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ {التغابن: ٣}، فالله ﷻ هو المصوِّر أي: أنشأ خلقه على صور مختلفة، وهيئات متباينة[2].

ومبحث التصوير كان حاضرًا في التراث البلاغي في وقت مبكر؛ فقد ذكر الجاحظ بأنّ الشعر ((صناعة وضرب من التصوير))[3]، وهذا ما أكده عبدالقاهر حين أشار إلى أن التعبير بالصورة ليس شيئًا ابتدأه هو وإنما كان مستعملاً مشهورًا في كلام العلماء[4].

والتصوير في الكلام يبين هيئات المعاني وأشكالها وصفاتها عبر أساليب متفننة؛ فالتشبيه، والتمثيل، والمجاز، والكناية، ، طرق يسلكها البليغ في إيصال المعاني وترسيخها في عقول المخاطبين.

وقد تحدث بعض النقاد عن الصورة وصلتها بالجانب النفسي، فقال: ((الصورة هي ذلك التعبير اللغوي الذي يتخذ نسقًا معيَّنًا يستثير في النفس مدركات حسية، مستخدمًا في ذلك كل وسائل التأثير في اللغة، من عبارات حقيقية، وتشبيهات، ومجازات، وكلمات ذوات جرس خاص))[5].

أما البيان في اللغة فهو: الفصاحة واللسن، والبين من الرجال: الفصيح[6].

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٤٣٨/٧ (صور)، القاموس المحيط: ٤٥٢ (صور) .

(٢) ينظر: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: ١٦٩/١.

(٣) الحيوان: ١٣٢/٣.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٥٠٨.

(٥) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية: ٣٢.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٥٦٥/١ (بين).

وقد ظلّت هذه المفردة عصورًا متطاولة تحمل معان ودلالات واسعة، كما عند الجاحظ(١)، وابن رشيق(٢)، وعبدالقاهر(٣)، وابن الأثير(٤)، وغيرهم.

وعند السكاكي بدأ يتحدد المراد بالبيان أكثر وأكثر ، حين جعله أحد علوم البلاغة(٥)، ثم أتى بعده القزويني مستهديًا بنوره فحدّ علم البيان بأنه ((علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه))(٦).

وقد بلغ البيان النبوي الغاية في الصورة البيانية، فجاءت المعاني في أبهى حلة، وأشرف هيئة، مما ينبئ عن القدرة الفائقة والبلاغة العالية، وهو لا يفتأ في سلوك كل سبيل يحقق ترسيخ المعاني في القلوب.

---

(١)ينظر: البيان والتبيين: ١/٧٦.

(٢) ينظر: العمدة: ١/٤٠٧وما بعدها.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٤.

(٤) ينظر: المثل السائر: ١/٣٧.

(٥) ينظر: المفتاح: ٢٤٧.

(٦) التلخيص: ٢٣٥.

التشبيه عنصر أصيل في اللغة العربية، بل يعد من أدق خصائصها الشاهدة بسموها على غيرها من اللغات، وهو ميدان رحب يتنافس فيه البلغاء.

وقد عني الباحثون بدراسة التشبيه عناية كبيرة، وهذا الاهتمام راجع إلى شيوع هذا الأسلوب وجريانه في كثير من فنون الكلام، فضلاً عن وفرته في كتاب الله ﷻ وحديث رسوله ﷺ.

والتشبيه في اللغة يطلق ويراد به: المثل، وأشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله[1].

كان التشبيه في بادئ أمره لا يحمل تعريفا كمصطلح بلاغي، حيث عرفه "الجاهليون وسيلة لإيضاح المعاني، وفنًّا من فنون المبالغة في التعبير، ولم يعرفوه مصطلحًا بلاغيًّا له حدوده وقواعده وأقسامه التي استقر الرأي عليها عند متأخري البلاغيين"[2].

وتنوعت عبارات البلاغيين في تعريف التشبيه، فقد ذكر ابن رشيق أنه "صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه"[3].

أما القزويني فعرفه بأنه "الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى"[4]. وحده العلوي العلوي في قوله: "الجمع بين الشيئين أو الأشياء بمعنى ما بواسطة الكاف ونحوها"[5].

وأفادت باحثة من التعريفات السابقة، فحدّت التشبيه بأنه: الدلالة على الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو أكثر بأداة ظاهرة أو مضمرة[6].

وحين نقلب النظر في كتابات البلاغيين نجد الإشادة الكبيرة بهذا الفن، فقد ذكر ابن وهب في سياق حديثه عن التشبيه أنه "أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٢٣/٧ (شبه).

(٢) التشبيه، دراسة في تطور المصطلح: ٣

(٣) العمدة: ٤٦٨/١.

(٤) التلخيص: ٢٣٨.

(٥) الطراز: ١٣٦/١.

(٦) ينظر: التصوير البياني في آيات الأمن والخوف: ١٣٣.

والبراعة عندهم، وكلما كان المشبِّه منهم في تشبيهه ألطف، كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحذق أليق))[1].

وأما فائدة التشبيه فقد تحدث عنها أبو هلال العسكري، فقال: ((والتشبيه يزيد المعنى وضوحًا، ويكسبه تأكيدًا؛ ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه))[2].

ويفيض ابن الأثير في الحديث عن فائدة التشبيه، فيقول: ((أما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير منه، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالاً حسنًا يدعو إلى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالاً قبيحًا يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاع فيه))[3].

وإلى هذا المنزع النفسي في التشبيه أشار أحمد بدوي في تعريفه للتشبيه، حيث ذكر أنه ((لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما في النفس))[4].

وهذا الضرب من البيان ((كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يضع الكلام بعيد المرام، قريبًا من الأفهام، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يشبه الجواد بالبحر، والشجاع بالأسد، والحسن بالشمس، وما ماثل ذلك مما اشتهر من أمره، وجرى لذلك مجرى الحقيقة، وإنما هو يدق ويلطف حتى يأتيك بما يخلب القلوب، ويرقص الهام، وحتى يخرج مثله عن طوق البشر جميعًا))[5].

---

(١) البرهان في وجوه البيان: ١٠٧.

(٢) كتاب الصناعتين: ٢١٦.

(٣) المثل السائر: ٢/٩٩.

(٤) من بلاغة القرآن: ١٤٧.

(٥) التلخيص بشرح البرقوقي، ينظر الحاشية: ٢٤٢.

وفي البيان النبوي احتفاء كبير بهذا الفن، فهو أحد أبرز وجوه البراعة فيه، كما أنه من أهم المعالم الحاكمة ببلاغة النبوة وتفوقها، حيث ((كانت أمثاله وتشبيهاته كثيرة عددًا، بديعة تصويرًا، نافذة في سويداء القلب، آخذة بمجامع العقول، آسرة من يستمع، فيبصر ما يسمع، إذ تتحول الصورة الصوتية في بيانه إلى صور مبصرة في بصر وبصيرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد))[1].

ومن شواهد التشبيه الشائعة، والواردة عند بعض شرّاح البخاري قوله ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: "يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ: لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ"[2].

لما كان الكنز شيئًا نفيسًا يتطلع الناس إلى الحصول عليه، شبّه رسول الله ﷺ هذا الذكر بالكنز، فهو شيء نفيس مكنون عن أعين الناس[3]. وقال النووي: ((معنى الكنز هنا: أنه ثواب مدخر في الجنة، وهو ثواب نفيس، كما أن الكنز أنفس أموالكم))[4].

ولكن الراجح أن الكلام جارٍ على سبيل الحقيقة، فيكون ثواب القائل لهذا الذكر كنز من كنوز الجنة، يقول الطيبي: ((وقد سبق أنّ مثل هذا التركيب ليس باستعارة؛ لذكر المشبه: وهو الحوقلة، والمشبه به: وهو الكنز، ولا التشبيه الصرف؛ لبيان الكنز بقوله: (من كنوز الجنّة)، بل هو من إدخال الشيء في جنسه وجعله أحد أنواعه على التغليب))[5].

وفي وصف الجنّة ودرجاتها يقول ﷺ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ

---

(١) أثر التشبيه في تصوير المعنى (قراءة في صحيح مسلم): ١٢.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ : ٧٣٨٦.

(٣) ينظر: عمدة القاري: ٢٠/٢٣.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢٨/١٧.

(٥) شرح الطيبي: ١٨٢٣/٦.

فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[1].

من طرائق البيان النبوي تصوير الغيبيات بالمحسوسات؛ طمعًا في تقريب الصور إلى الأفهام، فالرسول ﷺ يصف هاهنا شيئًا من نعيم أهل الجنّة، حيث بين أنّ في الجنة مائة درجة، ولا يعني هذا حصر درجاتها؛ إذ ليس هناك ما ينفي الزيادة[2]، ثم يوضح مسافة ما بين كل درجتين بأنه كما بين السماء والأرض، كاشفًا بذلك عن عظيم خلق الجنة، وسعة مساحتها، فتلك المسافة الشاسعة ليست إلا كما بين الدرجتين فقط!

ويوصي ﷺ أمته في خطبة الوداع محذّرًا: "السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحَجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ ذَا الْحَجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ – قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ– وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا "[3].

شأن الدماء والأموال والأعراض عظيم في الإسلام، ولما كانت الجاهلية تستبيح هذه الأشياء، حيث لا حرمة لها عندهم أراد النبي ﷺ أن يبين عظم شأنها، وخطورة التعرض لها بسفك أو سلب أو انتهاك، فسلك أسلوب التشبيه؛ ليقرر هذه الحقائق في نفوسهم، ويرسخها في عقولهم، فقد شبه حرمة الدماء والأموال والأعراض بحرمة يوم النحر في شهر الحج في البلد الحرام: مكة؛ وذلك لأنهم كانوا يعظمون هذه الأمور أشد تعظيم، كما كانت حرمتها متأصلة في نفوسهم، مترسخة عندهم، يقول ابن حجر:

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ : ٧٤٢٣.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٤١٠/١٧.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : ٧٤٤٧.

((ومناط التشبيه في قوله: (كحرمة يومكم) وما بعده ظهوره عند السامعين؛ لأنّ تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتًا في نفوسهم، مقررًّا عندهم، بخلاف الأنفس والأموال والأعراض، فكانوا في الجاهلية يستبيحونها، فطرأ الشرع عليهم بأّن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم، فلا يرد كون المشبه به أخفض مرتبة من المشبه؛ لأنّ الخطاب إنما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع))[1].

وتحدث عائشة -رضي الله عنها- عن أناس سألوا النبي ﷺ عن الكهّان، فقال: " إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ " فقالوا: يا رسول الله: إنهم يحدثون بالشيء يكون حقًّا؟ فقال النبي ﷺ: "تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ"[2].

قال ابن الأثير: ((القرُّ: ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه، وقرّ الدجاجة: صوتها إذا قطّعته، يقال: قرّت تقرّ قرًّا وقريرًا، فإن رددته قلت: قرقرت قرقرة))[3].

النبي ﷺ يشبه إلقاء كلام الجني في أذن وليه، وهو الكاهن، وأطلق عليه وليًّا؛ لكونه يواليه[4]، يشبه هذه الصورة بصورة قرقرة الدجاجة، وهو صوتها مرددًا، قال الخطابي: ((والمعنى أنّ الجني إذا ألقى الكلمة لوليه تسامع بها الشياطين، فتناقلوها كما إذا صوتت الدجاجة، فسمعها الدجاج فجاوبتها))[5]. فوجه الشبه: هو الجلبة والفوضى حال تناقل خبر السماء. ويؤكد هذا قوله: (فيخلطون فيه أكثر من مائة كذبة)، فقوله: (يخلطون) بالجمع يشير إلى أنه ليس الكاهن وحده الذي يخلط، بل يكون ذلك بمعاونة غيره.

وقد رود هذا الحديث في البخاري برواية أخرى شبه فيها النبي ﷺ كلام الجني بقر القارورة، يقول ﷺ: "الْمَلَائِكَةُ تَتَحَدَّثُ فِي الْعَنَانِ -وَالْعَنَانُ الْغَمَامُ- بِالْأَمْرِ يَكُونُ فِي

---

(١) فتح الباري: ١/٢٨١.

(٢) باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦١.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٧٤٢.

(٤) ينظر: فتح الباري: ١٣/١٩٥.

(٥) أعلام الحديث: ٣/٢٢١٨.

الأَرْضِ، فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ، فَتَقُرُّهَا فِي أُذُنِ الْكَاهِنِ، كَمَا تُقَرُّ الْقَارُورَةُ، فَيَزِيدُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ"(١).

قال ابن حجر: ((شرحوه على أنّ معناه كما يسمع صوت الزجاجة إذا حلّت على شيء أو ألقي فيها شيء))، ومن المعلوم أنّ الزجاجة إذا وقعت على شيء أو أو ألقي فيها شيء صدر منها صوت يجيء مرددًا.

فالصوت الخارج من القارورة إذا ألقي فيها شيء، وقرقرة الدجاجة حكاية لتناقل الشياطين خبر السماء الذي يضيفون عليه مائة كذبة أو يزيدون.

ويصف ﷺ مجيء جهنم يوم القيامة، فيقول: "ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا، فَيُقَالُ: اشْرَبُوا. فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ.."(٢).

حين تبلغ القلوب الحناجر، وتغص بالدموع المحاجر، وفي اليوم الرهيب، يوم العرض على الله، الخوف يملأ القلوب، فلا تدري إلى أين المصير؟ يؤتى بجهنم فتعرض كأنها سراب، أي فرح يغشى القلوب حين ترى ذلك السراب والحال هذه، لكن الأمر ليس كذلك فما هو إلا أن يسألون: (ما كنتم تعبدون؟) إنّه عنصر المفاجأة الحاضر في أهوال ذلك اليوم، لقد رأوا سرابًا ففرحوا به فإذا هو عذاب أليم، لقد أسهم هذا التشبيه في التنكيل بهم، وزيادة عذابهم عذابا، وكذا الترهيب من حال الكافرين في ذلك اليوم ومآلهم، ما إن أمنوا حتى فاجأهم النار فتساقطوا فيها.

---

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق: باب صفة إبليس وجنوده: ٣٢٨٨.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٩.

لقد كان عنصر المفاجأة عذابًا فوق العذاب، وهو يتكرر في هذه المشاهد تنكيلاً بالكافرين، انظر قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ {الزمر: ٧١}. قال ابن عاشور: ((كانت مغلقة؛ لتفتح في وجوههم حين مجيئهم فجأة؛ تهويلاً ورعبًا))(١).

ومن مشاهد ذلك اليوم المرور على الصراط، والناس فيه على مراتب، يكشف عن ذلك الحبيب ﷺ، فيقول: "الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا"(٢).

هذه أحوال المارين على الصراط، يبدأ ﷺ بذكر مراتب الناجين بدءًا بالأعلى فالأدنى، فثمة من يمر في سرعة متناهية كطرف العين، وآخرون كالبرق، ثم كالريح، ثم كسراع الخيل والركاب، وهذه السرعة والبطء صورة مماثلة لمدى الإسراع والبطء في عمل الخيرات، فكلما كان المؤمن أكثر إسراعًا إلى القربات كان أكثر سرعة في المرور على الصراط.

لما كانوا في الدنيا يسارعون في الخيرات قبل أن يسبقهم غيرهم، كانوا في الآخرة هم السابقون، لقد حرصوا في الدنيا أن يبتعدوا كل البعد عن الانغماس في الشهوات واللذات المحرمة، فأبعدهم الله برحمته عن النار أن تغشاهم حيث المتساقطون، فالمارّون على الصراط على ثلاثة أحوال(٣): فريق ينجو ويسلم فلا شيء يلحق به، وفريق هالك مدفوع إلى جهنم، وما بين ذا وذاك المخدوش وهو على مراتب.

وأما عتقاء الرحمن الذين يخرجون من النار بشفاعة أرحم الراحمين، فيحكي حالهم النبي ﷺ فيقول: "فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ٦٩/٢٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾: ٧٤٣٩.

(٣) ينظر: بهجة النفوس: ١٩/٢.

فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ، فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ، فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ، فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ"(١).

جاء التشبيه واصفًا حال الفائزين بشفاعة الله ﷻ، حيث تصبح أجسامهم المحترقة من النار وكأنها نبات طري متفتح، وكل ذلك في صورة سريعة، حيث يشبه نبات تلك الأجساد المعذبة بعد إدخالها ماء الحياة كما تنبت الحبة في حميل السيل، وهو ما يحمله السيل من غثاء أو طين(٢)، وهذا التشبيه متعدد، حيث إنّ وجه الشبه فيه جاء متعددًا، فالتشبيه كان في سرعة النبات، وطراوته وحسنه(٣).

وفي قوله: (فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلى الظل كان أبيض) ((تنبيه على أنّ ما يكون إلى الجهة التي تلي الجنة يسبق إليه البياض المستحسن، وما يكون منهم إلى جهة النار يتأخر النصوع عنه، فيبقى أصيفر وأخيضر إلى أن يتلاحق البياض، ويستوي الحسن والنور، ونضارة النعيم عليهم))(٤).

وأما صورتهم بعد الخروج من ماء الحياة ليدخلوا الجنة فكأنهم اللؤلؤ لمعانًا، وصفاءً، وبياضًا، وإشراقًا، وجاء التشبيه بـــ(كأن) للتأكيد.

وفي وصف الخوارج يقول ﷺ: "إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ"(٥).

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٣٩.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ١/٢٧٥.

(٣) ينظر: عمدة القاري: ٢٥/١٩٠، فتح الباري لابن رجب: ١/٨٩.

(٤) فتح الباري: ١٥/١٥٤.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: ٧٤٣٢.

ففي مقامات الوصف لابد للصورة البيانية أن تكون حاضرة كاشفة للغامض، مقربة للبعيد، وهذا النص يعد كشافًا لمنهج الخوارج، وقد جاء التشبيه كأبرز الوسائل المستعملة في هذا الكشّاف، انظر في قوله: (يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية) يصور البيان النبوي في هذا المقطع مدى استمساك الخوارج بالدين، فهم مع كثرة عبادتهم لكنهم سريعو الخروج من الدين كما أنهم سريعو الدخول فيه دون أن يتمسكوا منه بشيء، تمامًا كالسهم الذي خرج من الرمية بعد إصابته لها دون أن يعلق بشيء من فرثها ودمها، وهذا من التشبيه البليغ، فقد حذفت الأداة وجه الشبه منه.

وتكمن بلاغة التشبيه البليغ في دعوى اتحاد الطرفين: المشبه والمشبه به، حتى يصيران وكأنهما شيء واحد.

وثمة تشبيه بليغ أيضًا، وهو قوله ﷺ: (لأقتلنهم قتل عاد) توعدهم بأن يهلكهم إهلاك عاد، وليس المراد كصورة القتل نفسه وإنما لازمه وهو الإهلاك، ففيه كناية، وسيأتي الحديث عنها[(١)].

ومما جاء على صورة التشبيه البليغ قوله ﷺ: "الصَّوْمُ جُنَّة"[(٢)].

هذا التشبيه من بدائع تشبيهاته ﷺ، ففيه تشبيه المعقول بالمحسوس، حيث شبه الصيام بالجُنّة، وهي: الدرع، وكل ما وقى[(٣)]، فالصيام يقي صاحبه من الوقوع في الشهوات، ومما يؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: " يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ"[(٤)]. ومن معاني تشبيه الصوم بالجُنّة أنه وقاية من النار[(٥)].

---

(١) ينظر: ص ٢٢١من هذا البحث.

(٢) باب قوله تعالى:﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ : ٧٤٩٢.

(٣) ينظر: لسان العرب: ٣٨٧/٢ (جنن).

(٤) رواه البخاري، كتاب النكاح: باب قوله ﷺ: "من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج": ٥٠٦٥.

(٥) ينظر: فتح الباري: ٢١٢/٥.

هذا الحديث يرسم صورة المسلم وكأنه في ساحة حرب دائمة، فهو يتدرع بالصوم ليقيه من سهام الشهوات المنصبة عليه ذات اليمين وذات الشمال، تمامًا كما يلبس المقاتل الدرع ليتقي سهام العدو الطائشة وهجماته المباغتة.

والتشبيه البليغ القائم على اتحاد الطرفين يتسم بالسرعة، كما أنه يشي بتوحد طرفي الصورة: المشبه والمشبه به، ويقود التخيل إلى «تصور: الصوم جُنّة، والجُنّة صوم، حيث يتبادل الطرفان الماهية بعد أن يتعانقا، فيحدث ما يدعى في النقد بالتماهي، وفي هذا الأسلوب الذي هو تشبيه بليغ، تكثيف لجمال التصوير يواكب صحة الفكرة ولا يطغى عليها؛ لأنّ المقصد زيادة الترغيب»[(١)].

التشبيه التمثيلي:

جرى خلاف بين البلاغيين في تشبيه التمثيل[(٢)]، لكن الذي استقر عليه رأي البلاغيين من بعد هو ما ذهب إليه الخطيب القزويني، وهو ما كان وجه الشبه فيه صورة حسية أو عقلية منتزعة من أشياء متعددة[(٣)].

وقد جلّى عبدالقاهر بلاغة هذا الأسلوب فقال: «واعلم أنّ مما اتفق عليه العقلاء أنّ (التمثيل) إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبّهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبّ من نارها، وضاعف من قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفًا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا»[(٤)].

وقد بحث عبدالقاهر في معرض إشادته بالتمثيل أسباب تأثيره فقال: «فالمعنى إذا أتاك ممثلا فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك

---

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي: ١٧١.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة: ٩٠ ، المفتاح: ٤٥٥.

(٣) ينظر: الإيضاح: ٢٧٠.

(٤) أسرار البلاغة: ١١٥.

الخاطر له، والهمة في طلبه، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابه أشد، ومن المركوز في الطبع أنّ الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضن وأشغف))[1].

وحول أسباب تأثير هذا الفن البديع، يقول الجندي: ((ليس هذا التأثير الذي ينفح به التمثيل، والذي يعمل عمل السحر في كياننا فيهزه من الأعماق قد جاء اعتباطًا أو هو مما يقع فلتات، بل له علل وأسباب متينة الصلة بالنفوس الإنسانية، فإذا استأذنت عليها فتحت لها أبوابها على مصاريعها، وتلقته بالقبول والبشاشة والارتياح كما تتلقى خبرًا سارًّا مبهجًا يلذها موقعه، ويخف عليها محمله، وذلك أنّ النفوس تنفر من الغموض، وتفر من اللبس، وتتململ من مواقف الحيرة والشك والبلبلة، وتبادر إلى المروق من الظلمة إلى النور، ومن الشبهة إلى اليقين أنّى وجدت السبيل إلى ذلك))[2].

وإذا كان التمثيل أحد فروع التشبيه وتقسيماته الكثيرة، فإنّ له المنزلة الأسمى والرتبة الأسنى، فهو من أرقى التشبيهات، وأكثرها استعمالا في الكلام المنظوم والمنثور، فهو من أكثر التشبيهات استعمالا في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وفي كلام العرب شعرًا ونثرًا، والسبب في ذلك راجع إلى بلاغته، وقدرته الفنية على استمالة المخاطبين، والتأثير في نفوسهم

التمثيل لوحة بديعة، امتزجت فيها الألوان المختلفة وتداخلت، لتخرج بعد ذلك في حلة قشيبة.

وفي البيان النبوي يحضر التمثيل في أبهى صوره؛ لتشرق من خلاله الرسالة المحمدية، التي ما فتئت تسلك كل أسلوب بليغ؛ لتستميل عقول المخاطبين، وتؤثر في قلوبهم.

---

(١) أسرار البلاغة: ١٣٩.

(٢) فن التشبيه علي الجندي: ٢٢/٢.

فمن شواهد التمثيل قوله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتْ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلاءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ[1]، صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ"[2].

نحن أمام لوحتين بديعتين، في اللوحة الأولى نشاهد بستانًا فيه الكثير من النباتات، ومن بينها نبتة غضة طرية لينة، تهب عليها الرياح فتتمايل ذات اليمين وذات الشمال، فإذا سكنت الريح استوت على أصلها، هذه صورة المؤمن المتعرض للبلاء، فالمؤمن إذا جاءه أمر الله ((انطاع له، ولان ورضي به، وإن جاءه مكروه رجا فيه الخير، وإذا سكن البلاء اعتدل قائمًا بالشكر لربه على البلاء))[3]. وهذه هي حال المؤمن على الدوام والتي بينها النبي ﷺ في قوله: "عَجَبًا لأَمْر الْمُؤْمِن، إنَّ أَمْرَه كُلّه خَيْر، وَلَيْس ذَاك لأَحَد إلا لِلْمُؤْمِن، إِن أَصَابَتْه سَرَّاء شَكَر فَكَان خَيْرًا لَه، وَإِن أَصَابَتْه ضَرَّاء صَبَر فَكَان خَيْرا لَه"[4]. فوجه الشبه: صورة من تأتيه النذر فيستجيب لها ويحذر.

أما اللوحة الثانية، فهي ملأى بأشجار الأرز الصلبة الممتدة جذورها في الأرض، تأتي عليها الرياح فلا تحرك فيها ساكنًا حتى يقصمها الله متى ما شاء، وهذه هي صورة الكافر المعاند، فالله ﷻ ((يعافيه في دنياه وييسر عليه أموره؛ ليعسر عليه في معاده، حتى إذا أراد الله إهلاكه قصمه قصم الأرزة؛ ليكون موته أشد عذابًا عليه وألمًا))[5].

وتشبيه المؤمن بالنبات الغض الطري وهو يتقلب ذات اليمين وذات الشمال يوحي إلى تيقنه بأنّ هذه الدار دار ممر لا در مقر، وكذا تشبيه الكافر بالشجرة الصلبة التي لا تحركها الرياح يشير إلى تعلق قلب الكافر بالحياة الدنيا، ومدى تغلغله في ملذاتها[6]،

---

(١) الأرز: حب، وفيه ست لغات: أَرُزّ، وأُرُزٌّ، و أُرزٌ، وأُرُزٌ، ورزٌّ، ورُنْزٌ. ينظر: الصحاح: ٨٦٣/٣ (أرز).

(٢) باب قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: ٧٤٦٦.

(٣) عمدة القاري: ٣٢٢/٢١.

(٤) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق: باب المؤمن أمره كله خير: ٢٩٩٩.

(٥) عمدة القاري: ٣٢٢/٢١.

(٦) ينظر: روائع البيان في الأمثال النبوية: ٧٣.

وصدق الله، ومن أصدق من الله قيلا ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ {البقرة: ٩٦}. فوجه الشبه: صورة من تأتيه النذر فلا يأبه بها، ولا يحذر منها.

وكذا قوله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا"(١).

يختار البيان النبوي الطبيعة سبيلا للتصوير، فقد اختار كل مأنوس مألوف؛ ليقرب الصورة ويرسخها في الأذهان(٢)، كما أن في هذا الحديث تسلسل من الأعلى إلى الأدنى في لوحة متعددة المشاهد، فبدأ بمثل المؤمن القارئ للقرآن، فشبهه بالأترجة ذات الطعم الطيب والرائحة الطيبة في إشارة إلى صلاح الظاهر والباطن، فطهارة النفس المؤمنة وطيبها ثابت ثبوت الطعم الطيب في الأترجة، وكذا فإن تلاوة المؤمن تطهر المكان وتملؤه برائحة زكية كرائحة الأترجة حين تنتشر في المكان.

أما المؤمن الذين لا يقرأ فكالتمرة ذات الطعم الطيب النافع، حيث شبه الإيمان المتمكن في قلب المؤمن بالتمرة التي لا ريح لها، فكذلك المؤمن الذي لا يقرأ القرآن لا يفيد منه من حوله بالتلاوة.

وأما الفاجر القارئ للقرآن فحاله كالريحانة، يملأ المكان عبيرها، وهذا ناتج عن بركة تلاوة القرآن، أما قلبه ففاسد، وعمله غير مقبول، كمرارة طعم الريحانة، فثمة طيب في الظاهر وفساد في الباطن.

وأما الفاجر الذي لا يقرأ القرآن فحشفًا وسوء كيلة، حيث شبهه بالحنظلة، طعمها مر ولا ريح لها، فساد في الظاهر والباطن.

وقد"أثار النص حاسة البصر في جمال المرئيات، وحاسة الشم في رائحة الأترجة والريحانة، وحاسة الذوق في طعم الأترجة والتمرة والحنظلة، وجاء هذا الجمال بوساطة

---

(١) باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦٠.

(٢) ينظر: الأمثال في الحديث النبوي: ٤٩.

صيغة (مثل،كمثل)، ولهذا التطويل بعده الفني في الجزئيات، فضلا عن احتواء الشكل الفني تمام الاحتواء للفكرة))[١].

ويؤخذ من دلالة الرائحة في هذا الحديث، تأكيد الشرع على إشاعة المعاني الفاضلة، وبثها للناس عامة، ليستنشقوها مع الهواء؛ لتصل إلى دواخلهم ليحصل التغيير.

ومن شواهد التمثيل قوله ﷺ: "إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلاةِ الْعَصْرِ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُمْ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ"[٢].

في الحديث تشبيه حال المسلمين بالنسبة لأهل الكتاب قبلهم في أعمالهم وتفاوت أجورهم بأجراء اختلفت أعمالهم وتباينت أجورهم[٣].

ووجه الشبه هاهنا: صورة أقوام يعمل قوم منهم دون عمل الباقين، ومع ذلك يحصلون على الأجر الأكثر.

وفي التشبيه باليوم إيماء إلى قصر أمد هذه الحياة الدنيا، فهي كسحابة صيف سريعًا ما تقشّع[٤].

وفي صورة بليغة يصور البيان النبوي المشهد التصاعدي لثواب الصدقة، يقول ﷺ: "مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلا الطَّيِّبُ- فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ"[٥].

---

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي: ١٤٥.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾: ٧٤٦٧.

(٣) ينظر: أمثال الحديث: ١٦٥.

(٤) ينظر: التشبيه التمثيلي في الصحيحين: ٢٣٣.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: ٧٤٣٠.

في هذا النص صورة بيانية محسوسة، حيث شبه الرسول ﷺ تربية الله ﷻ للصدقة اليسيرة، وإن كانت بقيمة تمرة وما يساويها(١) بتربية الفلو، وهو المهر الصغير(٢)، فلا يزال ((نظر الله إليها يكسبها نعت الكمال حتى تنتهي بالتضعيف إلى نصاب تقع المناسبة بينه وبين ما قدم نسبة ما بين التمرة والجبل))(٣).

فالصدقة القليلة كالمهر الصغير لكنها عند الله تنمو وتزكو وتكبر حتى تكون كالجبل، ويلحظ هنا أنه شبه التربية للصدقة القليلة بتربية الفلو من حيث العناية به، لكن لم يجعل حجم الثواب كحجمه، بل ذهب إلى ما هو أكبر منه وأضخم بكثير، وهذا من أفضال الله التي لا يحدها حد ولا يحصيها أحد. يقول أحد الباحثين: ((المشبه بسيط الحجم، ولكنه يتمدد في البصر ويكبر، وقد ذكرت اليمين المباركة هذا النمو الذي يبدأ حيًّا فيكبر، فكون الثواب فلوًّا يعني أنّ هذا الثواب فيه روحانية وأنس، فيصبح جبلاً، ولكنه يحتفظ بشيء من التسامي الروحي، وفي النص تصعيد بالثواب، وثمة تناظر بين لا يقبل إلا الطيب، وكون وجود الحياة في الصدقة المجسمة، والمشبه به عملية التربية، ولكن الطابع الديني تطلّب للترغيب تجاوز البيئة المعروفة، فتصبح الصدقة مثل الجبل، وتتجاز حجم الحيوان المعروف))(٤). فوجه الشبه فيه: صورة شيء يبدو صغيرًا ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يصبح مثل الجبل.

ونحو هذا قوله ﷺ: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ، فَنَزَعْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَنْزِعَ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا عُمَرُ، فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنْ النَّاسِ يَفْرِي فَرِيَّهُ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ حَوْلَهُ بِعَطَنٍ"(٥).

---

(١) ينظر: الفائق في غريب الحديث: ٣٨٩/٢، معجم مقاييس اللغة: ٢٤٧/٤.

(٢) ينظر: لسان العرب: ٣٢٩/١٠ (فلا).

(٣) فتح الباري: ٢٣٠/٤.

(٤) الصورة الفنية في الحديث النبوي: ١٧٠.

(٥)باب قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾: ٧٤٧٥.

في هذا الحديث يصور البيان النبوي طبيعة حكم الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر -رضي اللهم عنهما-، وما سيحصل لهما وقت خلافتهما، وآثارهما وانتفاع الأمة بهما، فلما قام الرسول ﷺ بأمر الإسلام خير قيام، خلفه أبو بكر ﷺ سنتين فقاتل المرتدين، وقطع دابرهم، وقوله: (وفي نزعه ضعف) ليس حطًّا من فضيلة الصدِّيق وإنما هو إخبار عن حال ولايته، حيث اشتغل بقتال أهل الردّة عن الفتوح، كما أن مدة خلافته كانت قصيرة، أما في زمن الفاروق فاستحالت الذَّنوب غربًا، وهي الدلو العظيمة، وهذه الحالة إنما حصلت لطول ولايته، وما فتح الله له فيها من البلاد والأموال والغنائم في عهده، فقد مصّر الأمصار، ودوّن الدواوين، واتسعت رقعة الإسلام في خلافته. فقد شبّه أمر المسلمين بقليب فيه الماء الذي به حياتهم وصلاحهم، وسقيه هو القيام بمصالحهم(1). ووجه الشبه: صورتان: الأولى: صورة من ينزع شيئًا يسيرًا والثانية: صورة من ينزع شيئًا كثيرًا.

---

(١) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ١٦١/٨.

- المبحث الثاني: المجاز:

حظي موضوع المجاز بمساحات واسعة في فضاءات البحث البلاغي، وقد وجدت بسببه آراء ونقاشات ما بين المجيزين له والمانعين من قبل علماء علوم مختلفة؛ فتجد الإشارة إليه في كتب اللغة، والبلاغة، والأصول، والعقيدة، وقد شاع الخلاف في المجاز إثباتًا ونفيًا بين البلاغيين وطائفة من علماء الشريعة[١].

والمجاز في اللغة: من جاز الطريق، وجاز الموضع إذا سار فيه وسلكه، وأجازه: قطعه، والمجاز: الطريق إذا قطع من أحد جانبيه إلى الآخر[٢]. إذن هو انتقال من مكان إلى آخر.

أخذ البلاغيون المعنى اللغوي للمجاز، وعرفوه بأنه: ((الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له، في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح، مع قرينة عدم إرادته))[٣].

وأول من عرف أنه تكلم في المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى، لكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة، وإنما عنى به شيئًا آخر، وهو ما يعبر به عن الآية. فالمجاز عنده لم يكن مستعملاً في معناه الاصطلاحي[٤].

وقد كان أسلوب المجاز معروفًا ومستعملاً في كلام العرب، وإن لم تتضح معالمه، وتستقر قواعده بعد، فهذا سيبويه يشير إلى ذلك، ويسمي المجاز (السعة في الكلام)[٥]، وسمّاه الفرّاء (الإجازة)[٦].

وكان للمجاز المنزلة السامقة والرتبة العالية عند العرب، حيث عدّه الجاحظ أنه ((مفخر العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت))[٧].

---

(١) ينظر مثلا: المجاز في اللغة القرآن بين الإجازة والمنع لعبدالعظيم المطعني.

(٢) ينظر: لسان العرب: ٤١٦/٢ (جوز)، القاموس المحيط: ٥٣٠ (جوز).

(٣) ينظر: الإيضاح: ٢٨٩.

(٤) ينظر: الإيمان لابن تيمية: ٨٠، التفكير البلاغي عند العرب: ٩١.

(٥) ينظر: الكتاب: ٥٣/١.

(٦) ينظر: معاني القرآن: ٢٧١/٣.

(٧) الحيوان: ٤٢٦/٥.

وأشار ابن رشيق إلى نحو من ذلك ، حيث ذكر أنّ ((العرب كثيرًا ما تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها؛ فإنه دليل الفصاحة، ورأس البلاغة، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات))[1].

تحدث البلاغيون عن المجاز فذكروا إطباق العلماء على أنّ المجاز أبلغ من الحقيقة[2]، ((والمراد بالأبلغية هنا المبالغة؛ لأنّ كلاًّ من الحقيقة والمجاز له مكانه اللائق به، ولا يمكن الحكم لأحدهما بأنه أبلغ من الآخر على الإطلاق، فالعبرة للمقام، فمتى ما تطلب الحقيقة، فتكون حينئذ هي الأبلغ، والعكس بالعكس))[3].

وقد قسم البلاغيون المجاز قسمين:

١) المجاز العقلي:

كان هذا المجاز متداخلاً مع المجاز اللغوي، حتى أتى عبدالقاهر الذي يرجع إليه الفضل في الفصل بينهما[4]، وهو من فتح السبيل للبلاغيين للتعمق في دراسة هذا النوع من من المجاز؛ لما بثه من آراء نفيسة، وإلى ذلك يشير العلوي بقوله: ((اعلم أنّ ما ذكرناه في المجاز الإسنادي العقلي هو ما قرره الشيخ النحرير عبدالقاهر الجرجاني، واستخرجه بفكرته الصافية، وتابعه على ذلك الجهابذة من أهل هذه الصناعة، كالزمخشري، وابن الخطيب الرزاي، وغيرهما))[5].

وقد أطلق على هذا الضرب مسميات عدّة، فقد سمّوه مجازًا عقليًّا، ومجازًا حكميًّا، ومجازًا في الإثبات، وإسنادًا مجازيًّا.

---

(١) العمدة: ٤٢٩/١

(٢) ينظر: الإيضاح:٣٥٥، دلائل الإعجاز: ٧٠، المفتاح: ٥٢٣ .

(٣) ينظر: مجلة جامعة الإمام: إصلاح الإيضاح، عبدالمحسن العسكر: ٥١٥.

(٤) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٢٠٠/٣.

(٥) الطراز: ١٤٣/٣.

وعرفه عبدالقاهر بأنه ((كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل؛ لضرب من التأول))[1]. وأما الخطيب فقال في حدّه ((إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول))[2].

وقد نوّه عبدالقاهر ببلاغة هذا المجاز في كتابيه: الدلائل والأسرار، ومما قال: ((وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعًا مصنوعًا، وأن يضعه بعيد المرام، قريبًا من الأفهام))[3].

وترجع قيمة هذا الأسلوب إلى كونه يقوم بعقد صلات ذهنية في الإسناد تتكئ على الخيال، فتأتي الجمل في صورة رائعة، وقد أشار بعض الباحثين إلى أننا في هذا الضرب من المجاز نجد كل صورة فيه تثير في النفس خيالا طريفًا، حيث الأحداث والأفعال مضافة إلى غير فاعليها المألوفة في الوجود، فالخروق تسقي[4]، والنهار يصوم والليل يقوم[5]، وهذا وهذا الخيال ممتع مؤثر[6].

ولهذا الضرب علاقات مختلفة: فمنها المفعولية، والفاعلية، والمصدرية، والزمانية، والمكانية، والسببية[7].

وقد احتضنت الأحاديث المدروسة عددا من المجازات العقلية التي جاءت في علاقات متنوعة، فمن ذلك قوله ﷺ: "فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[8].

---

(١) أسرار البلاغة: ٣٨٥.

(٢) الإيضاح: ٣٤.

(٣) دلائل الإعجاز: ٢٩٥.

(٤) إشارة إلى قول الفرزدق:سقاها خروق في المسامع لم تكن- علاطا ولا مخبوطة في الملاغم. ينظر: الكامل:٦١/١.

(٥) إشارة إلى قولنا: نهارك صائم، وليلك قائم.

(٦) ينظر: خصائص التراكيب: ١٤٥.

(٧) ينظر: الإيضاح: ٣٤. معجم المصطلحات البلاغية: ٤٠٢/٣.

(٨) باب قوله تعالى:﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٣.

الأنهار جمع نهر، وهو مجرى المياه[1]، فكيف يسند إليه التفجر، فإسناد التفجر إلى الأنهار مجاز عقلي علاقته المكانية؛ جاء ليبين عظمة تلك الأنهار المتدفقة، حتى كأنّ النهر الذي هو مكان جري المياه يتفجر.

وقريب من هذا ما ورد في القرآن ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ {البقرة: ٢٥}، حيث جاء ((إسناد الجري إلى الأنهار مجازًا عقليًّا على طريق إسناد الفعل إلى المحل الذي يلابسه))[2].

ومن علاقات المجاز العقلي: السببية، ومما ورد على هذا الطريق قوله ﷺ: "احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ الْجَنَّةِ، قَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالاتِهِ وَكَلامِهِ، ثُمَّ تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى"[3].

قضى الله وقدّر على آدم الخطيئة والهبوط إلى الأرض، وكان هذا الهبوط سببًا في عتب موسى عليه السلام على آدم عليه السلام فقال: (أنت آدم الذي أخرجت ذريتك من الجنة)، وجاءت هذه الجملة على سبيل الإسناد المجازي لعلاقة السببية، فالمخرج لآدم وذريته من الجنة هو الله، ولكن المراد بالمجاز هنا أنك أخرجت ذريتك بخطيئتك وهي الأكل من الشجرة، وفائدة المجاز هنا: إظهار شناعة الخطيئة وبيان سوء عاقبتها[4].

ومن ذلك ما جاء في حديث شفاعة النبي ﷺ لأمته، حيث جاء في منتهاه "ثُمَّ أَرْجِعُ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ.."[5].

ففي قوله (من حبسه القرآن) مجاز عقلي، إذ القرآن لا يحبس، فالمراد: من حكم الله في القرآن بخلوده في النار، وهم الكفار[6]، والعلاقة هاهنا سببية، بحيث يكون الإعراض

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٤/ ٣٠٢ (نهر).

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي: ٤٢٥/١.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾: ٧٥١٥.

(٤) ينظر: القصة في الصحيحين: ٣٥٧.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾: ٧٤١٠.

(٦) ينظر: شرح الكرماني: ١٥٨/٢٥.

الإعراض عن القرآن، وهداياته، وعدم الالتزام بما تضمنه من أوامر الله ونواهيه سببًا في البقاء في النار؛ فيخرج الموحد بفضل الله ورحمته، ويبقى الكافر خالدًا فيه.

ومنه قوله ﷺ في خطبته في حجة الوداع: "أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟" قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ ذَا الْحَجَّةِ" قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: "أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟" قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟" قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: "فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟" قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: "أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ .."(١).

إسناد اليوم إلى النحر (أليس يوم النحر؟) علاقته الزمانية، حيث أضيف (يوم) إلى النحر الذي هو زمان له، وهذا يشعر بأنّ الشعيرة الأكمل في ذاك اليوم هي النحر، وهو التقرب إلى الله ﷻ بنحر بهيمة الأنعام أو ذبحها(٢)، حتى كأنما كان اليوم مخصصًا لهذه الشعيرة.

ومما جاء على العلاقة الزمانية قوله ﷺ: "إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلأَى، لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.."(٣).

قوله: (سحاء الليل والنهار) إسناد مجازي علاقته الزمانية؛ حيث أضيف السحّ والعطاء إلى الليل والنهار، وهما في الحقيقة زمن له، وهذا الإسناد ينبيك عن عطاء الله الدفّاق المدرار، حتى صار كأنّ الليل والنهار ممتلئان عطاءً وفضلاً، فهما يصبّان العطاء على الناس صبًّا صبًّا.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : ٧٤٤٧.

(٢) ينظر: الملخص الفقهي: ٣١٦/١.

(٣)باب قوله تعالى:﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾: ٧٤١٩.

٢) المجاز اللغوي:

هو ((الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له، في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح، مع قرينة عدم إرادته))(١).

وهو بحسب العلاقة على ضربين:

أ. المجاز المرسل.

ب. الاستعارة.

أ. المجاز المرسل:

وهو ما كانت العلاقة فيه غير المشابهة، كالكلية، والجزئية، والسببية، والمسببية، واعتبار ما كان، واعتبار ما سيكون، وغيرها، وقد بالغ بعضهم في إيراد العلاقات(٢) المتكلفة، وهي لا تخلو من تداخل.

ولهذا النوع من المجاز بلاغته العالية، كما أنّ كل علاقة، وكل مثال ينفرد بأسرار خاصة، وهناك من الأسرار ما يكون مشتركًا بين العلاقات، كالإيجاز؛ فالملكة البيانية التي تتراءى في هذه اللغة ملكة شديدة الميل إلى التركيز، قادرة على اللمح بواسطة القرائن، بارعة أحسن البراعة في الاختصار، وحذف زوائد الكلام، ثم إنه يتزود في صوره خيالاً يستميل الأفئدة، ويمتع النواظر(٣).

ومن شواهد هذا النوع قوله ﷺ: "إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ، مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ.."(٤).

---

(١) الإيضاح: ٢٨٩.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/٢٥٩ وما بعدها، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان: ١١ومابعدها.

(٣) ينظر: التصوير البياني: ٣٦٢.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾: ٧٣٩٠.

يوجه الرسول ﷺ أمته إلى أن يستخيروا ربهم في شؤونهم، فهو سبحانه الأعلم بما فيه صلاح عباده، وهو في هذا الحديث يشرح كيفية هذه الاستخارة، فأمر بأن (يركع ركعتين)، هذا مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر جزءًا وأراد الكل، فالمراد: فليصلّ ركعتين، واستعمال الركوع في الصلاة لأنه أحد أركانها التي لا تصح الصلاة بدونه، كما أنّ فيه معنى آخر وهو أنّ الركوع مختص بالتعظيم كما في قوله ﷺ: "فأمّا الركوعُ فعظِّمُوا فيه الربَّ ﷻ، وأما السّجودُ فاجتهدوا في الدُّعَاءِ فقَمِنٌ أنْ يُستَجابَ لَكُمْ"(١). فتعظيم العبد لخالقه موجب افتقاره إليه في كل حاجاته، فهو يفتقر إلى اختيار خالقه له فيما يريد الإقدام عليه.

ونحو هذا قوله ﷺ: " مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ؛ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا.."(٢).

فالمجاز في قوله: (أقام الصلاة) علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء وهو القيام وأرد الكل وهو الصلاة، فالمقصود من صلّى الصلاة.

ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: "أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"(٣).

فقد ذكر الجزء وهو الرقاب وأراد الكل وهي الذوات، فالعلاقة هنا الجزئية، ولا بد من الإشارة إلى أمر تجدر العناية به في هذه العلاقة، وهو أنه ليس كل جزء صالحًا لأن يراد به الكل، وإنما لابد أن يكون جزءًا مهمًّا ((فالقرآن يسمي الصلاة قيامًا؛ لأنّ القيام ركن من أركانها، ويسميها أيضًا الذكر والركوع والسجود، وكل هذه أساسيات في الصلاة))(٤). وهكذا كانت الأمثلة السابقة، ففي المثال الأول والثاني تجد أنّ كلاًّ من

---

(١) رواه مسلم: كتاب الصلاة: باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: ٤٧٩.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٣.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾: ٧٤٤٧.

(٤) التصوير البياني: ٣٦٤.

الركوع والقيام ركنان أصيلان من أركان الصلاة، كما تجد ذلك أيضًا في إطلاق الرقبة على الذات؛ إذ إنّ حياة الإنسان تنتهي بمجرد الإجهاز على رقبته.

ومنه قوله ﷺ: "لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ"[(١)].

الحلف لا يكون إلا بالله، لذا فإنّ كل حلف بغيره ممنوع ومنهي عنه، وتخصيص الآباء بالذكر هنا من باب إطلاق البعض وإرادة الكل، وإنما خص الآباء بالذكر؛ لكونه الشائع[(٢)]، ومما يدل على التعميم في النهي قوله: (ومن كان حالفًا فليحلف بالله).

ومن شواهد المجاز المرسل قوله ﷺ: "يَقْبِضُ اللَّهُ الأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ؟"[(٣)].

في يوم القيامة تتهاوى كل الطبقيات والعنصريات والمناصب، حيث يصبح الناس كل الناس سواسية، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فلا ملك يومئذ إلا ملك الله ﷻ، وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ ينادي الله ﷻ: (أين ملوك الأرض؟)؟ جاء هذا النداء على سبيل المجاز باعتبار ما كان، فهم قد كانوا ملوكًا لكن هناك، في الأرض، وفي هذا النداء من بث الرعب وتيقن الملوك الظلمة بعز الله وجبروته.

ومن علاقات هذا المجاز الكلية، كما جاء في حديث الشفاعة، حين يقدم المؤمنون لطلب الشفاعة من النبي ﷺ: "فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي، فَيَقُولُ: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، قَالَ: فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ.."[(٤)].

ففي قوله: (ارفع محمد) مجاز مرسل علاقته الكلية، فقد ذكر الكل وهو محمد وأراد الجزء وهو رأسه، وفيه إيحاء إلى الخضوع الكامل من رسول الله ﷺ بين يدي ربه ﷻ،

---

(١) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٤٠١.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٢٧٨/١٥.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾: ٧٣٨٢.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾: ٧٤٤٠.

فليس رأسه الذي التصق بالأرض، بل لكمال التذلل لربه، كأنما التصق بكليته خضوعًا لربه وتعظيمًا له، وهذا ما يؤكد التعبير بقوله: (فإذا رأيته وقعت له ساجدًا).

ومما جاء على هذه العلاقة قوله ﷺ: "قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ: فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ لَهُ"(١).

يرسم البيان النبوي في هذا الحديث المشهد التصاعدي اليائس لهذا الرجل، مما ألجأه إلى أن يأمر بنيه بكل ذلك، فقد جاء المجاز هنا مرسلاً علاقته الكلية؛ ليقرب لنا الصورة أكثر للحالة النفسية التي وصل إليها، حيث أمر بنيه أن يذروا نصفه في البر، ونصفه الآخر في اليم، والإلقاء لا يكون إلا في ناحية من البر وناحية من البحر، ولكنه أراد أن تتفرق أجزاؤه وتتناثر في أجزاء البر والبحر، ظنًّا منه أنّ ذلك يحقق استحالة جمعه، واستعمال المجاز يوضح شدة الخوف الذي تملّك ذلك الرجل.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ : ٧٥٠٦.

ب. الاستعارة:

وهي الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي[(١)].

والاستعارة فرع عن التشبيه وامتداد له، غير أنّ الحس بالشيء ورؤيته في التشبيه غير الحس به ورؤيته في الاستعارة، وكأنّ بين أيدينا سلّمًا تتعاقب درجاته، ويرتقي فيه الخيال درجة درجة بدءً من قولنا: هو كالأسد في شجاعته، ثم حذف وجه الشبه، ثم حذف الأداة، حتى نصل قمة التخيل، وهي الاستعارة عندما تقول: كلمت أسدًا، فقد أدمجت الأول في الثاني، وأفدت أنّ معك شيئًا واحدًا لا شيئين، وهذا غير قولك: هو أسد، وإن كان أفاد أن لا فرق بينهما؛ لأنك فيه تذكر شيئين لكن في الاستعارة تذكر شيئًا واحدًا[(٢)].

ففي التشبيه يحتفظ كل من المشبه والمشبه به بصورته تربط بينهما أداة ظاهرة أو مقدرة، أما في الاستعارة فلا يبقى من كل ذلك إلا شيئًا واحدًا، حين يقترب الطرفان من بعضهما البعض حتى يمتزجا.

ويأتي الخيال كقوة تستند إليها الاستعارة وتتكئ عليها، حيث يربط بين العناصر المتباعدة؛ ليحوّل الأشياء عن حقائقها، ويدخلها في غير أجناسها[(٣)].

وقد أشاد عبدالقاهر بالاستعارة أيما إشادة، فكان مما قال: ((هي أمدّ ميدانًا، وأشد افتنانًا، وأكثر جريانًا، وأعجب حسنًا وإحسانًا، وأوسع سعة، وأبعد غورًا، وأذهب نجدًا في الصناعة، وغورًا من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها))[(٤)]، ثم أفاض في ذكر فضائلها ومناقبها، فذكر أنها ((تبرز هذا البيان أبدًا في صورة مستجدة، تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد

---

(١) ينظر: التخليص: ٢٩٥.

(٢) ينظر: التصوير البياني: ١٨٨.

(٣) ينظر: مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة: ٣٣٣.

(٤) أسرار البلاغة: ٤٢.

حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة وخِلابة مموقة، ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ))[1].

وقد عدّد أبو هلال العسكري بعض أغراض الاستعارة، فقال: ((إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه))[2].

وللاستعارة تقسيمات كثيرة، أثبت هاهنا أبرزها، وهو تقسيم الاستعارة باعتبار ذكر المشبه به أو حذفه، وهي بهذا الاعتبار قسمان:

١) تصريحية: وهي ما حذف فيها المشبه، وصرّح فيها بالمشبه به.

٢) مكنيّة: ما حذف فيها المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه.

ومن شواهد الاستعارة قوله ﷺ: "مفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، لا يَعْلَمُهَا إِلا اللَّهُ، لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلا اللَّهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلا اللَّهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلا اللَّهُ"[3].

في قوله: (مفاتيح الغيب) استعارة؛ حيث شبّه الأمور المغيَّبة عن الناس بالمتاع النفيس الذي يدخر في المخازن المستوثق عليها بالأقفال بحيث لا يعلم ما فيها إلا الذي بيده مفاتيحها، وحذف المشبه به وأشار إلى شيء من لوازمه وهو: المفاتيح، وإسناد المفاتيح إلى الغيب استعارة تخييلية. وقد تجرى الاستعارة مصرّحة؛ حيث يشبه ما يتوصل به إلى معرفة الغيب بالمفاتيح التي يتوصل بها إلى فتح المغاليق[4]. وجاءت الاستعارة ((لتقريب الأمر إلى المخاطب؛ لأنّ أمور الغيب لا يحصيها أحد إلا عالمها، وكل شيء حيل بينك وبينه غيب، وأقرب الأشياء في ذلك هي الأبواب، أقل ما يحبسها عن الفتح وأيسرها

---

(١) أسرار البلاغة: ٤٣،٤٢.

(٢) كتاب الصناعتين: ٢٤٠.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾: ٧٣٧٩.

(٤) ينظر: شرح الكرماني: ١٢٥/٦، عمدة القاري: ٩٢/٧.

المفاتيح، فإذا كان أيسر الأشياء التي يعرف بها الغيب لا يعرف أحد لها موضعًا، فكيف يقدر أن يعرف ما هو أكبر من ذلك، هذا محال، وهذا من أبلغ البيان وأخصره))[1].

وفي قوله ﷺ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"[2].

يستعير البيان النبوي في هذا النص الإماتة للنوم، والإحياء للاستيقاظ، حيث يشبه النوم بالموت لما بينهما من تشابه كبير؛ فإنّ حالة النوم حالة انقطاع أهم فوائد الحياة عن الجسم، وهي الإدراك، إذ لا يستطيع الإنسان أن يسمع أو يرى أو يدرك إدراكاً شعوريًّا لما يجري حوله[3]، ولما كان حال النائم كذلك شبّه حال يقظة الإنسان من النوم بالحياة من جديد، حيث العودة إلى الإدراك بعد انقطاعه وقت النوم، والاستعارتان تصريحية تبعية؛ فقد صرّح بذكر المشبه به (الإحياء/الإماتة) ثم اشتق منهما (أحيا/أمات) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

ووقف النبي ﷺ على مسليمة في أصحابه، فقال: "لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ"[4].

لما جاء مسيلمة في وفد من قومه فقال: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، أقبل عليه ﷺ وفي يده قطعة جريد، فقال له: (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها) إمعانًا في إذلاله، وتحديًا لاستكباره وإعراضه، ثم أتبع ذلك ﷺ بتهديدين، أولهما (لن تعدو أمر الله فيك) أي حكمه، والثاني (لئن أدبرت ليعقرنك الله) أي: لئن أعرضت ليهلكنك الله[5]. وجاءت الاستعارة في قوله: (ليعقرنك)، فقد جاء في اللسان ((أصل العقر: ضرب

---

(١) بهجة النفوس: ٤/٢٧١.

(٢) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٣.

(٣) ينظر: أسرار النوم: ١١.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾: ٧٤٦٨.

(٥) ينظر: فتح الباري: ٩/٥٢٢.

قوائم البعير أو الشاة بالسيف..وقيل: أصله من عقر النخل، وهو أن تقطع رؤوسها فتيبس))[١].

إذن فالاستعارة مصرحة، فقد شبّه ما يصيب مسيلمة بسبب إعراضه بضرب قوائم البعير والجامع ما يحصل في ذلك من التنكيل والتعذيب والضيق والضنك والشدة، أو شبّه قتل مسيلمة بقطع رؤوس النخل بجامع الإهلاك في كلٍّ، على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق من العقر (يعقرنك) على سبيل الاستعارة التبعية، وإن كان في تشبيه حاله إعراضه بالبهائم مزيد إهانة له وإذلال.

ومنه قوله ﷺ: "أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ"[٢].

ففي قوله: (أبايعكم) استعارة تصريحية تبعية، حيث شبّه معاهدة المسلمين ومعاقدهم له على الإيمان بالله والطاعة لله ورسوله بالمبايعة التي تتم بين طرفين؛ وذلك لأنّ كلّ واحد منهما ((يبيع ما عنده من صاحبه، فمن رسول الله ﷺ وعد الثواب، ومن طرفهم التزام الطاعة))[٣]، فالرسول ﷺ يشتري من الصحابة أنفسهم وأموالهم مقابل جنة عرضها السماوات والأرض.

وفي وقوله: (طهور) استعارة أيضًا، فالطهور هو كل ماء نظيف، والماء الطَّهور هو الذي يرفع الحدث ويزيل النجس[٤]، فقد استعار تطهير الماء للدنس، وتنقيته البدن من الوسخ والقاذورات لما يعاقب به الإنسان في الدنيا، وما يحصل له لذلك من التطهير من

---

(١) لسان العرب: ٣١٣/٩ (عقر).

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾: ٧٤٦٨.

(٣) شرح الكرماني: ١٠٥/١.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٢١١/٨. (طهر).

الذنوب بجامع الإزالة والتنقية في كل منهما على سبيل الاستعار التصريحية. جاء في أساس البلاغة: ((ومن المجاز: تطهّر من الإثم: تنزّه منه))[(١)].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، "أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلا فِيمَنْ سَلَفَ، أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَالَ كَلِمَةً يَعْنِي أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالا وَوَلَدًا، فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ، قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا خَيْرَ أَبٍ.."[(٢)].

في هذا الحديث مظهر من مظاهر الصورة في البيان النبوي، وهو التشخيص، حيث شّبه الوفاة وهي معنى كأنها كائن حي له حضور ومجيء، ثم حذف المشبه به وذكر أحد لوازمه وهو الحضور على سبيل الاستعارة بالكناية، وإسناد الحضور إلى الوفاة تخييل.

وينقل النبي ﷺ مشهد الناس يوم القيامة، فيقول: "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ.."[(٣)].

في هذا المقطع تصوير لحال الناس في ذلك اليوم العظيم، وما يحدث لهم جرّاء الأهوال التي يعاينونها، والكروب التي يلاقونها، حيث يشبه الرسول ﷺ حال الناس وهم مضطربون يختلط بعضهم في بعض بالأمواج المتلاطمة حال هيجانها واضطرابها، ثم اشتق من الموج (ماج) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية. إنّ هذه اللفظة (ماج) صوّرت المشهد وكأنه أمامنا رأي العين، وهو تصوير بالغ الدقة ينبئ عن عظم الخطب، وهول الموقف.

وفي ذلك اليوم يرصد لنا النبي ﷺ مشهدًا آخر، حيث ((يُنَادِي مُنَادٍ: لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..))[(٤)].

---

(١) أساس البلاغة: ٦٢٠/١ (طهر).

(٢) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٥٠٨.

(٣) باب كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم: ٧٥١٠.

(٤)باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: ٧٤٣٩.

في قوله: (غبّرات من أهل الكتاب) استعارة بيّنها الرضي، لكنه أورد الحديث بلفظ (غبّرات أهل النّار)[1]، يقول: ((قوله: (غبّرات أهل النار) استعارة، والمراد: أعقابهم وبقاياهم، وذلك مأخوذ من غُبّر اللبن، وغبر بالتشديد والتخفيف، وهو بقيته في الخلف والضرع، وغُبْر الليل: آخره، مأخوذ من ذلك..))[2].

وفي هذا الحديث شبّه بقية الناجين من جهنم بما تخلف في الضرع من اللبن بعد الحلب، بجامع البقية القليلة، ثم حذف المشبه وهو البقية من أهل الكتاب، وأبقى المشبه به وهو (غبّرات) على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ويصف النبي ﷺ كيفية انتقال ما يسترقه الجان من خبر السماء إلى الكاهن بقوله: " تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنْ الْحَقِّ، يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ، فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ كَقَرْقَرَةِ الدَّجَاجَةِ، فَيَخْلِطُونَ فِيهِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ"[3].

يستعير البيان النبوي الخطف في وصف استراق الشياطين السمع لخبر السماء[4]، والخطف هو الأخذ في سرعة واستلاب، وهذا يشير إلى تكلف الجانّ في الوصول إلى مبتغاه؛ فالاستعارة هنا مصرحة حيث استعار لاستراق الجني السمع الاختطاف بجامع السرعة على سبيل الاستعارة التصريحية، ثم اشتق من الاختطاف (يخطفها) على سبيل الاستعارة التبعية.

وفي قوله ﷺ: "كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"[5].

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ في كتب أهل الحديث، ولكن موضع الاستشهاد هنا الذي هو (غبّرات) له أصل في البخاري ومسلم.

(٢) المجازات النبوية: ٣٤١.

(٣) باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦١.

(٤) ينظر: أساس البلاغة: ١/٢٥٧ (خطف).

(٥) باب قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾: ٧٥٦٣.

قال الطيبي: ((شبّه سهولة جريان الكلمتين على اللسان بما يخف على الحامل من بعض الأمتعة فلا يتعبه كالشيء الثقيل))[1]. إذن الاستعارة تصريحية، حيث صرح فيها بذكر المشبه به.

(١) شرح الطيبي: ٦/١٨٢٠.

- المبحث الثالث: الكناية والتعريض:

١) الكناية:

الكناية في اللغة: أن تتكلم بشيء وتريد غيره[(١)]، وأما في الاصطلاح فحدّها عبدالقاهر بقوله: ((أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى تاليه وردفه في الوجود فيومئ إليه، ويجعله دليلا عليه))[(٢)]، أما القزويني فذكر أنها ((لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه))[(٣)].

وقد تبوأت الكناية مكانة سامقة في البلاغة، فهي فن دقيق المسلك، لطيف المأخذ، محاسنها تملأ الطرف، ودقائقها تجل عن الوصف، لا يكمل لها إلا الشاعر المفلق، والخطيب المصقع[(٤)].

ولها في البلاغة موقع عظيم؛ فإنها تكسو الألفاظ جمالاً، وتكسب المعاني ديباجة وكمالاً، فإن أوقعتها في المدح كانت أحسن وأرفع، وإن صدرتها للذم كانت آلم وأوجع، وإن وقعت في الافتخار كان ضياؤه أسطع، وإن كانت موجهة للاعتذار فهي إلى سل سخائم القلوب أعجل وأقرب[(٥)].

ويفسر عبدالقاهر المقولة الذائعة (الكناية أبلغ من التصريح) بأنّ المعنى ليس أنك ((لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته، فجعلته أبلغ وآكد وأشد))[(٦)]، يضاف إلى ذلك أنّ المعنى الكنائي يكون مختفيًا وراء المعنى الأصلي، فيحتاج إدراكه إلى تأمل ومعاودة نظر، وهذا أدعى إلى تقويته في النفس، وتثبيته فيها، إذ توصلت إليه بعد معاناة فكر وكدّ وتعب.

---

(١) ينظر: القاموس المحيط: ١٣٣٥ مادة (كنى).

(٢) دلائل الإعجاز: ٦٦. وقد سبقه إلى ذا التعريف قدامة، لكنه سمّاه الإرداف، ينظر: نقد الشعر: ١٥٧.

(٣) التلخيص: ٣٣٧.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٠٦.

(٥) ينظر: الطراز: ٢١٩/١.

(٦) دلائل الإعجاز: ٧١.

وقد قسمها العلماء ثلاثة أقسام:[1]

أ. كناية عن صفة.

ب. كناية عن موصوف.

ت. كناية عن نسبة.

أ. الكناية عن صفة:

ضابط هذا النوع، أن يذكر الموصوف، وتنسب له صفة، ولكن هذه الصفة غير مرادة، وإنما المراد لازمها.

ومن شواهد هذا النوع قوله ﷺ: "إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الإِسْلامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ"[2].

فقوله: (لا يجاوز حناجرهم) كناية عن عدم فقه قلوبهم لما يقرؤون، وعدم انتفاعهم به، ولاحظ لهم سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق، فهو لم يصل إلى قلوبهم. وقد يكون كناية عن عدم صعود عملهم إلى الله، فلم تقبل تلاوتهم تلك[3].

و ثَمّ كناية أخرى ختم بها الحديث، وهي قوله: (لأقتلنهم قتل عاد) فقد أطلق اللفظ وأراد لازمه؛ لأنّ عادا لم يقتلوا، وإنما أهلكوا بالريح، ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ {الحاقة: ٦ } فأراد اللازم وهو الهلاك. وجاءت هذه الكناية من طريق التشبيه البليغ، وكما مر[4] فإنّ فيه دعوى اتحاد الطرفين، فهو ﷺ يتوعدهم بإهلاكهم تمامًا تمامًا كالهلاك الواقع بقوم عاد؛ فقد كانوا ممحلين محتاجين إلى المطر فرأوا سحابًا مقبلاً ففرحوا واستبشروا به لكنّ الذي ترقبوه كان عذابًا أليمًا، وأرسل الله عليهم ريحاً عاتية

---

(١) ينظر: التلخيص: ٣٣٩ وما بعدها.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: ٧٤٣٢.

(٣) ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٦٠٣/٣.

(٤) ينظر: ص١٩٦ من هذا البحث.

تأتي

أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه، حتى أباد الله المكذبين هودًا جميعًا[1] ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ {الحاقة: ٨ }.

ومن ذلك قوله ﷺ: "فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا"[2].

هذا الجزء مخيف للمؤمنين، باعث للوجل في قلوبهم؛ خشية سوء الخاتمة، وتغير الحال وقت دنو الأجل، والله ﷻ حكم عدل لا يمكن أن يسوق المؤمن الصادق البر التقي إلى النار، لذلك ورد في رواية أخرى للحديث تبين حال الرجلين، وكيف أنّ حالهما تغير في آخر الأمر يقول ﷺ: "إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ -فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ- وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ -فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ- وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[3]. فخاتمة السوء إنما تكون في حق من أساء العمل أو خلطه بالعمل الصالح المشوب بنوع من الرياء أو السمعة، كما أنّ الإنسان قد يعمل المعاصي في ظاهر أمره طويلا طويلا لكن يحمل في قلبه من الخوف والإشفاق والتوبة. فيمن الله عليه بالهداية[4].

وفي قوله: (حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع) كناية عن دنو الأجل وقربه[5]. أو كناية عن دنو بلوغه الجنة أو النار لما ظهر للناس من صلاحه أو فجوره.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ٢٠/٨، المستفاد من قصص القرآن: ١٧٨/١.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾: ٧٤٥٤.

(٣) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير: باب لا يقول فلان شهيد: ٢٨٩٨.

(٤) ينظر: فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين: ٣٧.

(٥) ينظر: بهجة النفوس: ٢٢٣/٣.

ومن ذلك قوله ﷺ: "تَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"(١).

يجلي هذا الحديث فضيلة الجهاد في سبيل الله، فالمجاهد لا يخلو من الظفر في كل أحواله؛ إما أن يستشهد ويدخل الجنّة، وإما أن (يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه)، وهذا التعبير كناية عن سلامته والإبقاء على حياته، والتأكيد على الرجوع إلى المسكن تحديدًا فيه إشارة إلى كمال الأمان والاستقرار.

وقوله ﷺ: "يَا فُلانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا"(٢).

ففي قوله: (وإن أصبحت)كناية عن بقائه قيد الحياة؛ إذ الإصباح يستلزم حياته، ويؤكد ذلك أنّ قوله: (إن أصبحت) جاء في مقابل قوله: (إن مت).

ونحو هذا قوله ﷺ: "إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ فِرَاشَهُ، فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ ثَوْبِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ"(٣).

هذا الحديث يفيض بأسلوب الكناية، فقوله: (إذا جاء أحدكم فراشه) كناية عن إرادة النوم، ثم ينتقل بك النص إلى كناية أخرى تنبئ عن استحكام الضعف البشري، وكمال الاستسلام لله ﷻ، فقوله: (وضعت جنبي) كناية عن النوم، فهنا استعانة بالله ﷻ على النوم، واستعانة به على الاستيقاظ أيضا (وبك أرفعه).

---

(١)باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾: ٧٤٥٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ : ٧٤٨٨.

(٣)باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٣.

ولا يزال هذا الحديث يرتقي بك في معارج العبودية (إن أمسكت نفسي)كناية عن قبض الروح؛ لذلك سأل الله المغفرة، و(إن أرسلتها) كناية عن الإبقاء على الحياة، فقها الشرور، واكلأها برعايتك من كل سوء ومكروه[١].

إنّ مثل هذه الأحاديث تكشف الحاجة الماسة، والفاقة الشديدة إلى عون الله ﷻ، فالإنسان في سائر حياته، مفتقر إليه من كل وجه.

ومن الشواهد أيضًا قوله ﷺ: "لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ"[٢].

قال النووي في وصف هذه الطائفة: ((ويحتمل أنّ هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم محدثون، ومنهم زهّاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، فلا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض))[٣]. جاء لفظ الكناية في قوله (ظاهرين) كناية عن علوهم على غيرهم وغلبتهم[٤].

وللكناية وظيفة خلقية حيث ترى فيها بعدًا تهذيبيًّا، يلجأ إليه البيان النبوي؛ ليعبر من خلالها عن التصريح ببعض المعاني التي يستحيى منها، حيث تجيء في صورة كنائية مهذبة، وإلى ذلك أشار ابن أبي الإصبع الذي جعل هذه الوظيفة أصلاً لتعريف الكناية، إذ قال: ((هي أن يعبر المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن، وعن الفاحش بالطاهر))[٥]، ويقول القاضي الجرجاني: ((واعلم أنّ الأصل في الكنايات عبارة الإنسان عن الأفعال التي تستر عن العيون عادة من نحو قضاء الحاجة والجماع بألفاظ تدل عليها غير موضوعة لها؛ تنزهًا عن إيرادها على جهتها، وتحرزًا عما وضع لأجلها، إذ الحاجة إلى ستر أقوالها كالحاجة إلى ستر أفعالها، فالكناية عنها حرز لمعانيها))[٦]، وهذا ظاهر باد في السنة عموما،

(١) ينظر: شرح الكرماني: ١١٢/٢٥.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾: ٧٤٥٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ٧٢/٧.

(٤) ينظر: عمدة القاري: ٧٣/٢٥.

(٥) تحرير التحبير: ١٤٣.

(٦) المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء: ٥

ومما ورد قوله ﷺ: "لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا.."(١).

فقد جاء قوله: (أن يأتي أهله)كناية عن الجماع، فالكناية جاءت وافية بالغرض، دالة على المعنى دون إخلال وفي عبارات مهذبة.

ب.الكناية عن موصوف:

وضابط هذا النوع أن نذكر الصفة أو النسبة، ولا نذكر الموصوف المكنى عنه.

ومن الشواهد على هذا الضرب قوله ﷺ: " بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ(٢)، فَجَعَلَ يَحْثِي فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَى رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ"(٣).

لم يكن أيوب عليه السلام ليمنع نفسه من الاستكثار من فضل الله عز وجل، فحين خرّ عليه الجراد جعل يحثي بيديه جميعًا. وقد أطلق لفظ البركة في قوله: (ولكن لا غنى لي عن بركتك) كناية عن موصوف، والمراد به: المال، ولاشك في كون المال القادم من هذه الجهة مبارك، قال ابن حجر: ((فيه الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه، وفيه تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة))(٤).

أما النوع الثالث، وهو الكناية عن نسبة فلم أعثر على شواهد عليه.

---

(١) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٦.

(٢) رجل جراد: أي جماعة جراد. ينظر: فتح الباري: ٦٩٣/٧.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾: ٧٤٩٣.

(٤) فتح الباري: ٦٩٣/٧.

٢) التعريض:

وهو خلاف التصريح، وألا يبين الكاتب[١].

والتعريض من الأساليب العربية العريقة، فقد عقد ابن قتيبة له وللكناية بابًا، وقال: ((ومن هذا الباب: التعريض، والعرب تستعمله في كلامها كثيرًا، فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح))[٢].

والتعريض في الاصطلاح هو ((اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي والمجازي))[٣]. ويختلف التعريض عن الكناية، فالدلالة في التعريض استتباعية لا لفظية، بينما الدلالة في الكناية لفظية، وإن كانت بلفظ غير موضوع للمعنى الكنائي[٤].

فالتعريض والكناية يتفقان في عدم التصريح، لكنهما يفترقان بعد ذلك، فالمعنى التعريضي غير مذكور لا بلفظه، ولا بلفظ لازمه، أما الكنائي فمذكور بلفظ لازمه.

وإلى هذا الفيصل بين الكناية والتعريض أشار الزمخشري في تفسيره قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ {البقرة: ٢٣٥}، حيث كان مما قال: ((فإن قلت: أي فرق بين الكناية والتعريض؟ قلت: الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، كقولك: طويل النجاد والحمائل لطويل القامة، وكثير الرماد للمضياف، والتعريض: أن تذكر شيئًا تدل به على شيء لم تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئت لأسلم عليك، ولأنظر لوجهك الكريم، ولذلك قالوا:

.... وحَسْبُكَ بالتسْلِيم مِنّي تَقَاضِيا[٥]

وكأنّ إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض))[٦].

---

(١) ينظر: القاموس المحيط: ٦٦٨ (عرض).

(٢) تأويل مشكل القرآن: ٢٦٣.

(٣) المثل السائر: ٥٦/٣.

(٤) ينظر: التعريض في القرآن: ٢٦.

(٥) وهو بكامله: أروح لتسليم عليك وأغتدي – وحسبك بالتسليم مني تقاضيا، ينظر: الكامل للمبرد: ١٣٥/١.

(٦) تفسير الكشاف: ١٣٧.

ويشير ابن الأثير إلى الخلط الوارد عند بعض البلاغيين بين الكناية والتعريض، فيقول: ((وقد تكلّم علماء البيان فوجدهم قد خلطوا الكناية بالتعريض، و لم يفرقوا بينهما، ولا حدّوا كلاًّ منهما بحدٍّ يفصله عن صاحبه)) ثم يفرق بينهما بقوله: ((والتعريض أخص من الكناية؛ لأنّ دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز، ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي))[(١)].

ومما جاء على أسلوب التعريض حديث أسامة بن زيد ﷺ حيث يروي أنّ رسول الله ﷺ دفع إليه صبي إحدى بناته، ونفسه تقعقع كأنها في شنٍّ ففاضت عيناه، فقال سعد ابن عبادة: ما هذا يا رسول الله، قال: "هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ"[(٢)].

كان النبي ﷺ يحمل بين جنبيه قلبًا رحيمًا عطوفًا، فلم يستطع أن يتمالك نفسه وهو يرى الصبي يلفظ أنفاسه الأخيرة، حتى فاضت عيناه الطاهرتان، ولمّا سئل عن ذلك أخبر أنّ ذاك أمر فطري جبل عليه الإنسان، ثم عرّض بأولئك الأجلاف الغلاظ، وكأنما نزعت الرحمة من قلوبهم، حيث لا تصيبهم رحمة الله، فهذه الرحمة الشريفة خاصة بالرحماء المتراحمين. قال ابن حجر: ((فيه الترغيب في الشفقة على خلق الله، والرحمة لهم، والترهيب من قساوة القلب، وجمود العين))[(٣)].

ومن شواهد التعريض ما جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ من أَنّ عليًّا ﷺ وهو باليمن بَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فِي تُرْبَتِهَا، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي مُجَاشِعٍ، وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيِّ، وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاثَةَ الْعَامِرِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي كِلابٍ، وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِيِّ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي نَبْهَانَ، فَتَغَيَّظَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا: يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا، قَالَ: "إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ"[(٤)].

---

(١) المثل السائر: ٣/٤٩-٥٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ : ٧٣٧٧.

(٣) فتح الباري: ٤/٣٨.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾: ٧٤٣٢.

فقد قسم النبي ﷺ هذا الذهب في رؤوس أربعة من القبائل مما أغضب قريشًا والأنصار، فعرّض بحالهم في قوله: (إنما أتألفهم) تعريضًا بضعف إيمانهم[1]، فأعطاهم ليستميل قلوبهم أكثر وأكثر، كما أنّ فيه تعريضًا من جانب آخر وهو قوة إيمان الصحابة من المهاجرين والأنصار فهم قد بلغوا من الإيمان منزلة عالية بحيث لم تعد قلوبهم بحاجة إلى استمالة بمال ونحوه.

وقد أشار عبدالقاهر إلى قوة اختصاص (إنما) بالتعريض، حيث قال: ((اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه))[2].

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للراجحي. (مخطوط على الشبكة).

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٥٤.

الفصل الخامس

التحسين البديعي

- ❖ المبحث الأول: البديع المعنوي.
- ❖ المبحث الثاني: البديع اللفظي.

البديع لغة من بدع الشيء يبدَعه بَدْعًا، وابتدعه: أنشأه وبدأه، والبديع والبدْع: الشيء الذي يكون أولاً[1].

وقد وردت مادة (بدع) في القرآن في مواضع عدة، كما في قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ {البقرة: ١١٧}. أي: مبدعها، و ((المبدع: المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله، وإحداثه أحد))[2].

وكان استعمال الفنون البديعية في الكلام قديمًا، حيث حفل الشعر الجاهلي وكذا الإسلامي بهذه الفنون التي لم يكن التطرق لها حينذاك تكلفًا وتصنعًا، بل جاء عن عفو خاطر، ووحي سليقة[3].

حمل البديع في القرون الستة الأولى دلالات واسعة، فقد ضم أنواعًا مختلفة من الفنون البلاغية التي لا صلة لها بالبديع، حتى جاء السكاكي وأفردها وسمّاها وجوهًا يصار إليها لتحسين الكلام، وقسمها إلى لفظية ومعنوية[4]، ثم جاء من بعده بدر الدين بن مالك فجمع هذه المحسنات تحت اسم البديع[5].

ثم جاء القزويني وعقد له فصلاً مستقلاً، وحدّه بأنه ((علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة))[6]. واستقر الحال بعد ذلك على هذا التعريف.

ويزعم باحثون أنّ هذا التعريف يعد منطلقًا للنظرة المجحفة التي لحقت بعلم البديع، حيث جعل البديع في منزلة وضيعة، فهو ذيل للمعاني والبيان؛ لأنه لا ينظر إليه إلا بعد مراعاته مطابقة الحال، ووضوح الدلالة.

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٣٤١/١ (بدع).

(٢) تفسير الطبري: ٤٦٤/٢.

(٣) الصبغ البديعي في اللغة العربية: ١٤.

(٤) ينظر: المفتاح: ٥٣٢.

(٥) ينظر: المصباح: ١٥٩.

(٦) التلخيص: ٣٤٧.

ورجع بعض الباحثين هذه النظرة الدونية للبديع إلى ما لاقته فنون البديع من امتهان على أيدي الشعراء والكتاب في عصر التجديد[1]. يضاف إلى ذلك ما لحق بالأدب عامة من ضعف حمل معه تيارًا مغرقًا في الصنعة، مولعًا بالتفنن والتشعيب في ألوانه الأصيلة[2].

إذن، فالبديع أصبح حلية وطلاء كما يعبر بعض المعاصرين؛ إشارة إلى ضعف تأثيره وكساد قيمته، لكنّ الأمر على غير ذلك، فأول ما يدحض هذا القول وينقض عراه اشتمال القرآن الكريم والسنة الشريفة على أنواع مختلفة من البديع فمن المحال أن يشتمل أبلغ كلام وأسناه على حلى عرضية.

وقد عدَّ بعض أعلام المتأخرين البديع أصلاً أصيلاً من علوم البلاغة، حيث جعل مرجع البلاغة في الاحتراز عن الخطأ في خواص التراكيب، وفي طرق دلالتها، وفي التحسين، ثم بيّن أنّ ما يحترز به عن الأول علم المعاني، وعن الثاني علم البيان، وعن الثالث علم البديع[3].

ومن العلماء الذين انتصروا للبديع وحفظوا له مكانته السبكي الذي علّق على تعريف الخطيب بقوله: ((والحق الذي لا ينازع فيه منصف أنّ البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأنّ كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ومن الإيراد بطرق مختلفة، ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، وأدل برهان على ذلك أنك تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى اشتمال شيء منها على التطبيق، ولا تجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد، بل تجد كثيرًا منها خاليًا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان، هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفًا لكلام الأكثرين))[4].

---

(١) ينظر: بلاغة البديع في جزء عم: ١١.

(٢) ينظر: دراسات منهجية في علم البديع: ٢٥٧.

(٣) ينظر: التبيان في البيان: ٢٢٦.

(٤) عروس الأفراح: ٢/٣٢٨.

إذن ليس الإشكال في البديع نفسه، وإنما في الاستعمالات السيئة له التي يصحبها التعمل والتكلف. ولم يكن استعمال النبي ﷺ للبديع متكلفًا كما سيتضح، وإنما كان ((يسيح على لسانه فطريًّا دون ارتصاد))[1].

والبديع ينقسم قسمين:

-قسم يرجع التحسين فيه إلى المعنى، ويتبعه تحسين اللفظ ثانيًا.

-وقسم يرجع التحسين فيه إلى اللفظ أولاً، ويتبعه بعد ذلك تحسين المعنى، فالمعنى إن عبر عنه بلفظ حسن استتبع ذلك زيادة في تحسينه[2].

---

(١) البيان النبوي: ٢٥٣.

(٢) ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن: ٢٣.

- **المبحث الأول**: **البديع المعنوي**:

١) الطباق:

مأخوذ في اللغة من طابقه مطابقة وطباقًا، وتطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، وطابقت بين الشيئين: إذا جعلتهما على حذو واحد[١].

وأما في الاصطلاح فهو: الجمع بين متضادين، أي: معنيين متقابلين في الجملة[٢].

والطباق لون من الألوان البديعية التي يشيع استعمالها في كلام الخاصة والعامة؛ بناءً على هو مركوز في الطباع من مقارنة الأضداد، وموازنة بين المتقابلات؛ نظرًا لكثرتها أمام الأنظار في مشاهد الكون ومظاهر الحياة[٣].

وتكمن بلاغة الطباق في ربطه الكلام بعضه ببعض عن طريق التضاد، فالمعاني تتداعى، والضد أو المقابل يجلب إلى الذهن ضده أو مقابله[٤].

فمن شواهد الطباق قوله ﷺ: "إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.."[٥].

أحوج ما يكون الإنسان إليه وقت المصائب التسلية والتعزية، وقد جاءت هذه العبارة النبوية في هذا السياق، مخاطبًا بها ابنته -رضي الله عنها-، وكل مصاب بفقد حبيب.

لقد جاء الطباق بين (أخذ/ وأعطى) رادعًا النفس عن الجزع والتسخط، فالذي أنعم عليك بهذا الحبيب وأسعدك به هو الذي أخذه منك. قال ابن حجر: ((قدم ذكر الأخذ على الإعطاء -وإن كان متأخرًا في الواقع- لما يقتضيه المقام، والمعنى أنّ الذي أراد الله أن يأخذه هو الذي كان أعطاه، فإن أخذه أخذ ما هو له، فلا ينبغي الجزع؛ لأنّ

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٢٠/٨(طبق).

(٢) ينظر: التلخيص: ٣٤٨.

(٣) ينظر: دراسات منهجية في علم البديع: ٥٠.

(٤) ينظر: البلاغة الاصطلاحية: ٢٩٩.

(٥) باب قوله تعالى:﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : ٧٤٤٨.

مستودع الأمانة لا ينبغي أن يجزع إذا استعيدت منه))[1]. فلا مناص عن التسليم التام والرضا بقضاء الله وقدره، فما نحن إلا من عباده، وهو سيدنا يفعل بنا ما يشاء.

ومنه أيضًا قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ لِي غَيْرُكَ"[2].

هذه من الدعوات التي كان يناجي النبي ﷺ بها ربه في الليل، تضمنت الثناء على الله بما هو أهله، وسؤال الله المغفرة مما عمل، وجاء هذا السؤال عن طريق التضاد بين (ما قدمت وما أخرت) وبين (وأسررت وأعلنت)، ولا شك في أنّ الألفاظ المتضادة هاهنا تفيد ما لا يفيده لفظ الكل؛ فـ((ذكر (ما قدّم) تصحبه نظرة النفس إلى الماضي في حساب وندم يبعث على الضراعة خوفًا من عقابه، وذكر (ما أخر) إشفاق على النفس وتوجس من المستقبل المغيب، يحمل على الحذر وطلب المعونة والستر، وتلك معانٍ في الرجاء يقرر بعضها بعضًا، ومثل ذلك (أسررت وأعلنت) فذكر الإسرار يقتضي الخجل من المطَّلع على السرائر، وذكر الإعلان يقتضي شدة الخجل على المجاهة والمجاهرة، فكل الناس معافى إلا المجاهرين، وليس شيء من ذلك ملحوظًا إذا استغنى عن التقابل بذكر الكل))[3].

كما أنّ التفصيل على هذا الوجه يشعر المؤمن وهو في حالة توبة وندم بالاطلاع الشامل عليه، وإحاطة الله ﷻ بكل أحواله علمًا. مما يقوي الرقابة الذاتية لديه في قابل أيامه.

ومن أقسام الطباق: طباق السلب، وهو الجمع بين مثبت ونفي، أو أمر ونهي[4].

ومما جاء على هذا اللاحب قوله ﷺ: "ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا.."[1].

---

(١) فتح الباري: ٣٦/٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ : ٧٣٨٥.

(٣) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية: ٢٤٠.

(٤) ينظر: التلخيص: ٣٥٠.

فالطباق جاء بين (لا تدعون) و (تدعون)، ومن أسراره هنا المبالغة في تأكيد سماع الله ﷻ لأصواتهم، وعدم حاجتهم لرفع الصوت، فقد جاء التوجيه النبوي برفق (اربعوا على أنفسكم) أي: ارفقوا ولا تجهدوا أنفسكم[٢].

ومنه قوله ﷺ في حديث الاستخارة: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ"[٣].

فالطباق بين قوله (تقدر) و (لا أقدر)، وكذلك بين قوله: (تعلم) و (ولا أعلم) جاء تقريرًا لضعف الإنسان، وتأكيدًا لفقر العباد التام إلى الله ﷻ من كل وجه، وفيه جهل الإنسان بالأصلح. كما أنّ فيه إبرازًا للمفارقة الكبيرة في الإقدام على الأعمال التي استخير الله فيها من عدمها. قال ابن حجر: ((وفيه أنّ العبد لا يكون قادرًا إلا مع الفعل لا قبله، والله هو خالق العلم بالشيء للعبد وهمه به واقتداره عليه، فإنه يجب على العبد رد الأمور كلها إلى الله، والتبري من الحول والقوة))[٤].

وألحقوا بالطباق أمورًا منها ما جاء على سبيل قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾{الفتح: ٢٩}، فإنّ الرحمة لم تكن مقابل الشدة، لكنها مسببة عن اللين الذي هو ضد الشدة[٥].

مثال ذلك قوله ﷺ: "يَا فُلانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾: ٧٣٨٦.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٤٢٣/١٤.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾: ٧٣٩٠.

(٤) فتح الباري: ٤٢٢.

(٥) ينظر: القول البديع في علم البديع: ١٢٢.

إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا"(١).

فقوله: (وإن أصبحت) ألحق بالطباق، لمجيئه في مقابل (متّ)، وفي الأصل الإصباح لا يضاد الموت، لكن لما كان الإصباح مستلزماً للحياة التي هي ضد الموت ألحق بالطباق من هذا الوجه.

٢) المقابلة:

وهي ((إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة المخالفة أو الموافقة))(٢). وقد جعلها القزويني فرعًا عن الطباق، إذ يقول: ((ودخل في المطابقة ما يُخَص باسم المقابلة، وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة، ثم ما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل))(٣).

غير أنّ أكثر البلاغيين ذهبوا إلى التفرقة بين الطباق والمقابلة، فالطباق يجمع بين الشيء وضده، أما المقابلة فيكون في أكثر من ذلك.

وتأتي المقابلة على صور مختلفة، فقد تكون بين معنيين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو أكثر من ذلك.

وجاء شاهدها في قوله ﷺ لمعاذ حين أرسله لليمن: "فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ؛ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ.."(٤).

فالمقابلة هنا جاءت بين معنيين، بين قوله: (تؤخذ من غنيهم) وقوله: (فترد على فقيرهم)؛ بين الأخذ والغنى، والعطاء والفقر. وهذه المقابلة بين المعنيين تشير إلى صورة من صور الإسلام المشرقة، ولون من ألوان التكافل الاجتماعي المأمور به شرعًا على سبيل الوجوب.

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾: ٧٤٨٨.

(٢) كتاب الصناعتين: ٣٠٤.

(٣) الإيضاح: ٣٦٨.

(٤) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٢.

٣) مراعاة النظير:

ويسمى التناسب، والائتلاف، والتوفيق، والمؤخاة[١]، وهو الجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد[٢].

ومن شواهده قوله ﷺ: "لا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ، وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ"[٣].

يخبر ﷺ عن الطائفة المنصورة القائمة بأمر الله ﷻ، تلك الطائفة التي لا تتضرر من أحد البتة يستوي في ذلك المكذب والمخالف، وجاء التناسب في الجمع بين المكذب (من كذبهم) وكذا المخالف (من خالفهم)، إذ بين المكذب والمخالف تناسب من حيث الإعراض والتولي عن القيام بأمر الله، وعدم الاستقامة على طاعته.

ويقول ﷺ: في حديث تشريع الصلاة: "يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ فَخَفِّفْ عَنَّا"[٤]. هذا المقطع بل الحديث بكامله ينبئ عن الشفقة المحمدية والرحمة النبوية بأمته، وحرصه الشديد عليها، فهو يراجع ربه ﷻ أكثر من مرة؛ طلبًا للتخفيف من عدد الصلوات المفروضة على أمته، حتى بلغت خمس صلوات بأجر خمسين، وجاء التناسب في الجمع بين قوله: (أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ).

---

(١) ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/٢٩٣.

(٢) ينظر: التلخيص: ٣٥٤.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾: ٧٤٦٠.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾: ٧٥١٧.

وألحق الخطيب بمراعاة النظير: تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى[(١)].

ومن تشابه الأطراف قوله ﷺ: " اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[(٢)].

جاء ختام الحديث مشتملاً على اسمين من أسماء الله الحسنى: (الغفور الرحيم) وهذان الاسمان مناسبان لما تضمنه أول الحديث من الاعتراف بظلم النفس، والتقصير في جنب الله، وطلب المغفرة من الله ﷻ.

ونحو هذا قوله ﷺ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"[(٣)].

فقد مضى الحديث حول الصورة البيانية في هذا الوِرْد[(٤)]، والكلام هاهنا مبني على ما سبق، حيث جاء الختام (وإليه النشور) مبينًا أنّ الخلق كلهم يبعثون يوم القيامة، ويحيون بعد الإماتة، وذاك مناسب لمبتدأ الحديث، وما فيه من إحياء الله ﷻ للعبد بعد موتته الصغرى.

٤) الاقتباس:

هو تضمين الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه[(٥)].

وقد أخذ بعض الباحثين على هذا التعريف الذي ارتضاه البلاغيون، وبيّن أنه لو قيل في تعريف الاقتباس: (هو تضمين الكلام -جملة أو أكثر- توافق لفظ القرآن أو الحديث) لكان أولى من عدة أوجه: منها: الاختصار في التعريف، والدقة من حيث يخرج التعريف السابق تضمين الكلمة ونحوها من القرآن والحديث، فلا يسمّى ذلك اقتباسًا،

---

(١) ينظر: التلخيص: ٣٥٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾: ٧٣٨٨.

(٣) باب السؤال بأسماء الله الحسنى والاستعاذة بها: ٧٣٩٤.

(٤) ينظر: ص٢١٥ من هذا البحث.

(٥) ينظر: التلخيص: ٤٢٢.

ومنها أيضًا أنّ في التعريف حسمًا للحرج الذي يجده بعض العلماء في الاقتباس، فهذا التعريف يعلم منه مباشرة أنه ليس قرآنًا ولا حديثًا[(١)].

ولم يرد سوى شاهد واحد، فعن أبي هريرة ﷺ يبلغ به إلى النبي ﷺ قال: "إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلائِكَةُ بأَجْنحَتِهَا؛ خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، -قَالَ عَلِيٌّ وَقَالَ غَيْرُهُ-: صَفْوَانٍ يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ فَإِذَا (فُزِّعَ عَنْ قُلوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)"[(٢)].

هذا الحديث يكشف النقاب عن حالة غيبية، وهي حال الملائكة حين قضاء الأمر في السماء، وليس المراد تشبيه صوت الله ﷻ بهذا؛ لأنّ الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ {الشورى: ١١ }، بل المراد تشبيه ما يحصل للملائكة من الفزع والخوف عندما يسمعون كلام الله بفزع من يسمع صوت جر السلسة على الصخرة الملساء[(٣)].

ولبيان حال الملائكة بعد قضاء الأمر لجأ البيان النبوي إلى الاقتباس من القرآن، وقد جاء الاقتباس من سورة سبأ لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ {سبأ: ٢٣}

٥) التقسيم:

يعد التقسيم من الفنون البديعية التي وردت الإشارة لها قديمًا، فقد أنشد بيت لزهير بين يدي عمر بن الخطاب ﷺ وهو قوله:

وإنّ الحقَّ مَقطَعُه ثلاث   يمينٌ أو نفارٌ أو جلاءُ[(٤)]

---

(١) الاقتباس: أنواعه وأحكامه: ١٥.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾: ٧٤٨١.

(٣) ينظر: القول المفيد: ١/٣١٠.

(٤) ينظر: ديوان زهير بن أبي سلمى: ١٣.

ردد عمر البيت كالمتعجب من علمه بالحقوق، وتفصيله بينها، وإقامته أقسامها[١].

والتقسيم في الاصطلاح هو أن يضع المتحدث أقسامًا فيستوفيها، ولا يغادر قسمًا منها[٢].

وليس المراد بالقسمة هنا القسمة العقلية، فإنّ ذلك يقتضي أشياء مستحيلة، وإنما نريد بالتقسيم هاهنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسمًا واحدا[٣].

وقد جعل عبدالقاهر التقسيم من شواهد دقة النظم، وأحد السبل التي بها تتحد أجزاء الكلام، ويشتد ارتباط بعضها ببعض[٤].

ومما جاء على التقسيم قوله ﷺ: "إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَنْ سَلَفَ مِنْ الأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ". كان هذا المدخل تشويقًا لما بعده، فالنفوس قد اشرأبت إلى تفسير هذه الجملة المجملة. يجيء بعد هذا المدخل التقسيم ليربط الكلام بأوله، ويشرح مجمله "أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صُلِّيَتْ الْعَصْرُ، ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيتُمْ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غَرَبَتْ الشَّمْسُ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ"[٥].

وفي الحديث القدسي يروي النبي ﷺ عن ربه أنه يقول: "إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[٦].

---

(١) ينظر: البيان والتبيين: ١/٢٤٠.

(٢) ينظر: نقد الشعر: ١٣٩.

(٣) ينظر: المثل السائر: ٣/١٦٦.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٩٣-٩٤.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ ﴾: ٧٥٣٣.

(٦) باب ذكر النبي ﷺ روايته عن ربه: ٧٥٣٦.

فهذا التقسيم المتصاعد لدرجات التقرب إلى الله ﷻ يحفز النفوس، ويستنهض الهمم، فالتقسيم الوارد بيّن درجات كل تقرب. ومامن شك في أنّ سلوك هذا الأسلوب يحث النفوس على بذل المزيد من القُرَب لتنال مزيدًا من القُرْب من الله ﷻ.

وقبل النوم يرشد النبي ﷺ إلى أن يقول المسلم: "بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ" بعد ذلك يجيء التقسيم " إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِين"[1]. فالحال بعد النوم لا يخلو من حالين: إما الوفاة فعندئذ يُطلب العفو والمغفرة، وفي حال الحياة فيتجه الرجاء نحو الحفظ من الشرور.

٦) اللفّ والنّشر:

يقوم هذا الفنّ على الجمع بين جزئين؛ فاللف يتضمن الجمع بين أمور متعددة، والنّشر يقوم على بيان وتفصيل ذلك.

وكان المبرد من أوائل من التفتوا إلى هذا الفنّ، حيث قال: ((والعرب تلفّ الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملة، ثقة بأنّ السامع يرد إلى كل خبره، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ {القصص: ٧٣}))[2].

واستقر حدّ اللفّ والنّشر على ما ذكره الخطيب: ((ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأنّ السامع يرده إليه))[3].

وهذا الفنّ من أساليب التشويق في العربية؛ وذلك للارتباط الوثيق بين اللفّ والنشر، وفيه لون من الإيضاح بعد الإبهام، كما أنه يربط بين أجزاء الكلام، ويزيد من تلاحم عناصره[4].

---

(١) باب السؤال بأسماء الله الحسنى والاستعاذة بها: ٧٣٩٣.

(٢) الكامل: ١٠٣/١.

(٣) التخليص: ٣٦١.

(٤) ينظر: دراسات منهجية في علم البديع: ٢٣٠.

ومن شواهده قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ"[1].

ففي هذا الجزء لفّ ونشر غير مرتب[2]، فقد جاء اللفّ في الاستخارة بعلم الله المحيط بكل شيء، والاستقدار بقدرته الكاملة، (أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك) ثم جاء النشر بعد ذلك (فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم) مضيفًا مزيدًا من البيان بشمولية إحاطة الله ﷻ وكمال قدرته.

وكذلك قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ؛ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ"[3].

جاء الحديث على ((اللفّ والنشر، أي: فوضت أموري إليك رغبة، وألجأت ظهري من المكاره والشدائد إليك رهبة منك؛ لأنه لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك))[4].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾: ٧٣٩٠.

(٢) ينظر: شرح الكرماني: ٢٢/١٦٩.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ : ٧٤٨٨.

(٤) عمدة القاري: ٣/٢٨٢.

- المبحث الثاني: البديع اللفظي:

١) الجناس:

الجناس في اللغة مأخوذ من الجنس، وهو الضّرب من كل شيء، والمجانس: المشاكل[١]. وهذا المعنى الأخير أخذ منه المعنى الاصطلاحي للجناس، وهو اتحاد اللفظ مع اختلاف المعنى[٢].

والجناس من الفنون العريقة، التي بدأ البحث البلاغي فيها منذ وقت مبكر، لكن الحديث عن وظيفته الفنية وقيمته التعبيرية جاء فيما بعد على يد عبدالقاهر الجرجاني، حيث ألمح إلى قضايا مهمة، منها أنّ الحسن والقبح في الجناس ليس محصورًا في اللفظ والجرس فقط بل يتعدى ذلك، فلا يستحسن ((تجانس اللفظين إلا إذا كان موقعهما من العقل موقعًا حميدًا، و لم يكن مرمى الجامع بينهما بعيدًا))[٣].

وللجناس مكانة سامقة في معارج التشويق، فالناظر لأول وهلة يظنّ أنّ اللفظ المجانس جاء تكرارًا، لكن بعد إنعام النظر يتبين للناظر معنى مغاير للفظ الأول، وكأنّ في هذا خداعًا وإيهامًا كما يعبر عن ذلك عبدالقاهر[٤].

ويشير ابن الأثير الحلبي إلى قيمة تعبيرية جليلة، فيقول: ((إنّ تشابه التجنيس تحدث بالسمع ميلاً إليه، فإنّ النفس تتشوف إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ))[٥].

وقد قسم بعض البلاغيين الجناس إلى أقسام كثيرة لم تخل من تكلف، واقتصر بعض المعاصرين إلى جعله قسمين: جناس تام، وجناس غير تام[٦].

---

(١) ينظر: القاموس: المحيط: ٥٦١ (جنس).

(٢) ينظر: المثل السائر: ٢٦٢/١.

(٣) أسرار البلاغة: ٧.

(٤) ينظر: أسرار البلاغة: ٨.

(٥) جوهر الكنز: ٩١.

(٦) ينظر: البلاغة في ثوبها الجديد (علم البديع): ١٣٤.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجناس المستحسن هو البعيد عن التصنع، بحيث يرسل المعنى على سجيته، وقد أكّد عبدالقاهر هذا المعنى غير مرة، من ذلك قوله: ((ولن تجد أيمن طائرًا، وأحسن أولاً وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، و لم تلبس من المعارض إلا ما يزينها))[1].

أ. الجناس التام:

وهو ما اتفق فيه اللفظان في أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها، وترتيبها[2].

وهذا النوع من الجناس لم أجد له شاهدًا في أحاديث كتاب التوحيد في صحيح البخاري.

ب. الجناس غير التام:

وهو ما اختلف فيه اللفظان في أحد الأمور الأربعة: أنواع الحروف، أو أعدادها، أو هيئاتها، أو ترتيبها.

وقد كشف عبدالقاهر النقاب عن فضله، وأبان شريف منزلته حين تحدث عن بعض أنواعه معلقًا على قول أبي تمام:

يمدونَ من أيدٍ عواصٍ عواصمٍ ... تصولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضبِ[3]

وقول البحتري:

لئن صدفت عنّا فربَّتَ أنفسٍ ... صوادٍ إلى تلك الوُجوهِ الصَّوادفِ[4]

حيث يقول: ((وذلك أن تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من (عواصم)، والباء من (قواضب) أنها هي التي مضت، وقد أرادت أن تجيئك ثانية،

(١) أسرار البلاغة: ١٤.

(٢) ينظر: التلخيص: ٣٨٨.

(٣) ينظر: ديوان أبي تمام بشرح التبريزي: ٢٠٦/١.

(٤) ينظر: ديوان البحتري: ٢٤١/١.

وتعود إليك مؤكدة حتى إذا تمكّن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال))[1].

وتحت هذا الضرب أنواع وملحقات:

ففي قوله ﷺ: " يَا فُلانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا"[2].

في هذا الحديث نوعان من أنواع الجناس غير التام، أما أحدهما، فهو:

-الجناس المضارع:

وهو إذا ما كان هناك الاختلاف في حرف واحد من حروف اللفظين المتجانسين، وكان الحرفان متقاربين[3].

وشاهده من الحديث قوله ﷺ: " رَغْبَةً وَرَهْبَةً ".

حيث جاء اللفظان (رغبة/رهبة) متفقين في عدد الحروف وهيئاتها وترتيبها، واختلفا في نوعها، فقد حلّت الهاء محلّ الغين.

"لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ".

جاء اللفظان المتجانسان (ملجأ/منجا) متفقين في عدد الحروف وهيئاتها وترتيبها، وجاء الاختلاف في نوعها، حيث جاء النون مكان اللام في اللفظ الثاني.

وأما النوع الثاني الوارد في هذا الحديث فهو:

---

(١) أسرار البلاغة: ١٧.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: ٧٤٨٨.

(٣) ينظر: الإيضاح: ٤١٢.

-الجناس الناقص:

وهو إذا ما كان الاختلاف في عدد الحروف بين اللفظين المتجانسين(١).

ومثاله من الحديث قوله ﷺ في آخر الحديث: " وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا".

فبين اللفظين (أصبحت) و (أصبت) جناس ناقص، حيث جاء اللفظ الأول زائدًا بحرف عن اللفظ الثاني.

-الملحق بالجناس:

ومما ألحق بالجناس أن يجمع بين اللفظين الاشتقاق(٢).

مثل ما روي من أنّ أكثر حلف النبي ﷺ " لا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ"(٣).

قال ابن حجر: ((والمراد بتقليب القلوب: تقليب أعراضها وأحوالها لا تقليب ذات القلب))(٤).

واللفظان: (مقلب) و (القلوب) كلاهما مشتقان من جذر واحد، وهو الجامع في تجانسهما.

وفي حديث الشفاعة يقول ﷺ: " فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ عَلَّمَنِيهَا، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ.. "(٥).

ففي هذا الجزء ثلاث شواهد للملحق بالجناس، حيث كان الجامع بين كل لفظين متجانسين الاشتقاق، فبين (اشفع) و (تشفع)، وبين (أحمد) و (محامد)، وكذلك بين (يحد) و (حدًّا) جناس اشتقاق، فأصل الأول: الشفاعة، وهي كلام الشفيع للملك في

---

(١) ينظر: الإيضاح: ٤١٠.

(٢) ينظر: الإيضاح: ٤١٤.

(٣) باب مقلب القلوب: ٧٣٩١.

(٤) فتح الباري: ١٥/٢٦٦.

(٥) باب قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: ٧٤١٠.

حاجة يسألها لغيره[1]. والثاني: من الحمد وهو الثناء[2]. والثالث: من الحد وهو الفصل بين الشيئين؛ لئلا يختلط أحدهما بالآخر[3].

٢) رد العجز على الصدر:

ويسمى التصدير، ولكن المدني يرى أنّ الاسم الأول أولى؛ ((لأنه مطابق لمسمّاه، وخير الأسماء ما طابق المسمّى))[4].

وأما حدّه فهو في النثر: أن يجعل أحد اللفظين المكررين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما في أول الفقرة، واللفظ الآخر في آخرها[5].

مثاله ما جاء في قوله ﷺ: " إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ"[6].

فهاهنا لفظان ملحقان بالجناس، وهما (يرحم) و (الرحماء)، جاء أولهما في أول الفقرة والآخر في آخرها، وفي هذا ترسيخ لقيمة الرحمة، وإشاعة لها بين الناس، فالتكرار يشي بأهمية هذا الخلق.

وفي قوله ﷺ: " اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"[7].

في هذا الحديث تكرار لبعض الألفاظ عن طريق جناس الاشتقاق، كما في قوله: (ظلمت) و (ظلمًا)، فالأصل واحد من الظلم، وهو مجاوزة الحد، أو من طريق رد العجز على الصدر كما في قوله: (فاغفر لي) الذي جاءت في أول الفقرة وقوله: (أنت الغفور)، الذي جاء في آخر الفقرة.

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٥١/٧ مادة (شفع).

(٢) ينظر: لسان العرب: ٣١٤/٣ مادة (حمد).

(٣) ينظر: لسان العرب: ٧٩/٣ مادة (حدد).

(٤) أنوار الربيع في علم البديع: ٣٠٥.

(٥) ينظر: الإيضاح: ٤١٥.

(٦) باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: ٧٤٤٨.

(٧) باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾: ٧٣٨٨.

ولهذا التكرار دلالاته، فالظلم متكرر وكثير، وفي هذا الاعتراف تذلل وخضوع بين يدي الله، وفي مقابل هذا الاعتراف بالظلم الكثير، يتكرر لفظ المغفرة، مما يشير إلى شدة تعلق العبد بها، ورغبته في الظفر بها.

٣) السجع:

هو ((تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد))[١].

والسجع من أوصاف البلاغة في موضعه، وقد أشاد به ابن جني بقوله: ((ألا ترى أنّ المثل إذا كان مسجوعًا لذّ سامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديرًا باستعماله، ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإن لم تحفظه لم تطالب نفسها باستعمال ما وضع له، وجيء به من أجله))[٢].

واشترطوا في حسن السجع أن يأتي على السجية، فـ((المذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسرًا بلا كلفة ولا مشقة))[٣].

والسجع من الفنون الفطرية التي تؤثر في النفوس تأثير السحر؛ لما يحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن، وتستميل النفس.

كما أنه عنصر من عناصر التناسب في الكلام، فالأسلوب مقسم إلى فقر متساوية، متشابهة الأوزان، متناسقة النغم، وهذا يؤدي إلى ربط الكلام وتلاحمه[٤].

ولم يغب السجع عن البيان النبوي، بل كان حاضرًا فيه بأجمل جرس، وأعذب نغم، وأوقع أثر، دون تكلف يصد المخاطب عن التأثر.

---

(١) الإيضاح: ٤١٨.

(٢) الخصائص: ٢١٦/١.

(٣) سر الفصاحة: ١٧١.

(٤) ينظر: دراسات منهجية: ١١٠.

قال ﷺ: "كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"[1].

جاء الترغيب في هذا الذكر بأسلوب جمالي أخاذ، يزيد الكلام روعة، ويملأ القلوب تأثيرًا؛ لعذوبة جرسه، وحسن نغمه.

وإذا كان أهل النظر جعلوا أحسن السجع ما قصرت فقره، فإنك تلحظ هذا في النص الماثل أمامنا في شكل يبعث على الإعجاب.

إنّ مجيء هذا الذكر بهذا الأسلوب المحبب للنفوس، حيث لا تحس الآذان إلا سلامة جرس، وطيب نغم، وسلامة نطق، من شأنه أن يؤثر في المتلقي بقبوله[2]، كما أنّ فيه تيسيرًا لحفظه وترداده.

وكذا قوله ﷺ: "اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ"[3].

في شكل مجزأ بديعي، ونغم موسيقي منتظم جاء هذا الابتهال النبوي، إنّ الوقوف على كل جملة بتسكين الفاصلة يكسو الألفاظ طربًا، ويوشحها جمالاً.

إنّ حرف السجع هنا (التاء) المهموسة جاء مناسبًا لساعات السحر، التي يناجي فيها المؤمن خالقه، حيث يهمس إلى ربه راجيًا الإخلاص، مقرًّا بألوهيته، معترفًا بتقصيره، طامعًا في عفوه.

وورد السجع بلا تصنع أيضًا في دعائه ﷺ يوم الأحزاب: "اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمْ الأَحْزَابَ، وَزَلْزِلْ بِهِمْ"[4].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ ﴾: ٧٥٦٣.

(٢) ينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٢٨٦.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾: ٧٤٤٢.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾: ٧٤٨٩.

جاء السجع في (الكتاب/الحساب/الأحزاب) دون تكلف بل على السليقة، ويلحظ هذا في مجموع الشواهد، ومن هذا الشاهد تحديدًا، حيث ختم الحديث بغير السجع الذي ابتدأ به.

وبعد، فإنّ السجع النبوي كما رأينا ((عذب الإيقاع، كريم المعنى، ترتاح إليه النفوس، وتقر برقته الأسماع، وتنشرح لمضامينه الصدور))[1].

(١) البيان المحمدي للشكعة: ٧٧٧.

الفصل السادس

السمات العامة لأحاديث كتاب التوحيد

- ❖ المبحث الأول: في المضمون.
- ❖ المبحث الثاني: في الشكل.

يتجه الحديث في هذا الفصل إلى بيان السمات العامة التي يختص به الشكل والمضمون في أحاديث كتاب التوحيد من صحيح البخاري، وإذا كان ثمة من اشتراك في هذه السمات بشكل عام، إلا أنّ لكل كتاب ما يميزه عن غيره.

كان حديثه ﷺ مضرب المثل، ومحلّ الإعجاب؛ حيث كان محكم المبنى، كثيف المعنى، فقد جاء على النظم البديع الذي تحدث عنه عبدالقاهر في قوله: ((ومنه ما أنت ترى الحسن يهجُم عليك منه دَفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين ضربة، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل، وموضعه من الحِذْق، وتشهد له بفضل المُنّة، وطول الباع))(١).

ولقد شهد الأئمة بتربع البلاغة النبوية على عرش البيان البشري، فهذا الزمخشري يقول: ((إنّ هذا البيان العربي كان الله -عزّت قدرته- مخضه، وألقى زبدته على لسان رسول الله ﷺ، فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل(٢)، وما من مصقع يناهزه إلا رجع فارغ السَّجْل))(٣). وقال القاضي عياض: ((وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلّة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخُصّ ببدائع الحكم، وعُلّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كلَّ أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه، وسيره علم ذلك وتحققه))(٤).

وكلام العلماء في هذا الشأن يطول، وليس المراد إثبات بلاغته ﷺ، فهذا أمر متأصل، ولا يماري فيه إلا جاهل، إنما القصد الإشارة إلى أنها بلغت الكمال البشري في

---

(١) دلائل الإعجاز: ٨٨.

(٢) متفكك الرجل: كناية عن العجز.

(٣) الفائق في غريب الحديث: ١/١١.

(٤) الشفا: ١/٩٥.

البيان، وأنها تقع تالية للقرآن بلاغة وفصاحة وبيانا. وسيكون الحديث عن السمات العامة في أحاديث كتاب التوحيد في مبحثين:

- المبحث الأول: المضمون.
- المبحث الثاني: الشكل.

- **المبحث الأول**: **في المضمون**:

١) وفرة الأفكار وجدتها:

حيث يشتمل الحديث الواحد على معان وأفكار متعددة، فالمعاني تزدحم في النص النبوي. وعند إلقاء النظر على شروحات البخاري يُلحظ أنّ العلماء يقفون عند الحديث الواحد يستنبطون منه الأحكام والدروس المتنوعة[١].

ولا زال العلماء حتى اليوم يقفون أمام النص النبوي ينهلون من معينه، ويقتبسون من نوره، عبرًا وأحكامًا. وهذا برهان بلاغة، ودليل براعة؛ فإنّ من أسباب رفعة طبقة الكلام أن يكون مستعدا لاستنباط كثير من الفروع والوجوه.

ومن آكد البراهين على ذلك أنك تجد الحديث الوارد في كتاب التوحيد، ورد من قبل في كتاب أو كتابين أو ثلاثة أو أكثر، وهذا دليل قوي على وفرة المعاني التي يتضمنها الحديث النبوي. فتراه ((وكأنه دوائر يتولد بعضها من بعض، وكأنه تجري فيه شرايين تتدفق بالمعاني والإشارات))[٢]وفيما يأتي ذكر لعدد من الشواهد، وكيف أنها بالإضافة إلى ورودها في كتاب التوحيد وردت في كتب مختلفة.

من ذلك قوله ﷺ: "خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ، قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ: أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكِ لَكِ" ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾[٣] {محمد: ٢٢}.

فإيراد البخاري لهذا الحديث في كتاب التوحيد جاء لإثبات صفة الكلام لله ﷻ[٤]، وأنه صفة ذاتية فعلية.

---

(١) ينظر: الحديث النبوي، للصباغ: ٥٢.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٢٦٠.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾: ٧٥٠٢.

(٤) ينظر: فتح الباري: ١٧/٥٠٥.

وأثبت البخاري هذا الحديث في كتاب التفسير[1]، وذلك في تفسيره قول الله ﷻ: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ {محمد: ٢٢}.

وأورد الحديث أيضًا في كتاب الأدب[2]، وذلك لـ((الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره، فأدخله في حمايته، وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول))[3].

ومن الشواهد على هذه الخصيصة ما رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- من أنّ رسول الله ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، فَقَالَ: "لا بَأْسَ عَلَيْكَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ" قَالَ: قَالَ الأَعْرَابِيُّ: طَهُور؟ بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "فَنَعَمْ إِذًا"[4].

فهذا الحديث ورد في كتاب التوحيد، لإثبات مشيئة الله ﷻ، وقد بين ابن حجر سبب إيراد المؤلف له في كتاب التوحيد، وهو قوله: (طهور إن شاء الله)[5].

وورد الحديث نفسه في كتاب المرضى[6]، لغاية أخرى وهي بيان تواضع النبي ﷺ حيث كان يعود عامة الناس[7].

وفي الكتاب نفسه ورد الحديث في باب آخر[8]؛ لبيان ما يستحب أن يقال للمريض عند عيادته

وورد الحديث أيضًا في باب علامات النبوة[9]، وبين ابن حجر سبب دخوله في هذا الباب، كون الحديث له زيادة في أحد طرقه وهي: "أما إذا أبيت فهي كما تقول،

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾: ٤٨٣٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله: ٥٩٨٧.

(٣) فتح الباري: ٥٢٠/١٣.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾: ٧٤٧٠.

(٥) ينظر: فتح الباري: ٤٧٩/١٧.

(٦) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة الأعراب: ٥٦٥٦.

(٧) ينظر: فتح الباري: ٣١/١٣.

(٨) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب ما يقال للمريض وما يجيب: ٥٦٦٢.

(٩) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: ٣٦١٦.

قضاء الله كائن"، فما أمسى من الغد إلا ميتا. فوجه الدخول تحقق ما أخبر به النبي ﷺ؛ لذلك أورده البخاري في هذا الباب.

فانظر إلى هذا النص القصير كيف درس في أبواب مختلفة، وتحت كل باب يتفرع عدد من المسائل.

ومن ذلك ما رواه أبو هُرَيْرَة عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: "مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ"[1].

فإثبات العرش لله ﷻ، وكونه سقف المخلوقات كانا سبب إيراد المؤلف لهذا الحديث في كتاب التوحيد.

وأورد المؤلف الحديث في كتاب آخر[2]؛ لبيان درجات المجاهدين في سبيل الله، وقد عدد ابن حجر بعض فوائد هذا الحديث فقال فيه: ((فضيلة ظاهرة للمجاهدين. وفيه عظم الجنة، وعظم الفردوس منها. وفيه إشارة إلى أنّ درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد إما بالنية الصالحة أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة))[3].

ولو سار المبحث في تتبع ورود الأحاديث في أبواب البخاري الأخرى ومناسبة ذلك في كل باب لطال به المقام. ولعل فيما طرح يعطي لمعة عن وفرة المعاني التي تضمنتها أحاديث كتاب التوحيد.

---

(١) باب قوله تعالى ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾: ٧٤٢٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله: ٢٧٩٠.

(٣) ينظر: فتح الباري: ٥٣/٧.

أما جدّة المعاني فذلك أكثر من أن يحصى، من ذلك ما روي عن أَبِي ذَرٍّ قال: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فَلَمَّا غَرَبَتْ الشَّمْسُ قَالَ: "يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ؟" قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: "فَإِنَّهَا تَذْهَبُ تَسْتَأْذِنُ فِي السُّجُودِ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَكَأَنَّهَا قَدْ قِيلَ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا" ثُمَّ قَرَأَ ذَلِكَ مُسْتَقَرٌّ لَهَا في قراءة عبدالله[1].

فالرسول ﷺ يخبر في هذا الحديث عن كيفية طلوع الشمس من مغربها، وهذا خبر جديد على البشرية جمعاء؛ حيث تذهب بعد غروبها تسجد لربها، وسيأتي اليوم الذي يأمرها بأن تطلع من حيث غربت، وحيئذ ﴿ **لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا** ﴾ {الأنعام: ١٥٨}.

ومن قبيل هذا إخباره ﷺ عن بعض مشاهد العالم الغيبي، ففي مزايا المدينة النبوية عصمتها من الدجال، يقول ﷺ: "الْمَدِينَةُ يَأْتِيهَا الدَّجَّالُ، فَيَجِدُ الْمَلَائِكَةَ يَحْرُسُونَهَا، فَلَا يَقْرَبُهَا الدَّجَّالُ وَلَا الطَّاعُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"[2].

فالحديث إخبار عن أحد أشراط الساعة وهو الدجّال، وتفضيل للمدينة بعصمة الله لها من دخول الدجال.

٢) السهولة والوضوح:

تجيء المعاني في الأحاديث في غاية الوضوح؛ يفقهها العامة والخاصة، ولا غرو فالحديث وحي من الله ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ {النجم: ٤}، وهو المصدر الثاني للتشريع، فيعرف الناس من خلاله أمور دينهم وما يصلح دنياهم.

انظر مثلا إلى قوله ﷺ: "لا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ"[3].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ ﴾: ٧٤٥٩.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾: ٧٤٧٣.

(٣) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٤٠١.

ففي الحديث نهي صريح عن الحلف بغير الله ﷻ؛ وذلك لما يتضمنه من تعظيم للمحلوف به، فالنهي هنا عن الحلف بغير الله يشمل الآباء وغيرهم، وربما كان التصريح بذكر الآباء لكثرته.

ومن صور الوضوح أيضًا، وضوح الأجر المترتب على فعل الأعمال الصالحة، وفي ذلك مزيد ترغيب للإقبال عليها؛ فيدركه الصغير والكبير والعالم والجاهل، من ذلك قوله ﷺ: "كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ"(١).

وهذا لا يعني أنّ كل ما ورد واضح وسهل، بل إنّ هناك ما يصعب فهم المقصود به على العامة، وحتى يدركوا مراد الشارع يحتاجون إلى شرح وإيضاح العلماء، من ذلك قوله ﷺ: "إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ"(٢).

فلا تحديد في الحديث لمعنى (التصوير) المحرم الوارد في الحديث، فهو بحاجة إذن إلى بيان من قبل العلماء لتحديد المعنى الذي يتجه إليه الوعيد.

٣) الإحكام:

فمعاني الحديث تأتي متماسكة منسجمة، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا، بلغت الغاية في التدرج والتسلسل، انظر مثلاً إلى قوله ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: "إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"(٣).

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾: ٧٥٦٣.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾: ٧٥٥٨.

(٣) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٢.

ففي الحديث تدرج وتسلسل من الأهم فالمهم، فالغاية الكبرى توحيد الله ﷻ، فهي الأساس الذي ينطلق منه الناس إلى بقية شرائع الدين. وهذا التدرج منهج نبوي حري بالدعاة أن يسلكوه في دعوتهم وتعليمهم الناس الخير.

ونعني بالإحكام أيضًا أن يكون المعنى ملمًّا بالحقيقة من كافة أطرافها، فلا تفوته ناحية، ولا يندّ عنه جانب ، كما أنّ المعاني براء من كل تناقض وتنافر، من ذلك قوله ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ"(١).

فقد استقصى الحديث هاهنا حالات الإنسان، في همه بالحسنة والسيئة، ومباشرته لهما، أو إعراضه، وفيه بيان عظيم فضل الله ورحمته بعباده، حيث ((جعل العدل في السيئة، والفضل في الحسنة، فضاعف الحسنة، ولم يضاعف السيئة، بل أضاف فيها إلى العدل الفضل، فأدارها بين العقوبة والعفو))(٢).

ونحو هذا حديث عمرو بن تغلب ﷺ قال: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ مَالٌ، فَأَعْطَى قَوْمًا وَمَنَعَ آخَرِينَ، فَبَلَغَهُ أَنَّهُمْ عَتَبُوا فَقَالَ: "إِنِّي أُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الَّذِي أُعْطِي، أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِنَى وَالْخَيْرِ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ"(٣).

فحظ الناس في هذا العطاء إما أن يعطوا وإما أن يتركوا، وقد بين النبي ﷺ حال الفريقين، وذكر سبب الإعطاء والترك.

ومنه قوله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الَّذِي لا يَقْرَأُ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ

(١) باب قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾: ٧٥٠١.

(٢) فتح الباري: ٦٥٢/١٤.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾: ٧٥٣٥.

الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلا رِيحَ لَهَا"[1].

فهذا من الأحاديث التي جاءت على قدر كبير من الاستقصاء والتفصيل، القائمة على المقابلة بين الأضداد.

٤) الشمول:

أرسل الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا للناس كافة، فجاء هديه منهاجا شاملا لما فيه صلاح البشرية في دينها ودنياها.

ففي الأحاديث المدروسة نلحظ اهتمامًا محمديًّا، بجوانب الإصلاح الديني والدنيوي، وهذا دليل عظمة هذا الدين الخاتم ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾{المائدة: ٣}.

فعلى مستوى المجتمعات يؤصل المصطفى ﷺ أسس العلاقات الاجتماعية، فينهى عن الظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل، فمن ذلك قوله ﷺ: "ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ، لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ؛ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ"[2].

ومن الشمول الحض على الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة وإشاعتها في المجتمع من خلال ذكر الأجر المترتب عليها؛ ليرغب فيها ويغري بها، من ذلك ﷺ: "اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ"[3].

---

(١) باب قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم.

(٢) باب قوله تعالى:﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾: ٧٤٤٦.

(٣) باب قوله تعالى:﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾: ٧٤٧٦.

قال ابن حجر: ((في الحديث الحض على الخير بالفعل، وبالتسبب إليه بكل وجه))[١]. كما أنّ في قوله (ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء) مزيد ترغيب في الشفاعة؛ فالشافع مأجور وإن خاب سعيه[٢].

ويقصد بالشمول هنا: صلاحية الأفكار والمعاني لكل زمان ومكان، فهي منهاج حياة، فتوجيهاته لمعاذ ﷺ حين أرسله لليمن "إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ"[٣]. هي نبراس لكل الدعاة العاملين، بأن يبدؤوا بالأهم وهو توحيد الله ﷻ، ويتدرجوا في تعليم الناس الخير.

وتأتي الأحاديث على كافة التفاصيل في حياة الإنسان موجهة ومرشدة، فإذا ما احتار الإنسان في أمر بين الإقدام أو الإحجام، فالحديث النبوي يوجهه لاستخارة الله ﷻ فيصلي ركعتين ثم يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ هَذَا الأَمْرَ -ثُمَّ تُسَمِّيهِ بِعَيْنِهِ- خَيْرًا لِي فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، -قَالَ: أَوْ فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي- فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، -أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ- فَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ"[٤].

---

(١) فتح الباري: ٥٧٥/١٣.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٤٣٠/٨.

(٣) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٢.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ ﴾ ٧٣٩٠.

وإذا ما أراد الرجل أن يأتي امرأته يوجهه النبي ﷺ إلى أن يقول: "بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا" والجزاء على ذلك "فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرُّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا"[1].

(١) باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: ٧٣٩٦.

- المبحث الثاني: في الشكل:

١) إشراق الألفاظ ووضوحها:

ألفاظ النبوة تتبوأ مكانة خاصة، حيث ((يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي وإن لم تكن من الوحي، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي دليله، محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة))(١).

كانت ألفاظ أحاديثه ﷺ مشرقة، سهلة، تجمع إلى الوضوح قوة البناء والتركيب، وسبب اطّراد هذه الصفة في كلامه ﷺ أنّ مهمته الأولى تبليغ الرسالة، ولن يكون ذلك إلا بالكلام الواضح البيّن، وقد أشار العقاد إلى ذلك فقال: ((إنّ السّمة الغالبة على أسلوب النبي ﷺ هي سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى، بل هي السّمة الجامعة التي لا سمة غيرها؛ لأنها أصل جامع لما تفرق من السّمات))(٢).

وحين نعد السهولة سمة عامة لا يعني بذلك أنّ لغة الحديث لا بلاغة فيها، أو سوقية مبتذلة، بل هي من السهل الممتنع الذي يظن كل أحد أنه يقول مثله، فإذا رامه تعذر عليه(٣).

كما أنّ أحاديثه ﷺ في كتاب التوحيد لا تحوي ألفاظًا وحشية غريبة، أو كلمات متنافرة الحروف، أو جملا غير مرتبة، بل هي ألفاظ وجمل في غاية السهولة والسلاسة، وفي أقصى مراتب الاتساق والانتظام.

فقوله ﷺ: "الْمَدِينَةُ يَأْتِيهَا الدَّجَّالُ، فَيَجِدُ الْمَلائِكَةَ يَحْرُسُونَهَا، فَلا يَقْرَبُهَا الدَّجَّالُ، وَلا الطَّاعُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"(٤).

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٢٢٧.

(٢) عبقرية محمد: ٦٩.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين: ٥٨.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾: ٧٤٧٣.

فالحديث واضح الألفاظ، ولا يحتاج إلى شرح وإيضاح. وفيه إشراق وجمال، لاحظ دقة الاستعمال في قوله: (يحرسونها)، و لم يقل يحفظونها أو سوى ذلك، وذلك لما في معنى الحراسة من الاستمرار والديمومة، وصرف الآفات عن الشيء قبل وقوعها[1]، وكذا كان سائر أحاديثه ﷺ.

٢) الإيجاز:

ونعني بالإيجاز هنا، إيجاز القِصَر، الذي لا يتأتى إلا لكبار البلغاء، فله في البلاغة ((موقع عظيم، دقيق المجرى، صعب المرتقى، لا يختص به من أهل الصناعة إلا واحد بعد واحد، ومهما عظم المطلوب قلَّ المساعد))[2].

وأشار النبي ﷺ إلى هذا النوع من الإيجاز، فقال: "بعثت بجوامع الكلم"[3]. وهي قليلة الألفاظ كثيرة المعاني[4]. وقال ابن الأثير: ((هي الجامعة للمعاني المقصودة على إيجازها واختصارها))[5].

وقد أحسن من قال:

وجوامعُ الكلمِ التي فُتِحتْ له خَضَعت لها البلغاءُ والحكماءُ[6]

ويرجع أحد الباحثين شيوع الإيجاز في البيان النبوي إلى أنّ السنّة الشريفة الخاتمة قامت في مبدأ أمرها على الحفظ، حيث نهاهم النبي ﷺ عن كتابة الحديث؛ خشية اختلاطه بالقرآن، ومما سهل حفظها في ذلك العصر وما بعده سهولة الألفاظ، وإيجاز العبارات[7]. وقد أشار إلى ذلك العز بن عبدالسلام، حيث قال في مفتتح كتابه الإشارة إلى الإيجاز:

---

(١) ينظر: الفروق في اللغة: ٣٥٧.

(٢) الطراز: ٢/ ٦٥.

(٣) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير: باب قول النبي ﷺ: "نصرت بالرعب مسيرة شهر": ٢٩٧٧.

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٦/٣.

(٥) المثل السائر: ١/٨٠.

(٦) ينظر: الفتوحات الوهبية: ٦٨.

(٧) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: العلوم العربية: بحث معالم البيان: ١٠١.

((الحمد لله الذي بعث نبينا ﷺ بجوامع الكلم، واختصر له الحديث اختصارا؛ ليكون أسرع إلى فهم الفاهمين، وضبط الضابطين، وتناول المتناولين))[1].

فمن شواهده قوله ﷺ: "قَالَ اللَّهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[2].

أراد النبي ﷺ أن يختصر المسافات، ويبين أنّ النعيم الأعظم هو نعيم أهل الجنّة، فسلك طريق الإيجاز، حيث وصفه بوصف بليغ، استقصى فيه النعيم كله، فأي نعيم أعظم من هذا الذي لم تره عين، ولم تسع به أذن ولم يخطر على قلب بشر على امتداد العصور، وتعاقب الدهور؟

ومما جاء على هذا السبيل قوله ﷺ حين سأله عمران ﷺ: فيم يعمل العاملون؟ قال: "كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ"[3].

فالحديث إجابة كافية في عبارة موجزة لاستشكال يأتي لبعض الناس، وهو أن القلم سبق بكتابة الأعمال، فلا يحتاج العامل إلى العمل لأنه سيصير إلى ما قدّر له. فجاء قوله ﷺ رادًّا لهذا الخاطر بإيجاز غير مخل، فـ(كل ميسر لما خلق له). قال ابن حجر: ((في الحديث إشارة إلى أنّ المآل محجوب عن المكلف، فعليه أن يجتهد في عمل ما أمر به؛ فإنّ عمله أمارة إلى ما يؤول إليه أمره غالبًا))[4].

ولما سأل أناس النبي ﷺ عن الكهّان قال: "إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ"[5].

وفي هذه الإجابة الموجزة يزيح النبي ﷺ كل الهالات التي تحف الكهنة والمشعوذين، فهم ليسوا بشيء، وفي هذا تقليل من شأنهم، وأنه لا يحصل شيء لابن آدم إلا بإذن الله ﷻ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ {البقرة: ١٠٢}.

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإعجاز: ١١

(٢) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٨.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾: ٧٥٥١.

(٤) فتح الباري: ٢١١/١٥.

(٥) باب قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم: ٧٥٦١.

وقد جرى الحديث حول شواهد الإيجاز في بابه[1].

٣) البعد عن التكلف:

لم يكن أسلوب النبي ﷺ خاليا من التكلف فحسب، بل إنه كان ينكر على المتصفين بهذه الصفة ويبغضهم، فقد قال ﷺ: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة **الثرثارون** والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يا رسول الله قد علمنا **الثرثارين** والمتشدقين فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون "[2].

والثرثار: هو الكثير الكلام؛ تكلفًا، والمتشدق: هو المتكلم بملء شدقه؛ تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه، والمتفيهق: هو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه؛ إظهارًا لفصاحته وفضله، واستعلاءً على غيره[3].

وفي قوله ﷺ: "إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة "[4]. ما يردع عن التكلف، ويزجر عنه. قال الطيبي: ((قوله: (يتخلل بلسانه): هو الذي يتشدق في الكلام، ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها، شبه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم؛ تفاصحًا، بما تفعل البقرة بلسانها))[5].

وفي الدراسة أحاديث اشتملت على وجوه من البديع اللفظي، لكنك لا ترى فيها أثرا لتكلف أو تصنع.

كما ذمّ ﷺ السجع المتكلف، فقد ثبت أن رسول الله ﷺ قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فأصاب بطنها وهي حامل، فقتلت ولدها الذي في بطنها، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقضى : أن دية ما في بطنها غرة، عبد أو أمة،

---

(١) ينظر ص ١٦٢من هذا البحث.

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر واصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معالي الأخلاق: ٢٠١٨.

(٣) شرح الطيبي: ٣١٠٦/١٠.

(٤) رواه الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله ﷺ، باب الفصاحة والبيان: ٢٨٥٣.

(٥) شرح الطيبي: ٣١٠٧/١٠.

فقال ولي المرأة التي غرمت: كيف أغرم، يا رسول الله ، من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك بطل. فقال النبي ﷺ: (إنما هذا من إخوان الكهان)[١]. وذلك لمشابهته كلامهم، والذم متجه هنا إلى التكلف، ومدافعة الحق به[٢].

ومما يتعلق بالبعد عن التكلف، أنّ كلامه ﷺ كان يصدر على البديهة، فلا تكلف ولاتصنع، وهذا أمر في غاية الإدهاش، حيث نجد أنّ مادة الدراسة ضمت موضوعات مختلفة جاءت في قوالب في غاية السمو الأدبي، يقول الرافعي: ((ومعلوم أنه ﷺ لا يتعمل ولا يتكلف، ولم يكتب، ولم يؤلف، ومع هذا لا تجد في بلاغته ﷺ موضعًا يقبل التنقيح، أو تعرف له رقة من الشأن، كأنما الألفاظ ومعانيها في كل بلاغة مقياس وميزان))[٣].

يقال هذا، ونحن نرى كيف يحتشد محترفو البيان لتنقيح فنّهم، فالنص لا يخرج إلا بعد كدٍّ وعناء، ومراجعة وتصحيح وتنقيح، بل وصل الحال إلى أشد من ذلك، كما عند أصحاب الحوليات، وما ينزل بهم من ((طول التفكر، وشدة العناء، ورشح الجبين))[٤].

ومع كل ذلك لا تسلم تلك النصوص المحلّقة التي تخرج بعد لأي وجهد من تصويبات ونظرات نقدية.

وقد أثبت شواهد في فصل البديع تؤكد هذا المعنى[٥]، ومما جاء أيضا شاهدا للبعد عن التكلف قوله ﷺ: "يَا فُلانُ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا"[٦].

---

(١) رواه البخاري: كتاب الطب: باب الكهانة: ٥٧٥٨.

(٢) ينظر: فتح الباري: ١٩٢/١٣.

(٣) وحي القلم: ١٢/٣.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتية: ٨٩/١.

(٥) ينظر: ص ٢٢٩ من هذا البحث.

(٦) باب قوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾: ٧٤٨٨.

هذا الدعاء بتناغم أجزائه، وسلاسة عباراته، وهدوء أصواته يناسب حال النوم، فصفة الهمس في الكاف، التي كانت فاصلة السجعات الأولى، وكذا في التاء التي جاءت فاصلة للسجعات الثانية، تلائم أوقات السكون.

لا تلحظ وأنت تقرأ الحديث لأي عملية تكلف، بل ترى التناسق والتناغم باديًا جليًّا، هذا بالإضافة إلى ما تضمنه الحديث من الجناس البديع، الذي سبقت الإشارة إليه[1].

٤) الصورة البيانية:

القدرة الفائقة على التصوير، والتفنن فيه سمة لا تخطئك وأنت تقرأ كلام المصطفى ﷺ، وفي أحاديث الدراسة جاء التصوير عبر طرائق مختلفة؛ فتارة بأسلوب التشبيه والتمثيل، وأخرى بالاستعارة، وثالثة بالكناية. وحين التأمل الصورة البيانية يُلحظ عدد من المظاهر:

أ- **الدقة في التصوير**: من ذلك أنّ النبي ﷺ ذُكِرَ الدَّجَّالُ عِنْدَه، فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ -وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ- وَإِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ"[2].

ففي الحديث وصف جزئي للمسيح الدجال، وكأنك تراه رأي العين، حيث وصفه بأنه أعور العين اليمنى، التي أصبحت كأنها عنبة طافية، أي: بارزة ناتئة جاحظة[3]، وفي هذا من القبح ما فيه.

وعَنْ جَرِيرٍ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قَالَ: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا"[4].

---

(١) ينظر: ص٢٤٥ من هذا البحث.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: ٧٤٠٧.

(٣) ينظر: فتح الباري: ١٦/٥٨٤.

(٤) باب قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾: ٧٤٣٤.

هذا تشبيه للرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي[1]، حين يتنعم المؤمنون برؤية ربهم كما يرون القمر، (تَضامُّون) في رؤيته أي لا تتزاحمون في ذلك ولا يحجب بعضكم بعضًا عند رؤيته، وروي: (لا تُضامُون) أي من الضيم وهو المشقة والتعب، فلا يحصل لكم في رؤيته أي نصب أو تعب، وفي رواية: (تُضاهون) أي لا يشتبه عليكم، ولا ترتابون فيه فيعرض بعضكم بعضًا، وفي رواية أخرى: (هل تُضارُّون في القمر ليلة البدر؟، فهل تضارُّون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟.....فإنكم ترونه كذلك) أي: لا تضرون أحدًا في رؤيتكم، وجاء بالتخفيف: (تُضارُون) وقيل في معناها: من الضير وهو لغة في الضر، وقيل إنكم لا تتضايقون و تتزاحمون عند رؤيته، ، وفي رواية: (هل تُمارون) أي لا تجادلون، أو يدخلكم فيه شك[2].

فتأمل دقة البيان النبوي في توصيف رؤية المؤمنين لربهم، وذلك عبر دلالات مختلفة.

ب-التجسيم: يطلق التجسيم في مضمار الأدب ويراد به إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في صور وتشابيه محسوسة هي في واقعها رموز معبر عنها[3].

والتجسيم هو العملية الفنية التي تكون قنطرة بين العالم الداخلي للمشاعر والأفكار، وبين العالم الخارجي للمدركات الحسية[4].

وقد تحدث العلماء قديما عنه، فيما يسمّى بتشبيه المعقول بالمحسوس، يقول الباقلاني: ((وتصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب، حتى تعلمه كأنك تشاهده، وإن كان يقع بالإشارة، ويحصل بالدلالة والأمارة))[5].

---

(١) ينظر: شرح الكرماني: ١٤١/٢٥.

(٢) ينظر: فتح الباري: ١٣٣/١٥.

(٣) ينظر: المعجم الأدبي: جبور عبدالنور: ٥٩.

(٤) ينظر: الصورة الفنية في الحديث النبوي: ٤٠٩.

(٥) إعجاز القرآن للباقلاني: ٢٧٨.

وجاء ذكر التجسيم في كلام لابن جنّي مؤكدًا أهميته، حيث قال: ((ألا ترى إلى قول بعضهم في الترغيب في الجميل: لو رأيتم المعروف رجلا لرأيتموه حسنًا جميلا، وإنما يرغب فيه بأن ينبه عليه، ويعظم من قدره، بأن يصوره في النفوس على أشرف أحواله، وأنوه صفاته، وذلك بأن يتخيل شخصًا متجسمًا، لا عرضًا متوهمًا))[1].

ومما جاء على هذا السبيل قوله ﷺ: ""مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ – وَلا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إلا الطَّيِّبُ– فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ"[2].

ففي الحديث تبدو جمالية التجسيم، حيث القفزة بالخيال التي جعلت غير الحسي حسيًّا، وما في ذلك من ربط البعيد بالقريب؛ فتربية الله للصدقة أمر غيبي غير مدرك بالحواس، لكن تمثيله في هذه الصورة جعلها قريبًا من الأذهان.

وأيضًا قوله ﷺ: " فإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إلا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا"[3].

الذراع هنا كناية عن قرب الأجل ودنوه، وجاء التجسيم لينقل المسافة التي هي من مدركات العقل، إلى مدرك حسي، يعرف الناس مقداره؛ وذلك إمعانًا في تقريب الصورة وإيضاحها.

ج–**التشخيص**: مأخوذة من (شَخَص)، وهو كل جسم له ارتفاع وظهور، وغلب في الإنسان[4].

---

(١) الخصائص: ٢/٤٤٣–٤٤٤.

(٢) باب قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾: ٧٤٣٠.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: ٧٤٥٤.

(٤) ينظر: المعجم الوسيط: ١/٤٧٥ (شخص).

وأما دلالته الأدبية، فهي إبراز الجماد، والمجرد من الحياة في شكل كائن حي، يتميز بالشعور والحركة والحياة[1].

وعند حديث عبدالقاهر عن الاستعارة أشار إلى التشخيص، حيث قال: ((فإنك لترى الجماد بها حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والأجسام الخرس مبيِّنة، والمعاني الخفية بادية جلية))[2].

من ذلك قوله ﷺ: "اخْتَصَمَت الْجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَت الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ مَا لَهَا لا يَدْخُلُهَا إلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَت النَّارُ: -يَعْنِي- أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، قَالَ: فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَإِنَّهُ يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَنْ يَشَاءُ فَيُلْقَوْنَ فِيهَا فتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ ثَلاثًا، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا قَدَمَهُ، فَتَمْتَلِئُ وَيُرَدُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ قَطْ قَطْ قَطْ"[3].

قيل إنّ الاختصام الوارد في الحديث جاء على سبيل الحقيقة، وقيل إنه على المجاز، لكن ((الواجب حمل الكلام على الحقيقة ما لم يمنع من ذلك مانع، ولا مانع هنا، ولا دليل يدل على صرف الكلام عن ظاهره))[4].

ومع الإقرار بالصبغة الحقيقية للمحاجة، فلا مندوحة عن الإشعاع النفسي الذي يخلفه التصوير حقيقةً كان أم مجازًا، فالمغايرة في الطبائع تشد الانتباه، وتؤسس زيادة في الترغيب والترهيب؛ لخروج هذه المخلوقات عن المألوف. وتأمل قوله تعالى، وهو جارٍ على الحقيقة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ {فصلت: ٢٠ – ٢١}. وكيف تنخلع قلوب المؤمنين خشية ورهبة

---

(١) ينظر: المعجم الادبي: ٦٧.

(٢) أسرار البلاغة: ٤٣.

(٣) باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾: ٧٤٤٩.

(٤) ينظر حاشية فتح الباري، تعليق الشيخ: عبدالرحمن البراك: ٤٥١/١٧.

عند سماعهم وقراءتهم لهذه الآيات؛ وذلك لأنّ هذه الجوارح ليس من شأنها الحديث والشهادة، وقد كان الإنسان في حياته الدنيوية في مأمن منها، حتى إذا جاء اليوم الآخر شهدت عليه بما كان يعمل.

ومنه ما رواه أبو سعيد من أنّ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ "ذَكَرَ رَجُلاً فِيمَنْ سَلَفَ أَوْ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَالَ كَلِمَةً: يَعْنِي أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا فَلَمَّا حَضَرَت الْوَفَاةُ قَالَ لِبَنيهِ أَيَّ أَب كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ أَوْ لَمْ يَبْتَئِزْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَإِنْ يَقْدِر اللَّهُ عَلَيْهِ يُعَذِّبْهُ...."[1].

ففي الحديث طاقة تخييلة، فقد شخص الوفاة، ونفخ الروح فيها، فباتت كائنًا حيًّا تحضر وتغيب.

٥) الحوار:

جاء الحوار كأحد الأوعية البيانية التي كان يقدم فيها النبي ﷺ رسالته للناس، ولأسلوب الحوار خصوصية في بث المفاهيم الصحيحة، وتصحيح السلوكيات الخاطئة، والترغيب والترهيب؛ ولذلك ما يلحظ من التفاعل بين الطرفين، الرسول ﷺ من جهة، والصحابة من جهة أخرى، كما أنّ الحوار من أنجع الوسائل لترسيخ المفاهيم القويمة[2].

وقد جاء الحوار على صور متنوعة، فمن ذلك أن يبتدأ النبي ﷺ الحوار بجملة محملة بشحنات من التشويق؛ استدعاءً لانتباه المحاوَر؛ لتترسخ المعاني والأفكار في قلبه، شاهد هذا قوله ﷺ: "يَا مُعَاذُ: أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟" قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟" قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ"[3].

---

(١) باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾: ٧٥٠٧.

(٢) ينظر: الخصائص البلاغية في البيان النبوي: ٦١.

(٣) باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى: ٧٣٧٣.

فالحديث يتحدث عن أس القضايا؛ قضية التوحيد التي بها يكون فلاح الإنسان وخسرانه، وقضية هذا شأنها لا بد أن يكون لها الأسلوب الأقوى أثرًا، والأكثر رسوخًا، وقد سلك في الحديث عن هذه القضية طريق الحوار، حيث يظل كل طرف يظل كل طرف في بحث دؤوب عن إصابة الحقيقة، وحصد المعارف، كيف إذا كان ذلك مع نبي الله محمد ﷺ الذي يصدر عن السماء؟

وقد يكون الحوار أحيانا عبارة عن سؤال يبادر به أحد الصحابة بحثًا عن إجابة شافية، كما روي عن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الصَّلاةُ لِوَقْتِهَا وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[(١)].

٦) تصعيد المعاني:

وهو أمر يتصل بالوجدان والثروة النفسية، ويراد به ((طرد الكلام حثيثًا في مقدمات يسلِّم بعضها إلى بعض كأقيسة المنطق، توصل في سرعة وسلامة إلى النتيجة))[(٢)].

ومما جاء على هذه الطريقة قوله ﷺ لمعاذ حين أرسله لليمن: "إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ".

ففي الحديث تصعيد بديع، وتدرج فريد، يخاطب به قومًا لم يسلموا بعد، يعرض عليهم فيه شرائع الدين، وأصوله شيئًا فشيئًا. إنّ هذا التدرج والتصعيد يقود في النهاية إلى مؤمن قائم بأوامر الله عز وجل منته عن نواهيه.

وفي قوله ﷺ حين يناجي ربه: "اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

---

(١) باب وسمّى النبي ﷺ الصلاة عملا، وقال: "لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب": ٧٥٣٤.

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٣٥٢.

وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الْحَقُّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ"(١).

فالمقدمة التي امتلأت بتعظيم الله ﷻ، والإقرار بألوهيته، وقيوميته، تقود المؤمن إلى الإيقان بأنه المالك لكل شيء، والتسليم بكمال قدرته، والرغبة فيما عنده، والرهبة من عقابه، بعد أن يتمكن ذلك في قلب المؤمن يسأل الله من خيري الدنيا والآخرة. لذلك كان من آداب الدعاء الاستفتاح بالثناء على الله ﷻ(٢).

(١)باب قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾: ٧٤٩٩.

(٢) ينظر: تصحيح الدعاء: ٢٢.

أحمد الله ﷻ على توفيقه وتيسيره إتمام هذه الدراسة، وأشكره شكرا كثيرا كبيرا، فله الفضل والمنة.

وبعد أن عاش الباحث أياما جميلة، وليالي ماتعة، قضاها متنقلاً بين رياض الحديث النبوي الشريف، يقف في منتهى المطاف موجزًا ما تم، ومشيرًا إلى أهم النتائج والتوصيات.

فقد عرّفت في التمهيد بصحيح الإمام البخاري، فهو مصدر المادة المدروسة، وكذا أشرت إلى شيء من سيرة الإمام البخاري. وبينت الموضوعات التي تضمنتها الأحاديث النبوية في كتاب التوحيد.

وفي الفصل الأول بدأ النظر البياني في الأحاديث منطلقًا من اللفظة، فذكرت دقة اختيار اللفظ النبوي وملاءمته للسياق، ثم أثر الدلالة الصوتية في الألفاظ، ثم انتقلت لهيئة اللفظة، فتناولت التنكير والتعريف، والإفراد والتثنية والجمع، ودلالة الاسم والفعل، كاشفًا عن الأسرار البلاغية في تلك الاستعمالات.

وعني الفصل الثاني بالجملة، ولطائف التعبير بها، وبيان جماليات التركيب البياني النبوي، فابتدأت بالخبر والإنشاء، وتحدثت فيه عن أغراض الخبر وأضربه، ثم ثنيت بالتقديم والتأخير، فالإطلاق والتقييد، فالقصر.

وامتد الحديث في الفصل الثالث، وبات أكثر اتساعًا، حيث كان الحديث عن الجمل، فابتدأت بخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، ثم نظرت في المناسبات بين المعاني، والصلات بين الجمل وأخواتها، في مبحث الفصل والوصل، ثم تحدثت عن خصيصة من خصائص البيان النبوي وهي الإيجاز ومظاهره، ثم انتقلت لبيان بلاغة الإطناب، وكيف يكون الجمع بين الإيجاز والإطناب بلاغة وبيانًا.

وكان الحديث في الفصل الرابع حول براعة البلاغة النبوية في التصوير البياني، وكيف سلك البيان النبوي وسائل التصوير: التشبيه، والمجاز بأنواعه، والكناية والتعريض؛ لتبليغ الرسالة بصورة مقنعة.

واشتمل الفصل الخامس على مبحثين، بينت فيهما عناية البيان النبوي بالبديع، حيث احتوت الأحاديث صورًا متنوعة من البديع، مشيرًا إلى الدلالة المعنوية له، وأنه ليس

حلية وزينة شكلية فحسب، وإنما يستدعيها المقام، فكان الحديث عن صور البديع اللفظي والمعنوي.

وكان ختام الفصول: السمات العامة التي تميزت بها أحاديث كتاب التوحيد، ذكرت فيه خصائص المضمون، وكذلك خصائص الشكل.

وقد أسفر البحث عن جملة من النتائج والتوصيات:

١) اشتملت أحاديث كتاب التوحيد على موضوعات كثيرة متفرقة، لكن تلك الموضوعات تنضوي تحت موضوع واحد، وهو إثبات أسماء الله الحسنى، وصفاته العلى.

٢) كشف البحث عن وفرة الشاهد البلاغي لكثير من الفنون البلاغية في الأحاديث النبوية.

٣) تبين للباحث قلّة عناية العلماء بالجانب البلاغي للحديث النبوي، ففي كتب الشروح الحديثية لا نجد سوى إشارات يسيرة سوى ما كتبه الطيبي في الكاشف عن حقائق السنن. وفي كتب البلاغة ترى فقرًا شديدًا في المؤلفات البلاغية قديمها وحديثها.

٤) أظهر البحث الحرص الشديد من النبي ﷺ على هداية أمته، ويظهر ذلك من خلال سلوكه الأساليب البيانية المختلفة، والفنون البلاغية المتنوعة؛ بغية الوصول إلى قلوب المخاطبين للتأثير فيهم، ومراعاة لتعدد مشارب المتلقين وتباين تفكيرهم. وصدق الله، ومن أصدق من الله قيلاً؟ ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ {التوبة: ١٢٨}.

٥) شارك البحث من سبقه في إمداد المكتبة البلاغية بشواهد نبوية لكثير من الفنون البلاغية، في المعاني والبيان والبديع.

٦) أكّد البحث الترابط الوثيق بين علم البلاغة من جهة، والعلوم العربية والشرعية من جهة أخرى، فقد أفاد الباحث في التحليل البلاغي، وإدراك الدقائق

واللطائف البيانية من تفاسير مختلفة للقرآن الكريم، وكذلك الشروح الحديثية وهي العمدة في هذه الدراسة، بالإضافة إلى كتب علم النحو، والصرف، ومعاجم اللغة، وكذلك كتب الأصوات في علم التجويد؛ سعيًا للوقوف على أسرار التعبير النبوي.

٧) تبين للباحث أنّ الدراسة المفصلة المجزأة للنص تذهب من بريقه، وتخفف من قوة تأثيره، حيث تجد النص الواحد الذي يؤم مقصدًا أو مقاصد محددة، وتسهم الأساليب البيانية المختلفة في تأكيده، فإذا بالدراسة تفرقه شذر مذر، ليدرس النص في مواطن متفرقة من الرسالة، فيضعف ذلك من قوته.

وقبل الختام، هناك اقتراح، وتوصية:

١) يقترح الباحث على الأقسام العلمية البلاغية القيام بمشروع لدراسة الأحاديث النبوية من جانبها البلاغي والبياني، وقد يكون ذلك حسب المصنفات، أو من خلال الموضوعات المدونة في الكتب والأبواب الحديثية. أو من خلال الفنون البلاغية، كالبحث في الحوار النبوي، أو جماليات الخبر والإنشاء، وهكذا.

٢) يوصي الباحث الأساتذة الإفادة من الرسائل البلاغية في الحديث النبوي، لتزويد مادهم بالشواهد النبوية؛ ليقف الطلاب على علو كعب البلاغة النبوية، وجلالة شأنها.

وبعد، فإني أحمد الله على توفيقه وإعانته، وأرجو منه سبحانه أن يتقبل هذا العمل، ويتجاوز عما فيه من الزلل، وأن يبارك فيه، وينفع به.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهـــــارس

❖ أولا: فهرس الآيات القرآنية.
❖ ثانيًا: فهرس الأحاديث النبوية.
❖ ثالثًا: ثبت المصادر والمراجع.
❖ رابعًا: فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾	١٩٧	٦٠
﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾	٢٠١	٦٨، ١١٣
سـورة التوبة		
﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾	١٢٨	٣٩، ١٥١
﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾	١٢٨	٧٠
سـورة هود		
﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى الْمَآءِ ﴾	٧	١٤٩، ١٥٢، ١٩١، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٥٦
سـورة الرعد		
﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴾	١٩	١٤١
سـورة الحجر		
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾	٨٧	٤٦، ٤٧
سـورة النحل		
﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ ﴾	٤٠	١٥٨، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٣٧، ٢٥٧
﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾	٤٠	١٨٣
سـورة الإسراء		
﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ﴾	١١٠	١٦٤، ١٦٩، ١٨٤، ٢٢٧

الآية	رقمها	الصفحة
سورة مريم		
﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي ﴾	٤	٩٠
سورة طه		
﴿ وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾	٣٩	٩٤، ٢٦٨
سورة الأنبياء		
﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ ﴾	٤٧	٢١٨، ٢٤٩
﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾	٤٧	١٧٦، ٢٥٨
﴿ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴾	٦٢	١٢١
﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾	٩٨	٦١
سورة النمل		
﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ ﴾	٥٩	٧٣
سورة القصص		
﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾	٧٣	٢٤١
سورة الروم		
﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾	٣٠	٦٣
سورة لقمان		
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴾	٣٤	٤٤

الآية	رقمها	الصفحة
سورة ص		
﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾	١٨	٨٠
﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾	٧٥	١٥٧، ٢٠٧، ٢٤٦
سورة الزمر		
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾	٩	٩٠
﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾	٧١	١٩٤
سورة غافر		
﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾	١٦	١٢٠
﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾	١٦	١٢٠
سورة فصلت		
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	٢٠ – ٢١	٢٧١
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾	٤٠	١٠٥
سورة الشورى		
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾	١١	٢٣٩

الآية	رقمها	الصفحة
سـورة محمد		
﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾	٢٢	٢٥٤، ٢٥٥
سـورة الفتح		
﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾	١٥	١٥٣، ١٥٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٥، ١٩٦، ٢١٢، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٤
﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾	٢٩	٢٣٥
سـورة ق		
﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾	٣٠	١٢٠
سـورة الذاريات		
﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾	٥٨	١٥٩، ١٨٣
سـورة النجم		
﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾	٤	٢٥٧
﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾	٤٣	٤٧
سـورة القمر		
﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾	١٧	١٤٩، ١٦٨، ١٦٩، ٢٦٥
سـورة الرحمن		
﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾	٦٠	١٦٤
﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾	٦٦	٤٩
سـورة المجادلة		
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾	١١	٤٦

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث
١٠٨	اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ.
١٠٧، ١٥١	اصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ.
١٧٤	أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ.
٦٨	أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟
٤٥، ١٤٩، ١٦٩	اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ.
٩٧	اقْرَأْ يَا عُمَرُ.
١٢١	أَلا تُصَلُّونَ ؟
١٠١، ١٥٨، ١٧٩، ٢١٠	أَلا فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلالا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ.
١٦٩	أَلا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ أَلا هَلْ بَلَّغْتُ ؟
١٧٥	آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ؛ آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ.
١١٥	أَمَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ شَيْءٌ ؟
١١٢، ١٢٦، ١٣٣	إِنَّ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْ النَّارِ، رَجُلٌ يَخْرُجُ حَبْوًا.
٣٠، ٣٩، ٢٥٨	إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يُعَذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ.
٢٢٢	إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ -فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ-.
٥٤، ٢٦٨	إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ.
٣١، ٧٧، ٨٩، ١٤٤	إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ.
٢٦٦	إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة.
٣١، ١١١، ١١٨، ١٣٢	إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

١) **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فواز زمرلي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١: ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٢) **أثر التشبيه في تصوير المعنى**، قراءة في صحيح مسلم، عبدالباري سعيد، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٣) **أدب الكاتب**، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محيي الدين عبدالحميد، القاهرة: دار الطلائع.

٤) **الأدب النبوي**، محمد الخولي، اعتنى به: عبدالمجيد الحلبي، بيروت: دار المعرفة، ط٣: ٢٠٠٠م.

٥) **إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري**، أبو العباس القسطلاني، مصر : المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٣هـ.

٦) **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، أبو السعود محمد بن العمادي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢: ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٧) **أساس البلاغة**، جار الله الزمخشري، تحقيق: محمد باسل السود، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨) **أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين**، قيس الأوسي، بغداد: جامعة بغداد.

٩) **أساليب القصر في الصحيحين ودلالاتها البلاغية**، عامر الثبيتي، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط١: ١٤٢٥هـ.

١٠) **أسرار البلاغة**، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ط١: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

١١) **أسرار النوم**، الكسندر بوربلي، ترجمة: أحمد عبدالعزيز سلامة، الكويت: منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٢م.

١٢) **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإعجاز**، عز الدين بن عبدالسلام، تحقيق: محمد إسماعيل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٣) **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى الرافعي، بيروت: المكتبة العصرية، اعتنى به: درويش الجويدي، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٤) **إعجاز القرآن**، القاضي أبو بكر الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر: دار المعارف.

١٥) **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ابن القيم الجوزية، تعليق وتخريج: مشهور بن حسن آل سلمان، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١: ١٤٢٣هـ.

١٦) **الاقتباس: أنواعه وأحكامه: دراسة شرعية بلاغية في الافتباس من القرآن والحديث**، عبدالمحسن العسكر، الرياض: دار المنهاج، ط١: ١٤٢٥.

١٧) **إكمال المعلم بفوائد مسلم**، أبو الفضل عياض اليحصبي، تحقيق: يحيى إسماعيل، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، ط١: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٨) **الإمام البخاري إمام الحفاظ والمحدثين**، تقي الدين الندوي، دمشق: دار القلم، ط٤: ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٩) **الإمام البخاري محدثًا وفقيهًا**، الحسيني عبد المجيد هاشم، القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع.

٢٠) **أمثال الحديث مع تقدمة في علوم الحديث**، عبدالمجيد محمود، القاهرة: دار التراث، ط١: ١٦٥.

٢١) **أمثال الحديث**، لأبي محمد الرامهرمزي، تحقيق: عبدالعلي الأعظمي، بومباي: الدار السلفية، ط١: ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.

٢٢) **الأمثال في الحديث النبوي**، كمال الدين المرسي، الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ط١: ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.

٢٣) **أنوار الربيع في علم البديع**، صدر الدين المدني، الهند: ١٩١٦م.

٢٤) **الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع**، الخطيب القزويني، تحقيق: محمد خفاجي، الرياض: مكتبة المعارف، ط١: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

٢٥) **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**، ابن كثير الدمشقي، تحقيق: علي حسن عبد الحميد ، تعليق : الألباني ، الرياض: مكتبة المعرف للنشر والتوزيع، ط١: ١٤١٧-١٩٩٦م.

٢٦) **بحوث المطابقة لمقتضى الحال**، علي البدري، مصر: مطبعة السعادة، ط٢: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢٧) **بحوث في تاريخ السنة المشرفة**، أكرم العمري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

٢٨) **البداية والنهاية**، ابن كثير الدمشقي، اعتنى به: عبدالرحمن اللادقي، ومحمد غازي بيضون، بيروت: دار المعرفة، ط١: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٢٩) **البديع في ضوء أساليب القرآن**، عبدالفتاح لاشين، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٠) **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة دار التراث، ط٣: ١٤٠٤هـ١٩٨٤م.

٣١) **البرهان في وجوه البيان**، لأبي الحسين إسحاق بن وهب الكاتب، تحقيق: حفني شرف، مصر: مكتبة الشباب.

٣٢) **البلاغة الاصطلاحية**، عبده قلقيلة، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٣: ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٣٣) **البلاغة العربية: أسسها، وعلومها، وفنونها**، عبدالرحمن حبنكة الميداني، دمشق:دار القلم، وبيروت: الدار الشامية، ط١٤١٦:١هـ-١٩٩٦م.

٣٤) **البلاغة العربية: مقدمات وتطبيقات**، بن عيسى باطاهر، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ.

٣٥) **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية**، محمد أبو موسى، مصر: دار الفكر العربي.

٣٦) **بلاغة الكلمة والجملة والجمل**، منير سلطان، الاسكندرية: منشأة المعارف.

٣٧) **البلاغة فنونها وأفنانها: علم المعاني**، حسن فضل عباس، عمان: دار الفرقان، ط٧: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣٨) **البلاغة في ثوبها الجديد (علم البديع)**، بكري شيخ أمين، بيروت: دار العلم للملايين، ط٢: ١٩٩١م.

٣٩) **البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم المعاني)**، بكري شيخ أمين، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط١: ١٩٧٩م.

٤٠) **بهجة النفوس وتحليلها بمعرفة ما لها وما عليها: شرح مختصر البخاري: المسمى: جمع النهاية في بدء الخير والغاية**، لابن أبي جمرة الأندلسي، مصر: مطبعة الصدق الخيرية، ط١: ١٣٤٨هـ.

٤١) **البيان المحمدي**، مصطفى الشكعة، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط١: ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٤٢) **البيان النبوي**، محمد رجب البيومي، المنصورة: دار الوفاء، ط١: ١٤٠٧-١٩٨٧م.

٤٣) **البيان والتبيين**، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت: دار الجيل.

٤٤) **تاريخ ابن خلدون**، عبدالرحمن بن خلدون، اعتنى به: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، ط١: ١٤٠١هـ.

٤٥) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٤٦) **تاريخ الحديث ومناهج المحدثين**، محمود عبيدات، عمّان: دار المناهج، ط١، ١٩٩٧م.

٤٧) **تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٤٨) **تأويل مشكل القرآن**، لابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: مكتبة دار التراث، ط٢: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٤٩) **التبيان في البيان**، شرف الدين حسين بن محمد الطيبي، تحقيق ودراسة: عبدالستار حسين زموط، بيروت: دار الجيل، ط١: ١٤١٦هـ.

٥٠) **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني شرف، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٥١) **تحفة الإخباري بترجمة البخاري**، ابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق: محمد ناصر العجمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط١: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٥٢) **تذكرة الحفاظ**، لشمس الدين الذهبي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٥٣) **التشبيه، دراسة في تطور المصطلح**، إبراهيم التلب، مصر: دار الطباعة المحمدية، ط١: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٤) **تصحيح الدعاء**، بكر أبو زيد، الرياض: دار العاصمة، ط١: ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٥٥) **التصوير البياني في آيات الأمن والخوف**، زينب الكردي، الكويت: دار غراس، ط١: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٥٦) **التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل البيان**، محمد أبو موسى، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٦: ٢٠٠٦م.

٥٧) **التطبيق الصرفي**، عبده الراجحي، بيروت: دار النهضة العربية، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٥٨) **التعبير البياني: رؤية بلاغة نقدية**، شفيع السيد، القاهرة: دار الفكر العربي، ط٤: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٥٩) **التعريض في القرآن الكريم**، إبراهيم الخولي، القاهرة: دار البصائر، ط١: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٦٠) **تفسير البحر المحيط**، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٦١) **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم**، عبدالعظيم المطعني، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٦٢) **تفسير التحرير والتنوير**، الطاهر بن عاشور، تونس: دار سحنون.

٦٣) **تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ابن جرير الطبري، تحقيق: عبدالله التركي، القاهرة: دار هجر، ط١: ١٤٢٢هـ.

٦٤) **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي السلامة، الرياض: دار طيبة، ط٢: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٦٥) **التفسير الكبير**، فخر الدين الرازي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

٦٦) **تفسير الكشاف**، جار الله الزمخشري، اعتنى به: خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة، ط١: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٦٧) **التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)**، حمادي صمود، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط٣: ٢٠١٠م.

٦٨) **تقييد العلم**، للخطيب البغدادي، تحقيق: يوسف العش، حلب: دار الوعي، ط٣، ١٩٨٨م.

٦٩) **التلخيص في علوم البلاغة**، للقزويني، شرح: عبدالرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي، ط١: ١٩٠٤م.

٧٠) **التمهيد في علم التجويد**، ابن الجزري، تحقيق: علي حسن البواب، الرياض: مكتبة المعارف، ط١: ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٧١) **تهذيب التهذيب**، ابن حجر العسقلاني، عمّان: دار الفكر، ط١: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٧٢) **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، جمال الدين المزي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٧٣) **التوجيه البلاغي لآيات العقيدة في القرنين السابع والثامن الهجـريين**، يوسـف العليوي، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسـلامية، عمـادة البحـث العلمـي، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٧٤) **التوضيح لشرح الجامع الصحيح**، ابن الملقن سراج الدين عمر الأنصاري، تحقيق : دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث بإشراف: خالد الرباط و جمعة فتحـي، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط١: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٧٥) **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنـان**، عبـدالرحمن السـعدي، تحقيـق: عبدالرحمن اللويحق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧٦) **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، للرماني والخطـابي وعبـدالقاهر الجرجـاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سـلام، مصر: دار المعارف، ط٣.

٧٧) **جامع العلوم والحكم**، ابن رجب الحنبلي، اعتنى به: حسين إسبر، بيروت: دار ابن حزم، ط٢: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٧٨) **الجامع الكبير**، أبو عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد معـروف، بـيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢: ١٩٩٨م.

٧٩) **جزء فيه ترجمة البخاري**، شمس الدين الذهبي، تحقيق: إبراهيم الهاشمي، بـيروت: مؤسسة الريان، ط١: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٨٠) **جماليات المفردة القرآنية**، أحمد ياسوف، دمشـق: دار المكـتبي، ط٣: ١٤٣٠-٢٠٠٩م.

٨١) **جمالية الخبر والإنشاء: دراسة بلاغية جمالية نقدية**، حسين جمعة، دمشق: اتحـاد الكتاب العرب، ٢٠٠٥م.

٨٢) **الجنى الداني في حروف المعاني**، الحسن المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة و محمـد نديم فاضل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

٨٣) **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، ابن القيم الجوزية، اعتنى به: محمـد علي ريحان، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٨٤) **جواهر البلاغة**، لأحمد الهاشمي، تعليق وتدقيق: سليمان الصالح،بيروت: دار المعرفة، ط١: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٨٥) **جوهر الكنز: تلخيص كنز البراعة في أدوات ذي اليراعة**، ابن الأثير الحلبي، تحقيق: محمد زغلول سلام، الاسكندرية: منشأة المعارف.
٨٦) **حاشية الدسوقي على شرح السعد**، ضمن شروح التلخيص، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٨٧) **حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي**، ناصر الدين عبدالله الشيرازي، ضبط وتصحيح: عبدالله محمود عمر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٨٨) **حاشية محيي الدين الشيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي**، اعتنى به: محمد عبدالقادر شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٨٩) **الحديث النبوي: مصطلحاته، بلاغته، كتبه**، محمد لطفي الصباغ، دمشق: المكتب الإسلامي، ٢٠٠٣م-١٤٢٣هـ.
٩٠) **الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية**، عز الدين السيد، بيروت: دار اقرأ، ط١: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٩١) **الحديث والمحدثون**، محمد محمد أبو زهو، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
٩٢) **الحيوان**، لأبي عثمان الجاحظ، شرح وتحقيق: عبدالسلام هارون، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٢.
٩٣) **خزانة الأدب وغاية الأرب**، ابن حجة الحموي، شرح: عصام شعيتو، بيروت: دار الهلال، ط١: ١٩٨٧م.
٩٤) **الخصائص البلاغية في البيان النبوي**، محمد أبو العلا الحمزاوي، الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
٩٥) **خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، محمد أبو موسى، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٥: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٩٦) **الخصائص**، لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، مصر: المكتبة العلمية.

٩٧) **خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل**، للبخاري، دراسة وتحقيق: فهد الفهيد، الرياض: دار أطلس الخضراء، ط١: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٩٨) **دراسات منهجية في علم البديع**، الشحات محمد أبو ستيت، مصر: دار خفاجي، ط١: ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٩٩) **دروس البلاغة مع شرح ابن عثيمين**، محمد بن عثيمين، اعتنى به: محمد المطيري، الكويت: دار غراس، ط١: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٠٠) **دلائل الإعجاز**، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٥: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

١٠١) **دلالات التراكيب: دراسة بلاغية**، محمد أبو موسى، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٤: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٠٢) **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**، محمد بن علي بن علان، اعتنى به: صالح اللحام، بيروت: دار ابن حزم-عمّان: الدار العثمانية، ط١: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٠٣) **ديوان أبي تمام بشرح التبريزي**، تحقيق: محمد عبده عزام، القاهرة: دار المعارف، ط٥.

١٠٤) **ديوان البحتري**، القاهرة: دار المعارف، ط١.

١٠٥) **ديوان زهير بن أبي سلمى**، اعتنى به: حمدو طماس، بيروت: دار المعرفة، ط٢: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٠٦) **رصف المباني في شرح حروف المعاني**، للمالقي، تحقيق: أحمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

١٠٧) **روائع البيان في الأمثال النبوية**، محمود السيد حسن، الاسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ط٢: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٠٨) **زبدة التفسير**، محمد الأشقر، عمان: دار النفائس، ط٥: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٠٩) **سر الفصاحة**، ابن سنان الخفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١١٠) **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين الذهبي، أشر على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١١: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١١١) **سيرة الإمام البخاري: سيد الفقهاء وإمام المحدثين**، عبد السلام المباركفوري، نقله إلى العربية وعلّق عليه: عبد العليم البستوي، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٢هـ.

١١٢) **شذا العرف في فن الصرف**، أحمد الحملاوي، شرح: حسني عبدالجليل، القاهرة: مكتبة الآداب.

١١٣) **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن العماد الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير، ط١: ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

١١٤) **شرح أحاديث من صحيح البخاري: دراسة في سمت الكلام الأول**، محمد أبو موسى، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١: ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

١١٥) **شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة**، سعيد القحطاني، توزيع: مؤسسة الجريسي، ط١٤٢٥:١٠هـ.

١١٦) **شرح الرضي على الكافية**، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، ط٢: ١٩٩٦م.

١١٧) **شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى: الكاشف عن حقائق السنن**، شرف الدين الطيبي، تحقيق ودراسة: عبدالحميد هنداوي، ط١: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

١١٨) **الشرح الممتع على زاد المستقنع**، محمد ابن عثيمين، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١: ١٤٢٤هـ.

١١٩) **شرح رياض الصالحين**، محمد بن عثيمين، عنيزة: مؤسسة الشيخ محمد بن عثيمين الخيرية.

١٢٠) **شرح صحيح البخاري لابن بطال**، علّق عليه: أبو تميم ياسر إبراهيم، الرياض: مكتبة الرشد، ط١: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٢١) **شرح صحيح البخاري محمد بن عثيمين**، القاهرة: مكتبة الطبري، ط١: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٢٢) **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، جلال الدين السيوطي، بهامشه: حلية اللب المصون على الجوهر المكنون، لأحمد الدمنهوري، بيروت: دار الفكر.

١٢٣) **شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري**، عبدالله الغنيمان، دمنهور: مكتبة لينة، ط١: ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

١٢٤) **شرح مواهب الفتاح على تلخيص المفتاح**، ابن يعقوب المغربي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، بيروت: المكتبة العصرية، ط١: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

١٢٥) **شروط الأئمة الستة، محمد طاهر المقدسي**، عناية: طارق السعود،بيروت: دار الهجرة، ط٢: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٢٦) **الشعر والشعراء**، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٢٧) **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، للقاضي عياض، تحقيق: علي البجاوي، بيروت: دار الكتاب العربي.

١٢٨) **الصاحبي في فقه الغة العربية ومسائلها**، وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق: عمر الطباع، بيروت: مكتبة المعارف، ط١: ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

١٢٩) **الصبغ البديعي في اللغة العربية**، أحمد إبراهيم موسى، القاهرة: دار الكاتب العربي، ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.

١٣٠) **الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية**، لإسماعيل الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٣١) **صحيح أبي عبدالله البخاري بشرح الكرماني**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢: ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

١٣٢) **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ)**، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، مصر: دار إحياء الكتب العربية -عيسى البابي الحلبي وشركاه-، ط١: ١٣٧٤هـ.

١٣٣) **صحيح مسلم بشرح النووي**، إشراف: حسن عباس قطب، الرياض: دار عالم الكتب،ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٣٤) **صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة**، علوي السقاف، السعودية: دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٣٥) **الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف**، أحمد ياسوف، دمشق: دار المكتبي، ط٢: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٣٦) **طبقات الحفاظ**، السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

١٣٧) **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين السبكي، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

١٣٨) **طبقات علماء الحديث**، محمد بن أحمد الدمشقي الصالحي، تحقيق: أكرم البلوشي، وإبراهيم الزيبق، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٣٩) **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، يحيى بن حمزة العلوي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، بيروت: المكتبة العصرية، ط١: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٤٠) **عادات الإمام البخاري في صحيحه**، عبد الحق المكي، تحقيق: محمد العجمي، الكويت: مكتب الشؤون الفنية، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

١٤١) **عبقرية محمد ﷺ** ، عباس محمود العقاد، القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

١٤٢) **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، بهاء الدين السبكي، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

١٤٣) **علم المعاني: دراسة بلاغية ونقدية لمسائل علم المعاني**، بسيوني عبدالفتاح فيود، القاهرة: مؤسسة المختار، ط٣: ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٤٤) **علوم الحديث ومصطلحه**، صبحي الصالح، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٢م.

١٤٥) **علوم الحديث**، ابن الصلاح، تحقيق: طارق بن عوض الله، مصر: دار ابن عفان، والسعودية: دار ابن القيم، ط١: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٤٦) **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بدر الدين العيني، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٤٧) **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، لابن رشيق القيراوني، تحقيق: النبوي عبدالواحد شعلان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط١: ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٤٨) **الفائق في غريب الحديث**، جار الله لزمخشري، تحقيق: علي محمد البيجاوي-محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، ط١: ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٤٩) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ابن حجرالعسقلاني، اعتنى به: أبو قتيبة الفارابي، الرياض: دار طيبة، ط١: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٥٠) **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٥١) **فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي الشوكاني، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٢: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٥٢) **فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين**، عبدالمحسن العباد، الدمام: دار ابن القيم، ط١: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٥٣) **الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثًا النووية**، لابن مرعي الشبرخيتي، تحقيق: أحمد الحداد، الرياض: دار الصميعي، ط١: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٥٤) **الفروق في اللغة**، لأبي هلال العسكري، تحقيق: جمال مدغمش، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٥٥) **فقه اللغة وأسرار العربية**، الثعالبي، شرح: ديزيره سقال، بيروت: دار الفكر العربي، ط١: ١٩٩٩م.

١٥٦) **فن التشبيه**، علي الجندي، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢: ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

١٥٧) **الفهرست**، ابن النديم، شرحه وعلّق عليه: يوسف علي طويل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

١٥٨) **الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان**، ابن القيم الجوزية، بيروت: دار الكتب العلمية.

١٥٩) **الفوائد المنتقاة من فتح الباري وكتب أخرى**، عبد المحسن العباد البدر، ضمن مجموعة كتب ورسائل عبد المحسن العباد البدر، ج/٨، الرياض: دار التوحيد، ط٢، ١٤٢٨هـ.

١٦٠) **القاموس المحيط**، الفيروز آبادي، علّق عليه: نصر الهويريني، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

١٦١) **القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى**، محمد بن عثيمين، الرياض: مدار الوطن للنشر، ١٤٢٩هـ.

١٦٢) **القول البديع في علم البديع**، مرعي الحنبلي، تحقيق ودراسة: محمد الصامل، الرياض: دار كنوز إشبيليا، ط١: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٦٣) **القول المفيد على كتاب التوحيد**، محمد بن عثيمين، الدمام: دار ابن الجوزي، ط٢: ١٤٢٤هـ.

١٦٤) **الكامل**، أبو العباس المبرد، علّق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١٦٥) **كتاب الإيمان**، شيخ الإسلام ابن تيمية، الاسكندرية: دار ابن خلدون.

١٦٦) **كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر**، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي-محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: المكتبة العصرية، ط١: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١٦٧) **الكتاب: كتاب سيبويه**، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٣: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٦٨) **كشف الظنون**، عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى الرومي المشهور بحاجي خليفة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٦٩) **لسان العرب**، ابن منظور، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٧٠) **لمعة الاعتقاد**، ابن قدامة المقدسي، شرح: عبدالرحمن المحمود، الرياض: دار الوطن، ط١: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٧١) **ما تمس إليه حاجة القاري لصحيح الإمام البخاري**، النووي، تحقيق: علي حسن عبدالحميد، عمّان: دار الفكر.

١٧٢) **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: بدوي طبانة وأحمد الحوفي، القاهرة: دارنهضة مصر.

١٧٣) **المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع**، عبدالعظيم المطعني، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١.

١٧٤) **المجازات النبوية**، الشريف الرضي، تحقيق: طه محمد الزيني، القاهرة: مؤسسة الحلبي.

١٧٥) **مجمع الأمثال**، أبو الفضل أحمد الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

١٧٦) **مجمل أصول أهل السنة والجماعة في العقيدة**، ناصر العقل، القاهرة: دار الصفوة، ط٢: ١٤١٢هـ.

١٧٧) **المختار من كنوز السنة**، محمد عبدالله دراز، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط٤: ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٧٨) **المدخل إلى السنن الكبرى**، للحافظ البيهقي، دراسة وتحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الرياض: مكتبة أضوء السلف، ط٢: ١٤٢٠هـ.

١٧٩) **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**، عبدالكريم زيدان، بيروت: مكتبة الرسالة، ط١: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٨٠) **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، بدر الدين بن مالك، تحقيق: حسني عبدالجليل، مصر: مكتبة الآداب.

١٨١) **المطول شرح تلخيص المفتاح**، سعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٨٢) **معاني القرآن**، للفراء، بيروت: عالم الكتب، ط٣: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٨٣) **معاني النحو**، فاضل السامرائي، عمّان: دار الفكر، ط٣: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٨٤) **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، جلال الدين السيوطي، ضبط وتصحيح: أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٨٥) **المعجم الأدبي**، جبور عبدالنور، بيروت: دار العلم للملايين، ط١: ١٩٧٩م.

١٨٦) **معجم البلاغة العربية**، بدوي طبانة، الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

١٨٧) **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، بيروت: دار صارد، ط٢: ١٩٩٥م.

١٨٨) **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، أحمد مطلوب، بيروت: الدار العربية للموسوعات، ط١: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٨٩) **المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية**: إبراهيم مصطفى - أحمد حسن الزيات - حامد عبدالقادر - محمد علي النجار، إسطنبول: المكتبة الإسلامية.

١٩٠) **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت: دار الجيل.

١٩١) **المغني في تصريف الأفعال**، عبدالخالق عضيمة، القاهرة: دار الحديث، ط٢: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٩٢) **مفتاح العلوم**، أبو يعقوب السكاكي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٩٣) **مفردات ألفاظ القرآن**، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان داوودي، دمشق: دار القلم-بيروت: الدار الشامية، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٩٤) **المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم**، الحافظ القرطبي، تحقيق: محيي الدين بستو، وأحمد السيد، ويوسف بديوي، ومحمود بزال، دمشق: دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، ط١: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٩٥) **مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة**، فاطمة سعيد حمدان، مكة: جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٩٦) **المقتضب**، لأبي العباس المبرد، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، القاهرة: وزارة الأوقاف: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١٩٧) **الملخص الفقهي**، صالح الفوزان، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١٤: ١٤٢١هـ.

١٩٨) **من أسرار البيان النبوي،** أحمد محمد علي، القاهرة: دار الصحوة للنشر، ط١: ١٩٨٥م.

١٩٩) **من بلاغة السنة،** محمد بيلو أبو بكر.

٢٠٠) **من بلاغة القرآن،** أحمد بدوي، القاهرة: دار نهضة مصر، ط٤: ٢٠٠٧م.

٢٠١) **من روائع الأدب النبوي،** كامل الدقس، جدة: دار الشروق.

٢٠٢) **من نحو المباني إلى نحو المعاني،** محمد طاهر الحمصي، دمشق: دار سعد الدين للطباعة والنشر، ط١: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢٠٣) **مناهج المحدثين،** سعد الحميد، اعتنى به: ماهر آل مبارك، الرياض: دارعلوم السنة، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٠٤) **المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء،** للقاضي أحمد الجرجاني، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

٢٠٥) **النداء في اللغة والقرآن،** أحمد محمد فارس، بيروت: دار الفكر اللبناني، ط١: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٢٠٦) **النظم القرآني في آيات الجهاد،** ناصر الخنين، الرياض: مكتبة التوبة، ط١: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٢٠٧) **نقد الشعر،** قدامة بن جعفر، محمد عبالمنعم خفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية.

٢٠٨) **النهاية في غريب الحديث والأثر،** مجد الدين ابن الأثير، أشرف عليه: علي حسن عبدالحميد، الدمام: ابن الجوزي، ط١: ١٤٢١هـ.

٢٠٩) **النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى،** محمد الحمود النجدي، الكويت: مكتبة الإمام الذهبي.

٢١٠) **هدي الساري مقدمة فتح الباري،** ابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبو قتيبة نظر الفاريابي، الرياض: دار طيبة، ط١: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢١١) **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع،** جلال الدين السيوطي، تحقيق:أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٢١٢) **وحي الرسالة: فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع**، لأحمد حسن الزيات، مصر: مطبعة الرسالة، ط١.

٢١٣) **وحي القلم**، مصطفى الرافعي، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

٢١٤) **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البيجاوي، بيروت: المكتبة العصرية، ط١: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦.

٢١٥) **الوطاءة: مذكرة في تسهيل التجويد**، عبدالله الأنصاري، الرياض: دار الكتاب والسنة، ط١: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٢١٦) **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ابن خلّكان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر.

ثانيًا: الرسائل العلمية:

٢١٧) **الاستفهام في الصحيحين: خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية، دراسة بلاغية تحليلية**، عبدالعزيز العمار، (رسالة دكتوراه)، كلية اللغة العربية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

٢١٨) **أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري**، أبو سليمان الخطابي، تحقيق ودراسة: محمد سعد آل سعود، (رسالة دكتوراه)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى.

٢١٩) **بلاغة البديع في جزء عم**، عمر المحمود، (رسالة ماجستير)، كلية اللغة العربية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

٢٢٠) **البلاغة النبوية في أحاديث كتابي الفتن والاعتصام بالكتاب والسنة من صحيح البخاري**، نوف الشمري، (رسالة ماجستير)، كلية اللغة العربية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

٢٢١) **التشبيه التمثيلي في الصحيحين**، فائزة سالم صالح أحمد، (رسالة ماجستير)، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى.

٢٢٢) **القصة النبوية في الصحيحين: دراسة بلاغية تحليلية**، محمد الدكان (رسالة ماجستير)، كلية اللغة العربية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

ثالثًا: المجلات العلمية:

٢٢٣) **إصلاح الإيضاح: استدراكات ومناقشات لمسائل في كتاب الإيضاح للقزويني**، عبدالمحسن العسكر، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: ٤٦، محرم ١٤٢٦هـ.

٢٢٤) **قصة الفيلسوف الكندي وأبي العباس حول أضرب الخبر في اللغة العربية: نقد وتوثيق.** مجلة العرب: عدد شهري رجب وشعبان ١٤٢٨هـ.

٢٢٥) **المجاز عند الأصوليين بين المجيزين والمانعين**، عبدالرحمن عبدالعزيز السديس، مجلة جامعة أم القرى، العدد: ٢٠.

٢٢٦) **معالم البيان في الحديث النبوي**، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: العلوم العربية، العدد: ١٧، شوال، ١٤٣١هـ.

رابعًا: الشبكة العالمية (الانترنت):

٢٢٧) **شرح عيون الأخبار**، عبدالكريم الخضير.

٢٢٨) **شرح كتاب الإيمان من صحيح مسلم**، عبدالله بن جبرين.

٢٢٩) **شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري**، عبدالعزيز الراجحي.

٢٣٠) **مذكرة مصادر السنة ومناهج مصنفيها**، حاتم العوني.

فهرس الموضوعات